

مولود فرعون

الدُّرُوبُ الوَعْرَةُ

ترجمة: د. حنفي بن عيسى

المؤسسة الوطنية للكتاب
ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE



0158243

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

| | |
|---------------------------------|------|
| المكتبة العامة لكتبة الاسكندرية | |
| رقم القيد : | ٤١٦٣ |
| رقم التسجيل : | ٤١٦٣ |

مولود فرعون

الدروب الموعرة

(Les chemins qui montent)

رواية

«طبعة خامسة منقحة»

1990

ترجمها من الفرنسية

د. حنفي بن عيسى

المؤسسة الوطنية للكتاب

3 ، شارع زهروت يوسف
الجزائر

رقم النشر 86,2484
المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر - 1990

اذا ما قصدت الاربعاء ناث بيراشن
فالدروب اليها عديدة .
ولكن مصا اخترت الطريق ...
فالدروب كلها وعرة .

مثل قبالي

القسم الاول المأتم

الفصل الاول

أخذت (ذهبية) يوميات عامر ، ووضعتها أمامها ، ثم قربت منها صندوقا ، واتخذت منه مكنيا ، كما رآته يفعل غير ما مرة ، وشرعت تكتب على دفتر صغير بلي غطاءؤه الأخضر بعض الشيء . وظلت تكتب مستضيئة بالنور الشاحب الذي ينبعث من مصباح البترول العتيق .

وأدركت أمها أنه (1) مألحة ما يعتدل في نفسها من حزن وألم ، فلم تخاطبها بكلمة ، وإنما راحت تعد فراش النوم ، ثم تمددت تحت البطاء بعد أن حلت حزامها الأحمر الذي حطته غير بعيد من المخدة . وتجردت كذلك من محرمتها (2) لأنها تحب دائما أن تكون مرتاحة في عباؤها ، وأن تترك شعرها المرسل منشورا فوق الحصيرة . إنها تكره أن تدخل أي تغيير على عاداتها ، وتلك في نظرها هي الطريقة الوحيدة لمجابهة هذه المصيبة : فلا بد من ربط الصلة بين الماضي والمستقبل ، ولا بد من نسيان الحاضر وتجاهله تماما ، كما يفعل العقلاء من الناس الذين يعرفون أن الحاضر لا ينبغي أن

1 - لئنه : كلمة يخاطب بها الصغار الكبار من النساء احتراماً لهن . (المترجم) .
 2 - المحرمة : المنديل (غطاء الرأس للنساء) ، وهي عامة . ولعل أصل التسمية أن « المحرمة » تعطف للمرأة حرمتها (المترجم) .

نكترث له ، لأن الحاضر يحاول دائما أن ينقص المستقبل ، وأن
يفسد الحياة. فهو كالشخص المغرور الذي لا يستحي. وهذا بالضبط.
ما لا يجوز أن يقع في الظروف الراهنة . والمسألة كلها في نظرها على
غاية من البساطة : أن هذا الحاضر البغيض الذي تريد من ذهبية
أن تنساه ، وأن تنساه سريعا ، يتشل في عامر الذي مات وانتهى
أمره ، فليكن اذن في حكم العدم .

ولكن ذهبية متأثرة جدا بالمصيبة التي حلت بها . لقد أمضت
ساعات طوالا في قراءة اليوميات ، وها هي ذي الآن تكتب كأنها
بنت صغيرة مجتهدة ، أو تلميذة في المدرسة الابتدائية ، بارعة في
الخط ، متأثرة في تطبيق قواعد النحر والصرف . ان حروفها
صغيرة ، مستقيمة ، شبيهة بما تتصف به من حياء وعطف وحنان ،
وذلك واضح كل الوضوح من طريقتها في رسم حروف السين ،
وئني حروف الميم ، ومد حروف اللام والباء والدال مدا ليس فيه
غش ولا سوء لية .

انها كتابة فتاة شابة ساذجة ، قادرة على تصوير أحلام جنيلة
تشغل بال الأطفال ، ولكنها عاجزة عن تنفيس ما يعتلج في نفسها
من حزن عميق وثورة عارمة . وألى لها ، بمثل تلك الطريقة
الساذجة في الكتابة ، أن تشفي غليلها وأن تكشف كربها ! ولذلك
توقفت عند حد الصفحة الثالثة ، وأعادت قراءة ما كتبت ، ثم
تنهدت بصوت خافت :

— رحماك يا الهي ، رحماك !

« لقد تركت لي يا عامر بن عامر ما سجلته من يوميات ، وها هي ذي كلها أمامي ... وقد وقع بصري على الأوراق التي تركتها فوق الصندوق بمجرد أن دخلت الى الغرفة . وما فقدت صوابي حين رأيته هناك . وها أنا أحاول أن أكتب لها كلمة الختام ، فلا بد اذن من أن ألوب عنك في السهر طوال الليل . وصلت في يومياتك الى حد الليلة الثالثة عشرة ، فسأكتب اذن الفصل الثالث عشر . ولكنني لست قادرة على أن أعبر عن كل ما يجيش به خاطري ... وما حيلتي في ذلك ؟ وأنا على كل حال سأبذل جهد المستطاع . ان ليأتي هذه ستمتد أياما وأسابيع ، ولكن ، أقسم لك اني لن أعرف بعد اليوم سوى ليلة واحدة ، وان تلك الليلة سأخصصها لك وحدك ، وان حياتي كلها ستكون ليلا طويلا لا يكاد ينتهي ...

صبيحة هذا اليوم ، رجعت أمي من دار عامر ، شاحبة الوجه ، مرتعشة الشفتين ، فهمست بصوت أجش :

— يا لها من مصيبة يا بنتي ، لقد مات ... لا تسأليني عن شيء آخر ، وتعالني معي لتري بنفسك .

وعندئذ خيل الي انني وقعت في بئر لا يسبر له غور ، وشعرت بقلبي يدق بعنف ، وأحسست بمغص في بطني ، وبرجلي قد انفصلتا عني ، كما لو أن قنبلة مزقتني الى أجزاء صغيرة متناثرة في هاوية سحيقة . ولأحظت أمي ما آلت اليه حالتي ، فصنعتني صفتين قويتين ، فالتفضت وصرخت ببلادة :

— شكرا .

ثم صرت أجري ، ودفعت الباب ودخلت الى الغرفة في حالة من
الوجوم ، واتجهت الى الصندوق الذي وضعت فوقه الأوراق ،
وكنيت على يقين انني سأجدها هناك ، قتناولتها ، ولم أعد أبصر
شيئا مما حولي ، بل أنا لا أدري اذا كان عامر نفسه مسجى هناك
... وعدت الى دارنا وخبأت رأسي تحت الأغطية ، وانكمشت
على نفسي وأمسكت بين يدي مجموعة الأوراق ووضعتها بين
فخذي . لم أتحرك من مكاني طوال النهار ، ولم أتناول شيئا من
الطعام ولا شيئا من الشراب ، وتركت الأمور كلها لامي تدبرها
كيفما تشاء . ووجدتني أقول في نفسي ، كما لو كنت أخاطب أمي :
— افعلي يا أمي ، كما لو كنت أنا أيضا ميتة ، بل كما لو كنت
غير موجودة بالمرّة ... انشغلي به ، واتركيني لوحدي .

لاشك أن باحة دارهم غاصة بالناس . أما أمي ، فقد كانت
مشغولة جدا ، اذ رأيتها ذاهبة آيية ، وكانت كلما خرجت من دارنا
الى دارهم ، تغلق الباب وراءها لكيلا يزعجني أحد في وحشتي .

لا أدري ماذا حدث بعد العثور على جثة الميت ... غير أنني
استنتجت ، من الحركة الذاهبة الآيية ، أن رجال القضاء من
الفرنسيين جاءوا للقيام بالتحقيق . ثم أتى من بعدهم من حمل
الجثة لدفنها في التراب ، من غير جنازة ، كما توضع في التراب
جيفة البهائم ... وبهذه الصورة تخلص منه الناس في شيء من
العجلة ، ولم يقرأوا عليه القرآن ، ولم يترحموا على ذلك « الملحد
الكافر » . ولعلمهم كانوا يقولون في أنفسهم :

- هيا بنا الى تازروت ، لتتخلص من هذه الجثة الكريمة ..

وفي حوالي الساعة الثالثة ، بعد انصراف رجال التحقيق مباشرة ، ارتفع في باحة الدار ضجيج لا يكاد يبين منه شيء ، ثم سمعت وقع أحذية أمام الباب ، ثم لم أعد أسمع شيئاً . وبعد لحظات دخلت أمي ، وجلست بالقرب من الكانون (1) وأخذت تبكي ... غير أن بكاءها أزعجني ، فقلت لها صارخة :

- اسكتي ... انصرفي من هنا ، واتركيني لوحدي .

- هل أنت مجنونة يا ذهبية ؟

- نعم ، نعم أنا مجنونة . ألم تدركي ذلك بعد ؟ .. يا الهي ، يا الهي رحماك ...

وردت ذهيبة هامسة :

- يا الهي ، يا الهي رحماك ...

ثم اقتربت من أمها وأطفأت المصباح الصغير بعد أن أخذته من فوق الصندوق وحطته بالقرب من الوسادة ، واضطجعت على فراشها البارد وتمددت كأنها أرادت أن تتحدى الأرض المصقوفة التي لم يكن يقيها من بردها سوى الحصيرة والغطاءين . ولقد كان من عاداتها أن تدنو من أمها حتى يسري إليها الدفء سريعاً ،

1 - الكانون : حفرة في وسط الغرفة ، توفد فيها النار . وقد وردت بهذا اللفظ في النص الفرنسي (المترجم) .

ولكنها في هذه المرة لم تفعل ذلك ، بل ظلت ساكنة في مكانها ، حتى لا توقظ ننه مألحة . انها تشعر بالرغبة في أن تبقى بمفردها في تلك الظلمات ، وأن تواصل تفكيرها ، وأن تناجي نفسها بجميع تلك الخواطر التي تود لو أنها تستطيع أن تسجلها على الورق ، ولكنها لا تستطيع ، لأن تلك الخواطر أبت أن تخرج الى حيز الوجود ، فبقيت في نفسها كأنها غصة خائفة . وهي تشعر بتلك الغصة في حلقها وفي رأسها وفي صدرها وفي بطنها ... تشعر بها حملا ثقيلًا لم يلبث أن خيم على كيانها كله .

انها لم تعد تطيق ذلك الحزن الذي استولى عليها من الرأس الى أخمص القدمين ، وأفقدتها الشعور حتى أصبحت صورة حية للحزن الذي استبد بكيانها وطرحها جثة هامدة في فراشها ، فلا تكاد تبدي حراكا ، لكيلا توقظ ننه مألحة .
ثم رفعت صوتها مبتهلة :

— رحماك يا الهي ، وبورك اسمك ، وتعاليت قدرتك .

وصارت تردد بصورة آلية صلاتها ، تلك الصلاة التي تعلمتها بعدما تنصرت ، من الأب دوبوا الذي يتحدث اللغة الامازيغية⁽¹⁾ بطلاقة . وقد ترجم الأب دوبوا أقوال المسيح لكي يحفظها التلامذة في آيت واضح .

ورددت ذهبية صلاتها بالامازيغية أولا ، ثم بالفرنسية ، وعندئذ حدثت المعجزة :

1 — الامازيغية : لغة الامازيغ ، اي البربر (الترجم)

لقد خيل اليها ان عامرا لم يمت ، وان الظلمات تبددت ، وانها ليست نائمة بالقرب من أمها . وتمثلت نفسها مع عامر ، في وضوح النهار ، تمثلت نفسها معه هنا ، في دارها ، حيث جاء ليراها للمرة الأخيرة . وكانا لوحدهما ، لأن نه مألحة خرجت من الدار في وقت مبكر وذهبت لكي تقطف الزيتون في حقل شيخ البلدية . وتبادلا النظرات والابتسامات فشجعهما ذلك ، وأحست في نفسها بقوة تدفعها الى أن تبوح بكل شيء وأن تفتح قلبها لحبيبتها حتى تكشف له ما تكنه فيه ، ويعرفها حق المعرفة ، ويتفهم موقفها ويغفر لها ذنبها . ووجدت نفسها تناجيه بهذه العبارات :

« ما هذه الابتسامة الكثيرة يا حبيبي ؟ ألا ترى انني وهبت نفسي لك وحدك ؟ لقد كشفت لك عن جميع أسراري ، وأقسم لك بحبنا أن لا أكون بعد اليوم الا لك وحدك . اقترب مني وداعبني وضمني اليك . ألم تلاحظ بأن وجهي لم يعد يحمر حياء منك ؟ شكرا يا عزيزي ، لقد عادت اليك الابتسامة التي أحبها ، ورفت على ثغرك الجميل ، وأشرقت في عينيك الصافيتين صفاء الذهب ... عادت ابتسامة ذلك الوجه اللطيف المليء بالرجولة ... ذلك الوجه الملائكي ، يا ملاكي العزيز ... »

« أنا الآن مطمئنة لأنك فهمتني ، بل غفرت لي قبل أن تفهمني . ولتكن مطمئنا يا عميروش (1) ... فسوف أصارحك بكل شيء اذا كنت ترغب ذلك ، ولا بد انك تريد الصراحة ، لأنه من الأفضل أن تعرف حقيقة ما وقع . »

1 - عميروش : تعني عامر . (المترجم) .

« حرام أن يحطم مفران سعادتي ... ان هذا الشخص يكرهك ، ولكنني أنا أيضا صرت أكرهه . انه دنيء وغلبيظ ، وأنا على علم بأنه خائف منك يا عميروش . انه خائف من أن تهينه وأن تسلب عقل زوجته ، بل هو متأكد انك سحرتها ، وهذا ما يتهمس به سائر الناس في القرية ، لأنك جليل ، ولأنها لا تخفي على أحد انها وقعت في حبك . سامحني اذا قلت لك بأنني أنا أيضا غيرة من هذه الفتاة التي هي أجمل مني ، وأسعد حظا .

« المشروع الذي سنحققه معا على غاية من البساطة . أنصت الي يا عزيزي :

ان أملك في مغادرة البلاد شيء رائع ، فعليك اذن أن تبيع ما نملك من متاع ، ثم لنرحل معا . ولتعرف بأن حبيبتك ذهبية لن تشجعك على البقاء في هذه القرية التلسة . سأذهب معك الى أي مكان تشاء . ومهما كان الطريق الذي سنسلكه وعرا ، فانه سيهون أمامنا ... لنرحل عن هذه الديار ، ولنغادر هذا المكان التعس الى الأبد . ولننتقل الى بلد آخر نعاشر فيه من نشاء ، فلا يدري أحد اين كنا . ولا من اين جئنا » .

لن تنسى ذهبية الشهور الستة التي قضتها بالقرب من عامر . وها هي ذي تستعرضها كأنها شريط مسجل الى الأبد في ذاكرتها ، وسيظل دائما في متناولها لتستعرض صورته متى شاءت ..

واسترسبت في مناجاتها :

« بورك اسمك يا الهي . ان عامرا لا يزال حيا يرزق . لم
أنعم بقربه البارحة طوال النهار ؟ لقد صرت زوجته منذ البارحة ،
ولن تكون له بعد اليوم زوجة أخرى سواي ، كما أنني لن أكون
لغيره أبدا ... لا أعتقد أنه سيؤاخذني على ما فعلت ، ولن
يخطر بالبال أنني لست عذراء ، وأن مقران إنتهك عرضي
بالغضب والقوة ، انتقاما من عامر ، حتى يلطخ شرفي وشرفه ...
هذا مستحيل ، ولا يمكن أن يقع . وهل يموت المرء من أجل
مسألة تافهة كهذه ، ويحطم بذلك حياة أعز الناس إليه ؟ »

سنة شهور ... اشتدت خلالها أواصر المحبة بينهما ... وتبددت
ذهبية في مضجعهما بالقرب من أمها ، من غير أن تلامسها ، وخيل
إليها أن عينيها المحملقتين في ظلمات الدار الصغيرة المغلقة ، تبصران
على صفحة السقف نقطة مضيئة مترقصة ، كأنها فتحة تطل على
الغيب ، حيث وقف حببها يتطلع إليها . وصعدت إليه سعيدة
بلقائه ، وأرته أجنحتها باعتزاز وافتخار ، فتطلع كل منهما إلى الآخر .
ورفت ابتسامة على شفثيهما ، بعد ما لاحظا أنهما متشابهان كما
يشبه الاخ أخاه ، وأن الوجه منهما يشبه صورة الملاك المجنح
الموجودة في كنيسة آيت واضو .

وغمرها سرور كبير لأنها تستطيع بعد اليوم أن تذوق للسعادة
طعما . فلو لم تحب عامرا ، ولم تكن بنار ذلك الحب ، لما استطاعت
اليوم أن تتصور معنى السعادة . أما الآن فهي تدرك ، وتدرك
تماما ، أنه أصبح في امكانها كل يوم وكل ليلة ، ومتى شاءت ذلك ،

أن تستعيد ذكرياتها في وحشتها . ولن تكون الذكريات سوى نقطة الانطلاق . وستذهب حيث شاءت وشاء لها الهوى مع عامر ، وستكون له زوجة ، وستعيش معه في سعادة وهناء .

ستكون كغيرها من الناس : متقلبة بين الواقع والخيال ، غير انها ستعيش في عالم الخيال أكثر مما ستعيش في الواقع ... على أن وجه عامر المشرق كلما تمثلته ، سيتردد ذلك الواقع الكريه الذي سيصبح كأنه كابوس مخيف . ومهما حاول الاشرار في ايغيل زمان ، أمثال مقران : أن يحطموا حبها ، فانها ستظل وفية لحلمها الجميل ، وستعيش الى الأبد في ثنايا ذلك الحلم .

الفصل الثاني

ان ذهبية تعتقد جازمة أنها بنت لا كالبنت الأخرى ، وبالتالي فهي شبيهة بعامر الذي هو رجل لا كبقية الرجال . وقد كانت دائما تصدر عن هذه الفكرة في حياتها ، مما جعلها تنطوي على نفسها كأنها زهرة ناعمة خائفة من أن تتفتح . وهذا أمر لا يخفى على كل من يصادفها في الطريق لأول مرة : انه سيرى وجها جميلا صافي القسما ، مشرق البشرة ، ولكنه وجه بارد . وبالفعل فهو بارد برودة قد لا تقشعر لها الأبدان ، ولكنها تثير في النفس الكآبة ، لأنك تحس تجاهها انها برودة مصطنعة ومفروضة عليها كما لو أن هناك أحدا يغار على جمالها ويريد في بعض الأحيان أن يضفي عليها وجها مستعارا عابسا . ولكن ذهبية لا تكاد تبتسم قليلا ولا تكاد ترفع عينيها الزرقاوين النجلاوين ، لتوجه اليك نظرتها العذبة الناعمة ، ولا تكاد تفتح شفيتها الرقيقتين كأنها أكمات زهرة رائعة ، حتى يزول ذلك الوجه المستعار ، وحينئذ لا تملك نفسك من أن تصيح صيحة الاعجاب .

لقد كان هذا الوجه لغزا مغلقا بالنسبة الى عامر ، فعقد العزم منذ بداية التعارف ، على أن يكشف سره ، لا عن فضول ، بل

عن محبة وعطف . لقد كان يحس بنوع من التمرد يختلج في نفس ذهبية بنوع من التمرد أشبه ما يكون بتمرده هو ، لكنه أعمق وأكثر تعبيرا عن اليأس . بل هو تمرد لا يمكن للانسان أن يدرك له كنّها . ومما زاده حيرة أن ذلك الوجه الجميل وتلك العيون المتفتحة على الحياة تناديه وتستجده في اضطرابها . ولكن كيف السبيل الى أن يكشف عن سر ذلك اللغز ؟ .. وهكذا فلم يعرف عامر من أمرها شيئا ما عدا بعض الاعترافات التي أسرت بها اليه في اليوم الأخير ، فلم ينل منها بغيته ، ولم يدرك من اللغز شيئا .

عندما دخل عامر صبيحة البارحة وجلس على المقعد الحجري الموجود تحت السدة ، ضم ذهبية اليه وأسند رأسه على صدرها وأخذ يستمع الى دقات قلبها . وكانت ذهبية واقفة ترتعش من التأثير ، وأدركت أنها ، ان هي بادرت بالمداعبة ، فسوف يضمها بين ذراعيه بنعومة في البداية ، ثم بعنف متزايد . وتلك هي طبيعته ... فهو متأن في عمله ، غير مستعجل ، خجول مع سائر الناس . وهي تحب منه ذلك ، لأنه يبعث في نفسها الثقة والأمان ... وعلى هذا ، فبينما كانت في صبيحة البارحة تداعب خصلات شعره ، كما لو كان طفلا صغيرا ، وقد أسند رأسه على صدر حبيبته ، قال لها فرحا مبتسما :

— أحب أن أستمع الى نبضات قلبك . لأن قلبك يحدثني عن قصة حياتك . انه لا يخبيء عني شيئا ... وبفضله سأعرفك جيدا .

فأجابته :

— أود منك أن تخبرني ... ولكن فيما بعد ، لا الآن ...
أن تخبرني عما يقوله الناس عني .

— ما يقوله الناس ؟

فاستدركت قائلة :

— قل لي اذن ما هو رأيك .. أما رأي الناس فلا يهمني ..
ولكنه مات ، ولن يقول لها شيئا بعد اليوم . على أنها هي
تستطيع أن تستمر في افشاء ما في قلبها له ، وسيسمعها بكل
تأكيد . وبما أنها ستنفرد بالكلام ، فإن صمت حبيبها سيكون
دليلا على الموافقة والرضى .

وظلت تتطلع الى السقف محاولة أن تعثر من جديد على النقطة
المضيئة التي كانت تتراقص فوقها . غير أنها لم تبصر شيئا بالمرة .
وتساءلت متفجعة هل تسند رأسها بعد اليوم على صدره ، وهل
يضمها بين ذراعيه ؟ وهل ستراه مرة أخرى عائدا من النادي أو
من المقهى ، عابس الوجه بعض الشيء ، كما اعتاد أن يفعل في المدة
الأخيرة ؟ ولكنه مات ، ما في ذلك شك ، وترك من وراءه فراغا
هائلا .

وعندئذ توترت أعصابها من التأثير فحشت طرفا من الغطاء في
فمها ، وعضت عليه بكل ما أوتيت من قوة ، وتنهدت :
— لن يعود ، لن يعود أبدا ، خلاص ، يا الهي ، خلاص .

واتفضت في مكانها واستوت جالسة على فراشها وتمثلته بين ذراعيها فاحتضنته الى صدرها في قوة وعنف . آه ، لن يعرف أبدا كم هي تحبه ، والى أي حد صار يملأ الأيام والساعات والثواني من حياتها منذ أن أدركت بأنه سيقع في حبها وسيكون لها وحدها . انها الآن آسفة على حياتها السخيف الذي منعها من أن تبوح له بجميع أسرارها . ولعل الكبرياء هو الذي حال دون ذلك . الويل لكبريائها ! ومن هي حتى تكون متكبرة ؟ بنت حرام بكل تأكيد ... وقد عرف ذلك قبل موته ، وعزاؤها الوحيد في ذلك انها ، على الأقل ، اعترفت له بهذا الأمر المشين . ولو وجدت متسعا من الوقت لاعترفت له بكل شيء ، نعم بكل شيء . ومن يدري ، فلو أنها فعلت ذلك لنجا من الموت والهلاك .. وهكذا اقتنعت فيما بينها وبين نفسها أنها هي التي قتلت عميروش .

لا يسعها الا أن تلاحظ مرة أخرى أنها منحوسة على كل من يتصل بها . وهي تتذكر جيدا كيف أنها ، حينما كانت طفلة صغيرة في المدرسة ، كانت تعد من أكثر البنات ازعاجا وتشويشا . فاللعب معها يتحول الى خصومة وعداوة . ورفيقاتها يقابلنها بالصد والنفور . وكلما عظمت عليها احدى الراهبات ، تأبى الاقذار الا أن يأتي الامر بنقل تلك الراهبة الى مدرسة أخرى . واذا رغبت في ثوب أو منديل جميل ، فانها كانت دائما تحرم منها ، بينما جميع رفيقاتها يجدن كل ما يرغبن فيه . ولكل بنت من رفيقاتها أم واخوة وأب .. أما هي ، فليس لها سوى أمها .. أمها لا غير . وقد

عرفت هذا السر في التاسعة من عمرها ، حين أصيبت بمرض خطير ،
فجاء إليها من كانت تظنه هو أبوها ، وصرخ في وجهها :
— موتي اذا شئت يا ساقطة ، فلست بنتي .

على أنه هو الذي مات . مات بعدما ترك في قلبها جرحا أليما .
ومنذ ذلك الحين لا ينقضي يوم الا وتحس فيه أن ذلك الجرح قد
ازداد في قلبها عمقا . وصارت من ذلك اليوم قاسية في حكمها على
أماها ، شاعرة بالخزي والعار تجاهها ، حاقدة على أبيها ، محتقرة
له ، غير مبالية بكلام أماها ، متهربة من أبيها الذي كان فظا غليظا ،
ويغض الطرف عن سلوك زوجته وخيانتها ، ولا يصحو من السكر
والعريضة . ومع ذلك فهي في بعض الاحيان تشعر بسرور خفي لا
يخلو من المرارة والأسى ، حينما تقول في نفسها بأنه لا علاقة لها من
حيث الأخلاق والصفات بهذا الشخص الدنيء . وأما على كل
حال ، امرأة ذات عواطف نبيلة وذكاء لا بأس به ، بل ربما هي
أيضا من ذوات الفطنة والذكاء . ولا شك انها ورثت هذه الصفات
الحميدة عن شخص آخر ، عن أبيها الحقيقي الذي بقي في الخفاء ،
ذلك الأب الذي لن تعرفه أبدا ، والذي تكرهه بجميع كيائها ،
لأنه جعل منها ، وهي البنت الرقيقة الشعور ، فتاة محرومة لم يبق
لها من وسيلة في الحياة سوى جمل الحقد والضغينة للناس . لماذا
جعلت منها الأقدار فتاة مسيحية في قرية آيت واضو ، بينما سائر
أبناء المنطقة مسلمون ؟ نعم ، كلهم مسلمون في جميع أنحاء المنطقة
ما عدا آيت واضو وبعض القرى الأخرى ، حيث يشكل المسيحيون
أقلية صغيرة ... بل ان المسيحيين في منطقة القبائل لا يعتد بهم ولا

يحسب لهم حساب ، حتى ان أبناء عمها في اغيل زمان قد تناسوا الأمر ، ولا يعتبرونها مسيحية . وهي في أعماق نفسها تشعر بالارتياح اذ ترى أبناء عمومتها قد تناسوا الأمر . ولكنها مع ذلك تعرف ، وأما هي أيضا تعرف ، ان الناس في الواقع لا ينسون ... لا ينسون أبدا .

لقد تأكدت انه مألحة من شيء واحد على الأقل : وهو أنه لن يرغب أحد في الزواج من بنتها . وما لاشك فيه أن جميع السكان يشتهونها كفتاة للتسلية والمتعة ، ولكن لن يرغب أحد منهم في أن يتخذها لنفسه زوجة . أضف الى ذلك أنها فقيرة ، وما من أم لتقبلها زوجة لابنها . هذا الأمر يسبب لئنه مألحة كثيرا من القلق ، لأن همها الوحيد هو تزويج بنتها . وقد أصبح ذلك أكثر الحاحا على قدر ما كانت ذهبية تكبر وتنمو وتستدير أعطافها ويبرز نهذاها ويتفتح وجهها الوسيم .

وكانت في بعض الأحيان تقول في نفسها : « كم أنا غبية ! هل يمكن أن تبور (1) مثل هذه الفتاة الجميلة ؟ صحيح انها مسيحية ... ولكن ما الفرق بيني وبين سائر نساء اغيل زمان ؟ أما الفقر فأنا بالفعل فقيرة . آه من الناس ! انهم لا يقيمون الحساب الا للمال ، ومع ذلك فمكتوب عليها أن تتزوج كبقية البنات ، والأمر كله مسألة مكتوب ، فلا داعي للقلق إذن » .

1 - بابت العامة : لم تتزوج ، كالارض البور التي لا تحث (استعمال محلي) . (الترجمة) .

أما ذهبية فكانت تقول في نفسها : « صحيح ان أمي ليست مسيحية ، وقد لاحظت ذلك من زمن بعيد ، ولكن ، كم يبلغ عدد المسيحيين العاملين بتعاليم المسيحية في قرية آيت واضو ؟ »

وهي اذ تستعرضهم واحدا واحدا لا تجد أحدا ممن هو كذلك . ان الطائفة المسيحية في آيت واضو كثيرة العدد ، بل يكاد يبلغ عدد أفرادها النصف من الأهالي ، وجميع هؤلاء ، ما بين مسلمين ومسيحيين ، يتعاملون ويتعاشرون فيما بينهم في سائر أيام الأسبوع ، ما عدا يوم الأحد . ففي ذلك اليوم ، يحضر جميع أفراد الطائفة ، صغارا وكبارا ، رجالا ونساء ، يحضرون جميعا من الحي السفلي في القرية الى كنيسة دير الراهبات . انهم يقومون بنزهة جميلة في أيام الصحو فيغتنم كل واحد منهم هذه الفرصة ليعرض أحسن ما عنده من عباءات أو مناديل صفراء مزينة بأهداب طويلة ، وفوطات وفساتين وجوارب النيلون وحلي عتيقة . انهم يشعرون في أيام الأحد هذه أنهم يختلفون بعض الشيء عن بقية الناس : وأنهم الى حد ما أعلى مرتبة وأكثر حرية ، لأن الحواجز التقليدية بين الرجال والنساء وبين الكبار والصغار لا تلبث أن تزول في معبد الاله . واذا كان بعض الشباب يغتنمون تلك الفرصة لمغازلة البنات ، فان هذا الأمر يتم بمعرفة الخوري ورضاء ، وكأنه بذلك يريد أن يشعر المسيحيين أن الله قد خصهم دون سائر المسلمين . من أهالي القرية بامتياز المغازلة والحب ، اذا عرفوا كيف يستغلون الفرصة .

وبالفعل فهم لا يدعون الفرصة تفوتهم ، لأنهم يتزاجون ، وفيما بينهم فقط . والواقع انه قد يتزوج المسيحي أحيانا من مسلمة ، أو

المسلم من مسيحية ، ولكن هذه أحوال شاذة ، وإذا حصل ذلك فان الأسر التي تنشأ عن مثل هذه الزيجات هي بدورها شاذة ، فلا هي بالمسلمة ولا هي بالمسيحية ، ويهمل أفرادها الشعائر الدينية ولا يعنون الا بشؤونهم الخاصة ... وذهبية لا تحب المسيحيين من قريتها ، لأنهم في نظرها ليسوا مخلصين في اعتقادهم ، فالكثير منهم اعتنقوا المسيحية من أجل غرض في أنفسهم ، بل الأغراض المادية هي التي دفعت بهم جميعا في البداية لاعتناق المسيحية . وأولادهم مسيحيون بالوراثة ، غير أن هذا التقليد أصبح بالنسبة الى الكثير منهم عبئا ثقيلا . ومع ذلك فهم يعاملون المسلمين بشيء من التكبر الذي لا يخلو من الازدراء ، ويخوضون معهم في مناقشات حادة حتى يقنعوا الناس بأنهم أرفع منهم شأنًا . ولهم حجة دامغة يتذرعون بها دائما في جدالهم ، ويحاولون بها افحام خصومهم . فهم يقولون للمسلمين :

— انظروا الى الراهبات والى الآباء البيض ، وما يقومون به من أعمال البر والاحسان ، وما يقدمونه من خدمات لأمثالكم من الجاحدين بالنعمة ، ثم قارنوا بينهم وبين الشرفاء والمرابطين (1) الذين تدينون لهم بالولاء ، وتذكروا عاداتهم الشنيعة في كتابة الحروز ، وما يدبرونه من مكائد لغش الناس ، وما لهم من عيوب قبيحة ، وما يتصفون به من بلادة ... كونوا واقعيين ، واقتحوا عيونكم لكي تروا الأمور على حقيقتها .

1 - توجد في كل قرية من قرى منطقة القبائل جماعة من الشرفاء والمرابطين ، وهم يضطلمون بالصلاة على الجنازة والصلح بين الناس الخ ... (الترجم) .

الا أن المسلمين ، عوضا من أن يفتحوا عيونهم ، فهم على العكس لا يعبأون لكلامهم ولا يردون عليهم جوابا . ولو شاءوا لردوا عليهم قائلين : « اذا كان في سيرة المرابطين مجال للانتقاد فالذنب ليس ذنب الدين ، والديانة المسيحية نفسها قد مرت بمهد لم يكن فيه القسيسون أكثر تقى وأحسن سيرة من المرابطين » .

الا أن المسلمين يفضلون الصمت . وفي هذه المناقشات التي تجري بين المسيحيين والمسلمين ، يلاحظ أن المسيحي دائما هو الذي يفقد السيطرة على أعصابه ، ولعل السبب في ذلك هو أن المسيحيين لا يشكلون الأثرية . أما المسلمون فهم متيقنون بأنهم على هدى وبصيرة ، اعتمادا على وفرة عددهم . ولا يملك المسيحي في آخر الأمر الا أن يخامرته الشك في نفسه وأن يقول بأن المسلمين بالفعل هم على الصراط المستقيم .

ان ذهبية تعرف جيدا أبناء طائفتها : فليس لهم من المسيحية سوى الاسم . وقد سن لهم أحد الاوائل ممن اعتنق المسيحية في بداية هذا القرن ، سن لهم سنة أصبح الكثير منهم يتبعونها (وبالمناسبة فقبوره موجود في جبانة الكنيسة ، وعليه صليب) . ومن النوادر التي تحكى أن هذا المرتد عن الاسلام فوجيء ذات يوم من طرف أحد الآباء البيض ، وهو يؤدي فريضة الصلاة في المسجد ، فقال له الاب :

— يخيّل الي أنني رأيتك الراححة في المسجد ، أليس كذلك ؟

— نعم يا أبي !

— ولكن ... ولكن عهدي بك قد خرجت من دين الاسلام .

— وماذا يسعني من أن أكون مسلما ؟ لقد ولدت مسلما ...

ويقال ان الاب لم يلح كثيرا في الموضوع . أما اليوم ، فهؤلاء المرتدون عن الاسلام لا يؤدون الصلوات في المسجد ، ولكنهم يحلفون بالاولياء والصالحين ، ويحرصون على ختان أولادهم كالمسلمين ، ويحتفلون بالاعياد الاسلامية احتفالهم بالاعياد المسيحية ، ولا تقل نساؤهم عن غيرهن في الايمان بالخرافات والثقة التامة بالمعجزات وزيارة الدراويش ليكشفوا لهن عن الغيب .

كل هذا تعرفه ذهبية، كما أنها تعرف غير ذلك من الامور. وبطبيعة الحال فإن أبناء طائفتها وقع جميعا تعميدهم من طرف الكنيسة المسيحية ، وأصبحوا من يومئذ يعرفون باسم مسيحي ، لأن الآباء البيض وزعوا عليهم بسطاء أسماء النصارى مثل : « ماري » و « جان » وخاصة « أوغستين » و « مونيك » . الا أن الاسماء المحلية : كسعيد و آكلي و رابح وسعيد ، دائما مقترنة بتلك الاسماء المسيحية ، وللناس الخيار في هذه أو تلك عند المناادة والدعوة .

جميع الناس في آيت واضو ميالون للحكومة ، اذ أنهم — بمساعدة الآباء البيض — يحصلون دائما على وظيفة . وكان الرجال منهم في السابق ينخرطون في الجيش ، فاذا أنهوا الخدمة العسكرية وأحيلوا على التقاعد ، عادوا الى قريتهم ليحصلوا على أعمال مخصصة لهم ، فيكون منهم القهواجي أو الناطور

أو الدركي . أما اليوم فقد أصبح منهم ممرضون في مختلف مستشفيات الجزائر وحراس في السجون المدنية ، ورجال شرطة . أما الذين لم يحصلوا منهم على وظيفة ، فهم دائما مرتبطون مع الموظفين بقرابة أو نسب ، مما جعل سكان هذه القرية ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، يعتقدون بأنهم يساهمون بصورة فعالة في تسيير الشؤون العامة . وقد جعلهم هذا الامر ، وخاصة المسيحيين منهم، يعتقدون بأنفسهم، كما جعلهم يميلون الى الفخفة، حتى صاروا يتشبهون بالفرنسيين ويعتقدون بأنهم في المنزلة مثلهم أو أدنى منهم بقليل . وهذا ما دعا الشبان من الجيل الجديد الى تقليد الفرنسيين في كل شيء ، وهذا ما صيرهم أكثر حساسية وتأثرا من الكبار ... فاذا لاحظوا مثلا أنهم رغم كل ما يفعلون ، لا يزال ينظر اليهم باحتقار من طرف الفرنسيين ، فانهم يسخطون أشد السخط على المسيح والمسيحيين ، بسبب هذه التفرقة العنصرية .

ان أسرة ذهبية أفقر الاسر في القرية ، ولم يكن أحد يقيم لافرادها أي اعتبار ، مما جعلها منذ صباها تكن الحقد لهؤلاء المسيحيين المنافقين ، كما أنها منذ صباها منحت قلبها الغض للسيد المسيح الذي كرس حياته لخدمة الفقراء والمحرومين والمتألمين الذين ليس لهم لسان يعبر عن آلامهم . وهكذا فقد هامت في خلواتها مع نفسها ، بمحبة المسيح وأمه العذراء .

وكانت ذهبية قد حاولت أن تجد من تخلص له الود والصدقة ، غير أنها قوبلت في كل محاولة بالصد ... من طرف أمها ، ومن

طرف أيها ، ومن طرف الراهبات ومن كل رفيقاتها . وصارت
تكره من صميم قلبها كل من همه الوحيد جمع الاموال ، لأن
الناس من حولها لا يتحدثون الا عن الاموال والارزاق ، وخاصة
أفراد أسرتها التي كانت معوزة فقيرة . ولم تدرك في بداية الامر
العلاقة الموجودة بين كسب المال وارتداء الملابس الفاخرة ، وبين
كسب المال ، وارتفاع الشأن في أعين الناس . وحينها أدركت ذلك ،
عرفت أنها وقعت في نوع جديد من الجيف ، وأنها ستبقى على
تلك الحالة الى أن تدركها المنيّة .

ان عزاءها الوحيد هو المحبة التي تكنها في قرارة نفسها للطفل
المسيح وأمه العذراء . لأنها - فيما خيل اليها - وحيدان في
هذه الدنيا وضعيفان . ولكن الأغنياء والأقوياء رغم ذلك يخافون
منها ويخشون بأسهما . باستثناء الطفلة الصغيرة ذهبية التي
تنعم برفقتها في أحلامها وألعابها ووحشة أيامها .

وحينما بلغت الثانية عشرة من العمر ، صارت تتردد على الكنيسة
كغيرها من الكبار . ولم يكن يفوتها شيء مما يقوله الخوري .
وكان يخيل اليها أنه لا يوجد بين الحاضرين من يفهم كلامه
مثلها . واذا سبغها الخوري بالاجابة على الاسئلة التي تجيش
في نفسها . فانها كانت تشعر بالرغبة في أن تذهب اليه لتقبل رأسه .
كما يفعل المسلسون . ولقد تعودت أن تخرج من الكنيسة مشرقة
الوجه وأن تذهب الى الدار لتواصل صلاتها . ولم يكن الخوري
في بعض الاحيان يشفي غليلها تماما ، لأنها قد تخالفه في الرأي ،
عندئذ يخيب أملها وتشعر بنوع آخر من الفرحة ، وتحس بشيء

من الاعتزاز ، اذ تلاحظ بأنها متشددة وغير منسجمة ، وأنها بالتالي مغلقة في إيمانها . غير أن الموسيقى والترايم الدينية هي التي كانت تجذبها الى الكنيسة . فقد كانت الموسيقى تنقلها الى الاجواء الفسيحة وتأسر عقلها وتنسيها كل شيء . ولم يعلمها أحد تذوق الموسيقى ولم يكن أحد يستطيع أن يشعر مثلما كانت هي تشعر بتلك السعادة الكاملة ، وتلك النشوة الناعمة التي تسري في كيانها شيئاً فشيئاً كلما ازدادت الترايم قوة ، حتى تغمر كل شيء وترتفع في السماء . وعندئذ تحس ذهبيّة أنها هي أيضاً ترتفع في أعالي السماء . ولكن ، ما يكاد اللحن ينتهي حتى تلقي نظرة حزينة حوالها ، فتشقى بغصة في صدرها ... انها الفتاة التي لم يفهم مشكلتها أحد ، لا أمها ، ولا غير أمها من أبناء القرية . ولكنها لا تفهم أي اعتبار لسخرية الناس . لأنها معتزة بكونها تحس وتحب على طريقتها الخاصة . ليس من حقها اذن . وهي الفتاة الرقيقة الشعور ، أن تمتع نفسها على هواها ، وكانت تقول عن شبان آيت واضو :

... وفيهم تهسني أموالهم وحكاياتهم السخيفة ؟ بيني وبينهم من البعد ما بين السماء والأرض ...

وعندما أصيبت ذات يوم بمرض خطير . لم تشعر بالخوف من الموت . وانما احتفظت معها بصورة مريم العذراء وظلت تقبلها طوال مرضها . وكان يخيل اليها أن الطفل المسيح ينتظرها هناك في السماء . ليستأنس بقربها . ولم تشعر بالخوف أيضاً يوم أن توفي أبوها . وانما قالت :

— اغفر لي يا الهي اذا أنا قصرت في محبته ، واغفر له أيضا
لأنك رحيم بعبادك . وعسى أن تدخله دار النعيم مع عبادك
الصالحين بعد ما أقامت له الكنيسة المراسيم الدينية يوم دفنه .

لم يمس على كل ذلك زمن طويل . ولا شك أنها اليوم لم تعد
الطفلة الساذجة في تفكيرها كما كانت من قبل . كل ما في الامر أن
إيمانها صار أقوى . ولعل عيبها الوحيد أنها أخذت تفسر حسب
رأيها الخاص كل ما بقي في ذهنها غامضا من أسرار الدين . ومن
ذلك أن بوارد أنوثتها أحدثت في نفسها أثرا غريبا : فهي لم تعد
تحب المسيح شخصا في صورة طفل صغير ، بل صارت تحبه على
هيئة شاب وسيم تبدو عليه علامات الرجولة والشهامة . ان
المسيح الذي أصبحت تحبه هو المسيح الذي مات مصلوبا في
سبيل البشرية جعساء . انه المسيح الذي تتلف كل عذراء
مترفعة عن الحب الديوي ، لأن يكون لها زوجا في السماء .
انها متشوقة لأن تكون من بين أولئك العذاري . وقد وهبت
نفسها له في سرها :

— يا الهي ، لن أكون لأحد من الناس . لقد وهبت نفسي
لك ...

غير أن صوتا لا تعرف له كنها ، يهس في أعماق نفسها
كلما جددت الوعد الذي قطعتة :
— لقد وهبت نفسي لك ... ألا اذا ...

انه صوت أشبه ما يكون بصوت الغريزة الدينية . أو لعله
صوت ابليس اللعين الذي استقر في مكان خفي من جسدها .

الفصل الثالث

لم تشعر ذهبية ، بعد وفاة والدها ، بأي أسف لمفارقة سكان آيت واضو ، فلم تكن تحب أحدا منهم ، وما كان أحد منهم يقيم لها حسابا .

واستصبحت معها جميع صور مريم العذراء في علبة صغيرة وأودعت صورة المسيح في قلبها ، ولم تتأسف لاعلى الكنيسة ولا على الآباء ولا على الراهبات ، بالرغم من أنها تحبهم كثيرا . ولعلها تحب الكنيسة لا شيء سوى لأنها من بيوت الله ، وتحب الآباء البيض والراهبات لما كانوا يمثلونه ، لا من أجل أنفسهم ، لأنه لم يفضلها أحد منهم على بقية البنات ، ولم يفهموها ، بل على العكس كانوا يرون بأنها متصفة بعيب من أقبح العيوب ، وهو الغرور . وكثيرا ما لاحظوا لها ذلك فتجيبهم معترفة :

— ربما كان ضحيفا أنني مغرورة بنفسي ... ولكن ذلك لا يمنعي من أن أكون مسيحية من صميم القلب ، بينما الآخرون ليس لهم من المسيحية سوى الاسم .

وهكذا انتقلت من آيت واضو الى ايفيل نزمان ، متذمرة
 ساخطة ، نكاية بالمسيحيين وانتقاما منهم . انها ليست متخوفة
 من أن تعيش مع المسلمات ، لأنها بالرغم مما يبدو لأول وهلة ،
 قوية الارادة وذكية ، ومصممة على التمسك بدينها . وهي تعرف
 أن أمها لا يعينها هذا الامر ، لأنها لن تجد حرجا في أن تعتق
 الاسلام في ايفيل نزمان ، بعد ما كانت تدين بالمسيحية في آيت
 واضو . وعلى كل حال ، فلم يعد من الممكن لها أن تتباهى بدينها
 المسيحي في ذلك المحيط من المارقين الذين يسخرون من اعتقادها
 بتجسد المسيح ، ويستهزئون بكل ما هو في نظرها أعز ما في
 الحياة : الدين والمسيح . على أن شعورها الديني ما لبث أن
 انطفأ في ذلك المحيط الذي لم يبق فيه من الاسلام سوى بعض
 من العادات والطقوس البائدة والخرافات الساذجة . وان هي
 الا أيام وشهور حتى قل اهتمامها بالآخرة وصارت تعنى أكثر
 ما تعنى بالمواضيع اليومية والمشاريع الدنيوية والآمال البسيطة
 التي تراود عقول جميع الفتيات الجامحات المتدفقات بالصحة
 والحياة :

— يا ذهبية ، خذي جرتك ، نحن في انتظارك . ولتعلمي أن
 النادي غاص بالناس .

— دقيقة واحدة يا اخواتي ، أنا لاحقة بكن ..
 ولا تكاد تقول ذلك حتى تمسك الجرة في عجلة وتلحق
 بالمجموعة بعد أن تلقي نظرة مليئة بالرضى والسرور الى المرأة
 القائمة بالقرب من الباب . انها تعرف بأنها ستصادف في الطريق

بعض الشبان ، وستتركز عيونهم عليها فتشعر بالاعتزاز اذ تثير اعجابهم ، وعندئذ ترن الضحكات وتتراحم الفتيات في طريقهن الى العين ، ويتبادلن الاسرار والوشايات والقليل والقال ... تلك هي الحياة ... الايام تمضي سراعاً ، وما عليها عندما تأوي الى فراشها ، بالقرب من أمها النائمة ، ما عليها الا أن تسكب عبرة صغيرة من الندم وأن تبتهل الى الله ليغفر لها ذنبها . ولا تكاد تفعل ذلك حتى يراودها خيال شاب جريء النظرة ، فتمحي صورة الصليب من ذهنها . هكذا كانت تقضي وقتها كلما وجدت نفسها وحيدة بالقرب من أمها المستغرقة في النوم .

وتنهدت في الليل هامسة :

— رحماك يا الهي ، رحماك .—

، كانت تعرف الكثير من الامور عن عامر قبل رجوعه من فرنسا ، فقد كان في بعض الاحيان موضوع حديث البنات في العين . كما كان موضوع حديث أمه (مدام) حين تزورهم في الدار ... وكانت تنتظر مجيئه وفي نفسها له شيء من الجفاء لأنها متيقنة أنه لن يعيرها بعد رجوعه أي انتباه ، فلن تكون في نظره سوى فتاة مسيحية صغيرة ، لأنه سيعرف في الحين بأنها مسيحية ، مرتدة عن الاسلام ، وسيعتبرها فتاة لا تخلو من شيء من الجاذبية ، وسينظر اليها كما ينظر الى بنت قروية ساذجة لا تصون عرضها . ولكنه مخطيء اذا ظن بها هذه الظنون ، لأنها قررت فيما بينها وبين نفسها أن تشجعه في البداية على التودد اليها ، ثم ستعطي له درساً لن ينساه .

انها تتذكر كيف قالت لها أمها يوم اللقاء الاول :

— يا بنتي ، هذا هو ابن عمك ، فقبلي رأسه (1) .

وابتسمت مألحة ومدام (2) وخطا ابن العم خطوة الى الامام ونظر اليها وأحنى رأسه قليلا لكي يتلقى منها القبلة ، ثم أمسك يد ذهبية ولامسها بشفتيه في عجلة واضطراب ، كما لو كان منزعا من القيام بذلك العمل . وعادت ذهبية الى الدار ، غير راضية عن اللقاء الذي تم بينهما ، وقالت في نفسها :

— ذلك ما كنت أعتقد. بالضبط : لن يعبرني أي انتباه ، ولعله لا يزال يعتبرني فتاة صغيرة .

ولم تنقطع خلال الايام التي تلت المقابلة عن مراقبته والنظر اليه من بعيد ، وسلكت معه سلوك البنت الجامحة المنطلقة التي تريد أن تتدخل على أمها وعلى مدام ، وتجذ لذة في معاكسة ابن عمها . ولم يعد يهمها أن تلفت انتباهه ، لأنها لم تكن تشعر نحوه بالمحبة التي توجد بين سائر أبناء العم . أما عميروش فلم يكن وعيه ما ينعوها الى الاعتقاد بأنه يعبرها أي اهتمام . وكان أراد الخروج من الدار في الصباح ، يعرج على بيتهم ، / صوته في بهجة وسرور ، ويحيي من في الدار ، فلا تكاد تسمعه حتى تهرع الى عتبة الباب لترد عليه التحية بمثلها .

جرت العادة أن يتبادل الاقارب التحية عند اللقاء بتقبيل الراس .

(المترجم) .

— « مدام » هي ام عامر ، وتعرف بهذا الاسم لانها فرنسية الاصل ، وقد اشرنا اليها أحيانا باسم الرومية . (المترجم) .

وكانت ذهبية في بعض الاحيان تسبقه الى الزقاق متممدة ذلك ،
وتبادره بالتحية مبتسمة مشرقة الوجه ، فيرد عليها مبتسما هو
أيضا :

— صباح الخير يا صبية .

كان عامر وسيم الوجه ، طويل القامة ، مفتول العضلات ، وان
كانت مشيته المتثاقلة لا تنم عن قوته الجسدية . وكانت ذهبية
كلما أبصرته ، تتمنى لو أنه يعتدل في مشيته ويبرز قامته قليلا :
الا أنه لم يكن يحفل بذلك ، كما لو كان متأكدا أنه يستطيع أن
يشير الاعجاب بدون أن يتصنع . انه أليق ، ولكن في غير ما تكلف ،
ومتكبر ، ولكنه تكبر الانسان المتواضع الذي يحب الجد في
العمل . ولكم يلذ لها أن تسمعه يتحدث ، لأنه على غاية من اللطف :
ولأن حديثه معها يبعث في نفسها الدفء والحرارة ويشير لديها
روح التفاؤل . على أنه في بعض الاحيان يرتبك في كلامه ولا
يدري ما يقول فتستاء ذهبية منه كما لو انه تعمد ذلك
ليعاكسها . لقد سحرها بكل ما في نفسه من صفات حميدة ،
وكذلك بكل ما له من عيوب ، وكم تتمنى لو تدرك سر تلك
العيوب . وكثيرا ما كانت أمها توقفه في الطريق ليتبادل معها
أطراف الحديث ، فتحتمي منه وراء ظهر أمها ، وتسمع صوته
العذب ، وتحاول عبثا أن تفلت من عينيه الحلوتين الساحرتين .
وكانت لا تملك نفسها كلما رآته ، من أن تردد :

— ما أطفه ، ما أطفه ! .

كانت تنصت الى حديثه ، ولكنها لم تكن تسمع مما يقوله
 لأنها شيئاً . واذا انصرف في حال سبيله فهي ترفقه بنظرة حزينة .
 ومضت أيام واذا بها تفضله على جميع شبان القرية الذين لم تعد
 تحفل بأحد منهم ، وما كان يهمها منه سوى أن تبعم بصحبته وأن
 تشعر به قريبا غير بعيد . واذا مرت بالنادي أو صادفته في الطريق
 برفقة بعض الشبان ، فانها لا تكاد تميزه بصوته الحبيب حتى
 تعزل عن رفيقاتها من البنات ، فتتوانى في سيرها لتكون آخر
 من يمر ، أو تحت الخطى الى رأس الموكب ، أو تنفصل عن سرب
 البنات حتى يراها ، وحينئذ يخيّل اليها انه يرفع صوته ، وان
 الكلمة التي سمعتها موجهة خصيصا اليها .

وذاث يوم ، بينما كانت أمها خارج الدار ، وكانت هي
 تمشط شعرها جالسة على عتبة الباب ، مركزة عينيها على باب
 منزله ، اذا بها تسمعه يهم بالخروج . وصار قلبها يخفق
 خفقانا قويا وحدثتها نفسها بالهروب من ذلك المكان . وحينما
 مر عامر بالقرب منها ألقت اليه نظرة استعطاف محملة بحبها
 واستسلامها له . انها نظرة استعطاف صريحة ولا يسكن لمن له
 قلب بشر أن يخيب أملها . ولأول مرة أحس عامر بصدمة قوية
 تهز كيانه ، فاحمر وجهه ووضع يده على رأس ابنة عمه قائلا لها
 مبهور الانفاس :

— ادخلي الى الدار بسرعة .

وفكرت ذهبية في نفسها :

« هذا الامر مكتوب ، وكان لابد أن يقع ، فقد صرت أحبه ، وهو يعرف ذلك فبادلني الحب بمثله . الحمد لله ؛ أنا مسرورة جدا . خلاص ، لم يعد يفكر لا في ويزة ولا في غيرها من البنات . »

وصارت تحبه بكل ما أوتيت من قوة ، ولا يمضي يوم حتى تعرف عنه ما يزيد بها محبة وهياما . ولم يكن يخفي عليها من أمره شيء ، ولم تكن تجد حرجا في أن تتحدث عنه مع أمها ومع أمه مدام . أما البنات فلا يكاد يخلو حديثهن من الثناء عليه ، حين يلتقين في العين . ووجدت بينها وبينه شبا قويا في جميع الصفات ، الا أنه في نظرها ، أفضل منها ، بل أفضل من الجميع . وتمنت لو انها تستطيع أن تتبادل معه الحديث آناء الليل وأطراف النهار ، وأن تصغي اليه طويلا وهو يكشف لها عن ذات نفسه .

كانت ذهبية تنتظر تلك اللحظة السعيدة ، كما ينتظر الانسان أجمل يوم في حياته . ولكن يا للأسف ، تلك اللحظة لم تعرفها أبدا ... وماذا تبقى لها الآن بعد وفاته ؟

« ما كان ذلك كله الا حلما جميلا نعمت به بعض الوقت ، فما أقسى الحقيقة المرة وما أصعبها على نفسي اليوم ! لماذا حطمتني يا الهي ؟ وأنت يا مريم العذراء ... هل عاقبتني لأنتي قصرت في حقك ؟ آه ما أقسى العقاب ! لولا المقادير لعشت سعيدة مع عامر . لقد كان شهما كريما ، اذ رضي أن أحفظ معه

بديني المسيحي بلى ! كان كريم النفس ، لأنه كان يتألم للفقراء والمساكين ، وكان مستعدا لأن يضحي بحياته في سبيل غيره .
فلماذا يا رب مات بتلك الطريقة السخيفة ؟ ما عرفته الا كريم النفس ، ولو طلبت منه أن يتنصر من أجلي لفعل ، لأنني لا أستطيع أن أتصوره على دين آخر غير دين المسيحية .

« يا الهي ، هل سيحظى هذا الكافر الذي كان طاهرا زكي النفس ، هل سيحظى بمكان في ظلال رحمتك ؟ أم ان قوانين السماء صارمة كحكم الطغاة من عبادك ؟ ألحقني به يا الهي في الحين ، واجمعني به في ملكوتك . ما أوسع رحمتك يا الهي ، وما أعظم قدرتك ! ألحقني بدار الآخرة ، ولي أمل يا الهي في أن تكشف لي عن الحقيقة ، وأن تجعلني معه في دار السعادة ..

« يا عامر ، يا من أراك نجمة صغيرة تتراقص في السماء ، عد الي يا حبيبي ، حدثني ، ابتسم لي وخذني معك .

« أعترف لك يا عامر انني لست بريئة . فقد دفعني الجنون الى أن أخون عهد الوفاء لأنني شعرت ذات يوم بالغيرة وتملكني حزن شديد ، فدعوت لك بالشر . لست بريئة ، ولكنني متأكدة انك لو عرفت الحقيقة لسامحتني . اذن لماذا قتلك ؟ لماذا حكمت الاقدار أن تموت بهذه الطريقة السخيفة وأن تتحطم حياتي الى الابد ؟

« رحمة بي يا الهي ، ورحمة به .

« لقد مات ولم يعد أحد يفكر فيه ، ومن يا ترى يمكن في هذه الليلة أن يفكر في عامر من رجال قريننا ؟

« قد يفكر فيه مفران ... ومفران هذا من عائلة آيت سليمان ، وأخوه هو ناطور القرية ، ولعل هذا الأخير مسرور الآن ، لكونه قد أعطى لرجال التحقيق البيانات اللازمة عن الحادث ، فأنتقد عائلته مما يحوم حولها من شبهات ... وقد يفكر فيه أيضا شيخ البلدية . وبطبيعة الحال فهو الآن مطمئن البال بعدما استقر الرأي على أن عامرا قد انتحر . آه ، ما من أحد يتحرك ليكشف عن وجه الحقيقة ... ومن يا ترى يفكر فيه أيضا ؟ أبناء العم من عائلة آيت العربي ؟ الأفضل أن لا أتحدث عن هؤلاء ...

« ارحمني يا الهي لأنك أنت ... تعرف الحقيقة ... »

وعند هذا الحد استفاقت مالحة من نومها ، ففقت من جنبها ذهية وقالت لها :

— نامي يا بنتي العزيزة ، الله ينسبك يا بنتي ، لا تعذبي نفسك ، المكتوب هو المكتوب ودواء المصائب هو النسيان .

— اتركيني لوحدي ، كلامك يبعث على الاشمزاز ، اسكتي .

— طيب : كوني عاقلة وسأسكت .

وأخذت منه مألحة تلامسها بيدها البضة الماهرة ، أخذت
تلامسها لمسا لذيذا يكاد يكون فيه شيء من المجون ، وأخيرا
قالت بصوت خافت كأنها تخاطب نفسها :
— وما الداعي للاسى ؟ لا فرق عندي بين رجل وآخر ،
ولا فرق بين امرأة وأخرى .

الفصل الرابع

قرأت ذهبية يوميات عامر بشغف كبير ، فجاشت عواطفها مما كتبه عن حبهما . سيكون لها متسع من الوقت لاعادة قراءتها واستظهارها ، وستحافظ عليها بعناية لأنها أثر عزيز لا يقدر بـشـمـن ، وستبقىها دائما معها كأنها تلك الجمرة التي عثر عليها الانسان البدائي ، واستبقاها الناس من بعده وقادة ليشعلوا بها النار . وجبها كتلك الجمرة : فلن يخمد ، بل سيظل يحرقها باستمرار الى أن تلتحق بعامر هناك ، في السماء . وتنهت من أعماقها :

— يا الهي ، قرب النهاية ، ولا تجعل عذابى يطول .

كان عامر قاسيا جدا في القسم الاخير من يومياته ، فقد كان قصده أن يسجل فيها أحداث حياته ، الا أنه في الواقع عبر فيها عن ثورته العارمة واضطرابه وقرفه من الحياة . وذنبها في ذلك انها دفعته الى اليأس ، بينما كانت تستطيع — لو شاءت — أن تنقذه من الهلاك . وها هي ذي الآن تلاحظ ذلك ، وتقدر البعد الشاسع بينها وبين ذلك الرجل النبيل الذي بذل ما في وسعه لينهض بأبناء قومه ، ولم يكن له من ذنب في هذه الحياة

سوى أنه وضع فيها الثقة الكاملة .

لماذا لم يتحدث في يومياته تلك عن كرم نفسه وعطفه على المساكين ، وحقده على الطغاة والاغنياء ، وتنديده بالظلم والنفاق ؟ من ترى سيذكره بصفاته الحميدة بعد أن تخلصت منه قرية ايفيل نزمان الى الابد ، وصار الناس يرون في شيء من اللامبالاة ، وغير قليل من الارتياح ، ان موته لم يكن الا نتيجة العيش والجنون ؟

وفي الواقع ، فان الشيء الذي ينكره كل واحد عليه ، هو صراحته ورفضه لأن يكون مثلهم في الرياء والنفاق . ومع ذلك فان جميع الناس يعرفون بأنه كان أول من يتطوع للقيام بعمل يعود بالنفع على القرية ، فكان بذلك قدوة حسنة للشبان . وعندما تتعرض القرية لاستفزازات رجال الدرك ، أو تهديدات الحاكم الفرنسي ، يتذكر الناس حينئذ بأنه يوجد بينهم رجل اسمه عامر ، فيقصدونه على عجل ، ويستجيب لهم في الحين بأدب وتؤدة وعزيمة قوية . وعندئذ تسميهم يقولون :

— والله ، ان ولد مدام لا يخاف منهم ، ويعرف كيف يكلمهم

— ابن عائلة والله .. ابن الرجال .. ولا تنس جده قاسي ، هل تعرف جده قاسي ؟ اسأل عنه الشيوخ ، فهم يعرفونه جيدا .

ذلك ما كانوا يقولون عنه في مثل تلك الظروف الحرجة ، وعندئذ كانت أمه وابنة عمه وجميع أعمامه من أبناء آيت العربي ، يرفعون رؤوسهم اعتزازا به .

لقد حاول أن يخفف من البؤس الذي يعاينه أبناء قومه ، وهذا الموضوع أشار اليه في يومياته وتحدث عنه حديث المجرب الذي ذاق مرارة الحرمان . والناس يعرفون بأنه طيب القلب ، لذلك كانوا لا يتورعون عن تسخيريه في مختلف المهام والاعمال ، مما جعل أمه - رغم أنها عاقلة ورزينة - ترميه بالطيش والسذاجة . وحينئذ كان عامر يحني رأسه كأنه بالفعل قد أذنب ، ثم ينصرف في حال سبيله . وكان المتسولون والمحرومون من اليتامى والعجائز يستغلون طيبة قلبه ويقولون عنه بأنه مغفل ، ولا يشفقون عليه أبدا . وفي بعض الاحيان لا يجد ما يتصدق به ، فيستاء ، ويعس بأن الناس لا يريدون به خيرا ، وعندئذ كان يطرهم بوابل من السباب والكلام البذيء عوضا من أن يسمعهم كلمة طيبة . إلا أن الناس ما كانوا يؤاخذونه على هذه النزوات لأنهم متأكدون بأنهم (سيغفلونه) في أول مناسبة تعرض لهم .

وكم من أناس أعارهم الدراهم فما ردوا اليه فلسا ! ومن يدري ، فلعلهم مسرورون لوفاته لأنهم لن يدفعوا اليه شيئا بعد اليوم ، بل سينسون ذكره كأن لم يكن ، وسيعجلون في نسياله كما يعجل الانسان في محو الغلطة الفادحة من ذاكرته . الا أن الغلطة تترك دائما في النفس الندامة . أما عامر فلن يترك من بعده شيئا ، حتى من يتأسف عليه ويتحسر لوفاته .

« وعامر هو أيضا لا يتأسف على شيء . لقد مات واستراح ، استراح مني أنا التي خنته . ولعله من الاحسن أن أنساه وأن أفترض بأنني لم أتعرف عليه أبدا وانه ما عاش في هذه الحياة

بالمرة . لعله من الاحسن أن أغمض عيني وأهديء من روعي ،
وأن لا أفكر في شيء ... الأحسن أن أستسلم للنوم ، بجانب أمي
مالحة » .

وخطر ببالها فجأة أن عابرا ربما لم يكن يحبها وحدها ، لأنه
شهم كريم ، وأنى لها أن تطمح لمثله من الرجال ! وله مبدأ أساسي
يؤمن به : فاما أن يحب جميع الناس ، أو لا يحب منهم أحدا .

انه صاحب أفكار ومبادئ يؤمن بها ويدافع عنها . وقد
أصبحت هي أيضا في نظره فكرة ومجرد فكرة .

وعلى سبيل المثال ، فهي لم تفكر في يوم من الأيام أن تشغل
بحالة أبناء قومها وأن تهتم بأمرهم كما فعل عامر في يومياته .
فقد كانت اذا سمعت بأن أحدهم نزلت به مصيبة ، تتألم
وترثى لحاله ، لأنها هي أيضا طيبة القلب . غير أنها ما كانت
لترضى أن تكون في محله ، وأن تتمنى لو أن تلك المصيبة نزلت
بها هي ، لتخفف عنه المحنة ، أو لتبرهن للناس انها تستطيع أن
تصبر عند المكاره . لا ! ما كانت لتفعل ذلك ، لأن ما عرفته من
الأنانية عند الناس ، جعلها هي بدورها تؤمن بالأنانية ، ولأنها
تدرك أكثر من عامر ان حب النفس هو السلاح الوحيد في يد
الفقراء ، من أجل البقاء . أما عامر فقد كان يطمح لأن يصبح
غنيا ، وأن يصبح معه جميع الناس أغنياء .

« هل كان ، يا الهي . على صواب ، أم على ضلال ؟ لقد أراد أن يحسن من وضعه وأن تكون له في داره صنادير للماء وأسرة للنوم وصحون للأكل وأدوية للمعالجة ، ولو قدر له أن يعيش لحصل عليها بالجد في العمل والاقتصاد في النفقة . وكل واحد منا يتمنى أن يوفر كل هذه الأشياء في داره .

« ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... انه لم يرد هذه الاشياء لنفسه فقط ، بل كان يسعى لكي يحصل عليها الناس أجمعون . هكذا كان عامر ...

« ليته كان مسيحيا ! اذن لسع الأب دوبا يتحدث عن كل هذه الأمور التي هي فوق مستوانا . وقد شرح لنا لماذا كانت فوق مستوانا ، وحذرنا من الشيوعين ، وقال لنا ان الفقير هو المسؤول عن فقره ، وأكد لنا أن الله سيعوض لنا في الآخرة ما فاتنا من الرزق في هذه الدنيا . ولكن ... لم يعد أحد من أهالي القرية يصدق بأن الله سيعوض لهم شيئا .

« لقد عرفت الآن لماذا كنت أتميز غيظا من ذلك الرجل ... ولئن لم أصارحه ، ولم أعاتبه ، فلأنني كنت أعتقد أنه بلغ حد الكمال . كنت مغتالة من عامر وحائقة عليه ، لأنه لم يكن لي أنا وحدي ، بل كان لجميع الناس ، وبما أن هؤلاء قد أرادوا أن يجرموني منه ، فلماذا لا أدافع عن حقي بكل ما أوتيت من قوة ؟ ان هؤلاء الأغبياء يهاجرون الى فرنسا ، ويعيشون هناك حياة

كلها أتعاب ومحن ، ثم تسمعهم يدعون بأن المرئيين هم السبب في بؤسهم وشقائهم ، فما أسخف دعواهم ! والعجيب أن عامرا كان يوافق هؤلاء الكسالى في الرأي ، فلا أفهم منه هذا الموقف ، بل لا أومن بشيء مما يقوله .

هكذا انشغلت ذهنية ، صبيحة ذلك اليوم ، بقراءة يوميات عامر ، بينما كانت الدار تعج بالناس الذين جاءوا لالقاء نظرة أخيرة على جثمانه . ثم أخذت شيئا فشيئا تحلل أسباب ثورته ، وتناقشه فيها ، بل صارت تنكر عليه كيف مات بتلك الطريقة السخيفة . وها هي ذي الآن تشعر بنوع آخر من الغيظ يعترئها ، لأنها ، بعد أن مات ، لم تعد تستطيع أن تبرر خيانتها أمامه ، ولأنه أفلت منها الى الأبد ، ورفض أن يسمع منها أي كلام . لم يبق لها إذن سوى أن تميد الى ذاكرتها بجميع التفاصيل ، ويوما بعد يوم ، تلك الشهور الستة من الانتظار والعذاب ، ومن السعادة أيضا ، ومن الحب الذي لن تعرفه بعد اليوم ، فيما تبقى من حياتها الشقية .

لا بد لها من أن تتحدث هي بدورها عن عذابها ، كما حاول عامر أن يفعل ، فما وفق في عمله ، لأنه ما زاد أن دفع بنفسه الى الهلاك ، وحطم قلب الفتاة التي كان يدعي أنه يحبها . وبما أنه أنكر عليها سلوكها ، من غير أن يسمع ما لديها من أعذار ، فلا يسمعها الا أن تنكر هي أيضا سلوكه معها .

لقد رفض أن يكشف النقاب عن جميع الأمور كما وقعت ، ولهذا فهي التي ستصرح بكل شيء . انه لمن أسهل الأمور أن

تطالب الغير بما لا تطالب به نفسك ، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على أنك لا تحترمه ولا تحبه ولا تعطف عليه. وعلى سبيل المثال ، لماذا لم يحاول عامر أن يضع نفسه في محلها ليتفهم حقيقة سلوكها وليغفر لها خطيئتها ؟ بل هو لم ير لزاما على نفسه أن يسأل كيف كانت تعيش في ايفيل. زمان قبل رجوعه من فرنسا ، وكيف عرفت في كل مكان هي وأمها جميع أنواع المذلة والاهانة ، وكيف عامل الناس كلهم باحتقار ومكر وتكبر أمها مالحة — المرأة الطائشة في نظرهم — وماذا كان موقفهم منها هي ، الفتاة الكافرة المرتدة التي لا يعرف أحد لها أصلا .

حينما استقر بهما المقام ، هي وأمها ، في ايفيل زمان ، أحدث مجيئهما شيئا من الانزعاج والاضطراب في أوساط عائلة آيت العربي . أما بقية العائلات المحترمة في القرية ، فقد تظاهرت بعدم الاكتراث بهما . ويوجد بين هذه العائلات من هو فقير الحال ، الا أن الأغنياء منهم يمدون اليهم يد المساعدة تارة ويشغلونهم أشغالا شاقة تارة أخرى ليرتاح ضميرهم . أما مالحة وابنتها ذهبية فلم يعطف عليهما أحد ، بما في ذلك أعمام مالحة أنفسهم ، وأبناء عمها الذين كانوا يعرفون ماضيها البعيد ، ويتبنون لو أنها ذهبت الى الجحيم . وها هم قد وجدوا أنفسهم مرغمين على أن يقبلوها لتعيش بينهم . وأخوف ما كان يخيفهم مخالطة مالحة لنسائهم ، ووجود تلك الفتاة الناصعة البياض ، الرقيقة القد ، الوسيفة الوجه ، تلك الفتاة التي اصطحبتها مالحة معها ، وقررت ان تربيتها بينهم . وهكذا أخفقت جميع محاولات مالحة وابتسامات ذهبية

للتقرب منهم : لقد كانوا جميعا يحتقرونها علانية ، ولا فائدة اذن من بذل المزيد من الجهود .

قالت مألحة مسلية نفسها :

— مالي ولعائلة آيت العربي ! لن أعيرهم بعد اليوم أي اهتمام ، لأنني من هذه القرية ، ولي فيها كثير من الاخوة والأصدقاء .

ولذلك صارت تعرض خدماتها على كل من يحتاج اليها حتى تحصل على مورد للرزق . وأنكر الناس منها ذلك ، ولم تشجعها على المضي في عملها سوى مدام .

ومن اشتغلت عندهم ، سعيد آيت سليمان . وقد استخدمها كساقية ، فاتفق معها على أن تحمل الى داره يوميا ثلاث جرار من الماء ، وذلك لقاء مبلغ ألف فرنك شهريا . فاذا قامت بذلك فلها أن تنصرف الى شؤونها الخاصة . وقبلت مألحة فأثارت استياء آيت العربي ، لأنهم ظنوا بأن الشيخ سعيداء المعروف بمكره ونفاقه ، انما أراد بذلك العمل أن يلحق بهم اهانة وأن يلطخ شرفهم . أما مألحة فقد كانت على العكس فرحة مسرورة .

وسعيد آيت سليمان شيخ يتظاهر بالورع والتقوى ويناديه جميع الناس بابا سعيد احتراماً له ، ويعتبر في القرية رجلاً حنكته الأيام ، فلا يقدر عليه أحد من خصومه . ومن المعروف عنه أنه قليل الوفاء بالعهد ، ولم يكتف خلال حياته الطويلة بالدسائس ونكت العهود ، بل لم يتورع من أن يسطو على أموال أقاربه وأصدقائه .

وهكذا أصبح بابا سعيد من الشيوخ المحترمين ، واجتمع له من المال ما يمكن أن يجتمع لامثاله ممن يعتبرون من الاغنياء في ايغيل نزمان .

اما بالنسبة للمواشي والدواب ، فله في داره بقرة وبغل وبضعة شيران ، اما بالنسبة للاولاد ، فولده البكر يشغل كاتبا في دار البلدية ، وناطورا في نفس الوقت ، والولد الثاني اسمه مقران ، وهو شاب يشبهه تماما في الذات والصفات ، مطيع للأوامر ومتعنت في رأيه الى أقصى حد . وقد سافر مقران مرة أو مرتين الى فرنسا ، غير أن المعيشة في بلاد الكفار لم ترقه ، ولذلك عاد الى القرية حيث تركت له عائلته مسؤولية القيام بكل ما يتصل بالفلاحة .

أما المعجوز ، فقد كانت شديدة في معاملتها لعروستها ولاولادها . وكانت تثير الرعب في الجي كله ، ولم يكن يسلم منها أحد ، حتى بابا سعيد نفسه الذي كان يتعرض لبطشها في بعض الاحيان . وهي هزيلة الجسم لانها البغلة العجفاء التي لم يبق منها سوى الهيكل العظمي . كما انها سليطة اللسان ولا تشفق على احد ولا ترحم . وزوجها من جهته قد اعتاد منذ عهد بعيد ان يخونها مع جميع النساء الفقيرات ، سواء مع الارامل أو مع المتسولات ، أو الصغيرات من اليتامى . وهذه العادة الشنيعة أصبحت وصه غار بالنسبة لبيت آيت سليمان الذين كانوا يسترون ما ستر الله من تلك الفضائح . وبابا سعيد يعتقد أنه يستطيع أن يجعل الناس يتعاضون عن خطيئاته ، بالكلام المعسول والمعاملة بالحسنى . وهو الذي فرض على العائلة أن تشتغل عندهم مألحة كساقية ، وقد وعدها في السر أن يمنحها

بعض الامتيازات الصغيرة زيادة على الألف فرنك ، على أنه في داخله كان يمني نفسه أن يحقق من وراء ذلك مشروعاً جنوبياً .

قبلت مالحة اذن ، وكأنها أرادت بذلك أن تقابل التحدي بمثلها وصارت تشتغل عند عائلة آيت سليمان ، غير أنها أبعدت عن ذلك الجو ابتها ذهبية ، ولم تعرفها بأهل الدار ولم تبحث بها هناك لتحمل اليهم جرار الماء ، كما أنها منعتها من الشغل في بيوت الناس . انها تعرف جيداً أن أهالي اينيل نزمان من أسوء خلق الله ، فعليها اذن أن تحمي ابتها من شرهم . فهي على استعداد لأن تشتغل في أية دار ، وأن تقوم بأي عمل ، وهي متيقنة أنها تستطيع أن تؤسس بيتها الصغير من غير أن تعتمد على أحد ، لأنها لا تعيل الا شخصين ، فلن يمن عليها أحد بصدقة يخفي وراءها نوايا سيئة .

وسارت الأمور في البداية على أحسن ما يرام مع بيت آيت سليمان . فقد كانت العجوز الماكرة تراقبها باستمرار ، ولكن مالحة كانت ترد على كل كلمة جارحة بمثلها ، وتستعزي من كلامها ، لأنها ماكانت لترضى أن يعتبرها هؤلاء البخلاء متسولة منحطة أو صاحبة دسائس ومكائد . وسارت الأمور على أحسن ما يرام الى أن وجدت مالحة ذات مساء ، عندما عادت من الحقول ، صحناً وقد تحطمت أجزاؤه وتناثرت على عتبة دارها ، وبجنبه كومة صغيرة من الكسكي ، فقالت لذهبية :

— من فعل هذا ؟ أنت ؟

— نعم ، أنا . وهذا الكسكي جاء به مفران من بيت آيت سليمان .

— ماذا حدث بعد ذلك ؟

— لا شيء ، ولكنه أراد أن يقبلني ...

— ماذا تقولين ؟ .. يا له من حقير ، ألم تضريه بالصحن ؟ ..

— لا ، بل رميت بالصحن على الارض ، وفر هاربا .

— حسنا فعلت يا بنيتي ، غدا سيعرفون من أنا .

— أرجوك يا أماه ...

— اسكتي . هذه القضية تمسني أنا بالدرجة الأولى ، ولا تعتقدي أنني فقدت صوابي ، فلن أتساهل في ما يسيء الى سمعتك . هذه القضية تمسني أنا قبل كل شيء .

وبالفعل ، ففي اليوم التالي ، ذهبت الى دار بابا سعيد ، وما كان أحد سواه في الدار ، فهزته هزا عنيفا وأوقعته على الارض بالقرب من الجرة الكبيرة ، ثم خرجت وهي تشتتمه وتصرخ بأعلى صوتها :

— يا قرد ، يا أقذر خلق الله ، لعلك لا تعرفنا نحن بيت آيت العربي . تعالوا يا ناس ، لتروا هذه الفضيحة . عار عليكم يا بيت آيت سليمان .

وغضب بابا سعيد غضبا شديدا جعله يرتعش ويضطرب ، وبحث عن عكازته فلم يجدها ، وهرعت الى المكان زوجته التي كانت واقعة غير بعيد ، فقالت لها وهي ترتعش مثله :

— العني الشيطان يا مالحة ، ما هذا الكلام الا من وحي ابليس
للعين . أرجوك ، لا تصرخي يا مالحة ، ولا تشمتي بنا أمام الأعداء
... هديني حالك ...

ولكن مالحة عوضا عن أن تهديء حالها أعطتها هي أيضا درسا
لن تنساه ، وخرجت المرأتان معا من الدار الى الزقاق ، وهما
تتبادلان الشتائم ، ثم أمسكت العجوز بعصا في يدها وأرادت أن
تضرب بها مالحة ، فالتفتت اليها هذه الأخيرة وقالت لها أمام الناس
الذين غص بهم الزقاق :

— سترين يا حمارة كيف أكسر عظامك .

وارتاعت العجوز من كلامها وفرت الى دارها لاهثة الأنفاس ،
مما جعل الحاضرين يقهقهون بالضحك . ولم تملك مالحة نفسها
من أن تضحك هي أيضا ، وشرحت للحاضرين كيف حاول بابا
سعيد أن يداعبها ، وأرقت كلامها بكثير من الحركات . وقدمت
عن الحادثة صورة مضحكة ، فاحمرت وجوه البنات حياء ، وصرن
يتماسكن عن الضحك ، ولكن عبثا ، فما زادهن ذلك الا ضحكا
وقهقهة . وظلت هذه الحادثة لمدة أسبوع موضوعا للتهكم والتعليق
بين نساء القرية ، ما بين قائلة ان بابا سعيد ستضربه زوجته كالمتعاد ،
وأخرى تؤكد أن بيت آيت سليمان ، صيانة لشرفهم ، سيشوهون
سمعة المسكينة مالحة ، خاصة أنها لا تتمتع بسمعة حسنة . وهذا
ما خافت منه مدام ، اذ ما كادت تسمع بهذه المخاصمة حتى أخذت
تنصح مالحة ، فردت عليها :

— أنت طيبة يا مدام ، وأنا أعتبرك مثل أختي . ان بيت آيت
العربي تبرأوا مني ، ولم أجد الصفاء والهناء الا عندك . وما أنا
ممن ينسى أو ينكر الخير . ومهما أسمع منك ، فلن أحمله منك
محمل السوء . طبعا جميع الناس يحترمونك . فأنت فرنسية
الأصل ، ولا تحتاجين الى أحد منهم في شيء . وقد رزقك الله
بولد — الله يحفظه لك — وصار اليوم رجلا ، والناس يحترمونك ،
ولكن أنا ، هل تعرفين ماذا أساوي عندهم ؟ صدقيني يا مدام ،
فأنا أعرفهم حق المعرفة . انهم يقولون في أنفسهم : « ان هي الا
نصرانية ، وان هي الا امرأة عدينة الشرف . لقد خرجت من القرية
ذات يوم لسبب لا نعرفه ، وها هي ذي قد عادت اليوم لغرض
في نفسها لا يعلمه الا الله »

وتابعت مألحة كلامها قائلة :

— صدقيني يا مدام ، فأنا أعرف جيدا أولئك الشيوخ المحترمين
الذين يتصدرون اجتماعات القرية ويحلون « المشاكل العويصة » ،
أولئك الشيوخ الذين يسمونهم (رجال الخير) ، صدقيني يا مدام
اذا قلت لك بأنني أعرفهم ، وأشعر بالاشمزاز منهم . لقد رأيت
في عيونهم جميعا الرغبة الدينية في أن يضاجعوني خفية ، وأن
يشبعوا شهوتهم غفلى غير علم من الناس ، لأنني في نظرهم لا أصلح
الا لذلك . ومتى كانت النصرانية تستحق أي اعتبار ؟

ومضت ننه مألحة تقول :

— حينما وصلت الى اينيل زمان ، راودت هؤلاء الشيوخ من
ذوي اللحي الطويلة ، راودتهم جميعا نفس الفكرة عني ، فقالوا

في أنفسهم : « انها لا تستطيع أن تستهوي الشبان لأنها متقدمة في السن ، كما أنها لا تستطيع أن تحصل على زوج . اذن فهي لقمة سائغة لنا » أما الشرف ، فلم يخطر لهم على بال . غير أن نفاقهم أشد وأقوى من شهواتهم ، وأخوف ما يخفيهم هو أن يفتضح أمرهم ، ولذلك قررت أن أفضحهم حتى أتخلص منهم . وتأكدي يا مدام أن أمثال بابا سعيد لن يفكروا بعد هذه الحادثة في ازعاجي .

فأجابتها مدام :

— يا مالحة ، أنت مخطئة ، وإذا كنت حقاً تريد أن أحترمك ، فينبغي أن لا يتحدث عنك الناس بالسوء . ولا تنسي أن لك بنتاً وأنه لا بد من تزويجها .

— بارك الله فيك يا مدام ، ولكنني أعتقد أن الزواج مسألة في يد القدر ، فمثلاً بالنسبة لي أنا ، لم يكن أحد يظن أن نصيبي سيكون في قرية آيت واضو . نعم ، في آيت واضو ، أي عند المرتدين عن الاسلام . وأنت يا مدام ، كيف جئت من فرنسا الى هنا ؟ ان السعادة أو الشقاء في حياة النساء ، مسألة مكتوبة على الجبين منذ الولادة ، وما لنا في ذلك من حيلة . أما ذهبية ، فهي بنت طيبة ، وأنا لا أخاف عليها ، لأن الله سيرعاها .

الفصل الخامس

ان عدم الاكتراث الذي تتظاهر به مألحة حينما يسألها الناس عن مستقبل ابنتها ، لا يعني انها سلمت أمرها للقدر المحتوم . فهي تعرف جيدا أن جميع الأعراس التي يحتفل بها في ايغيل نزمان ، وجميع العلاقات التي تعقد أو تفسخ في هذه القرية ، أو في غيرها من القرى ، ما هي في الواقع الا تجارب يتعظ بها العاقل حتى لا يقع مرة ثانية في ما لا تحمد عقباه ، أو في مكروه ، أو في مصيبة ما بعدها مصيبة . وحينما تفكر مألحة فيما عسى أن تفعله ، وتذكر ما وقع فيه الناس من مشاكل الزواج ، وما يروى عنهم من حكايات مؤسفة ، فانها لا تجد من حل سوى أن تنتظر صابرة ما سيأتي به المكتوب . وقد عازمت أن لا تلتمس العون من أحد ، وأن لا تنخدع بأحد من الناس . ينبغي لها أن تكون معتزة بنفسها ، لا طموحة ، لأن الطموح قد يضطرك الى التملق ، والناس مهما أحسنت اليهم وتقربت منهم لا ينسون أبدا أنك فقير الحال وأن منزلتك أدنى من منزلتهم . وما على الانسان لكي يتأكد من هذه الحقيقة الا أن ينظر الى الخطابة (1) : فأول ما يهمها أن تعرفه عن

1. - الخطابة : المرأة المكلفة بالبحث عن مروسة (المترجم) .

البت هي حالتها المادية من فقر وغنى ، وكل ما عدا ذلك ان هو الا كذب ونفاق .

ما أسخف الأم التي تسعى لتزويج ابنتها من أي شخص كان ، وتبذل في ذلك المستحيل ، وتتساهل في كل شيء ، ثم تنخدع في آخر الأمر بالكلام المعسول ، الى أن تنكشف لها الحقيقة المرة ، وهي أن الأم التي جاءت لتخطب لابنها قد وقع اختيارها على فتاة أخرى . انها تشعر بالاشمزاز من ذلك ، وكلما رأت مالحة أن جميع مساعي الأمهات لتزويج بناتهن قد باءت بالفشل ، فانها تشعر بالارتياح نكايه بهن ، وتحمد الله الذي جعلها فقيرة ، فلا تقصدها الخطابات ، ولا تتعرض لمكائدهن ، بل تستطيع هي اذا شاءت أن تنظر اليهن باحتقار . ومع ذلك فهي تشعر في قرارة نفسها أن الله لو رزقها بشيء من المال ، لدخلت هي أيضا في ميدان المعركة حتى تعثر لابنتها على فتى الأحلام .

ولكن ، أتراها تستطيع أن تتخاصم مع بعض النساء اللواتي ليس لهن حياء ؟ كلا ! فقد تأكد لديها أن نساء اغيل زمان ليس لهن ذرة من حياء ، والا ، فما بالهن ينصبن مكائدهن على المكشوف ، ولسان حالهن يقول لمن سيصبح صهرا :

— تعال يا بني ، أرأيت هذا الفخ الذي نصبته لك ؟ ماذا تنتظر لكي تقع فيه ؟ لابد لأمثالك من الأغبياء أن يقعوا في الفخ .

والأدهى من كل ذلك أن هذا الغبي في أغلب الأحيان يقع في الفخ ، فيصفق جميع الناس نكايه به . على أن هذا الأمر قد يؤدي

أحيانا الى زواج موفق ، أو بالأحرى الى ما يعتبر زواجا موفقا في
ايغيل زمان ... أليس من العيب أن تقدم بعض الأمهات سرا
الصداق الى الشاب ليوهم الناس بأنه هو الذي دفعه ؟ الا يعني
ذلك أن مثل هذه الأم قدمت له ابنتها هدية ؟ وبهذه الطريقة فإن
أهل العروسة هم الذين يدفعون تكاليف جهاز البنت (1) من ثياب
وحلي وأغطية وفراش . وما على العريس بعد ذلك الا أن يتقبل
هذه الهدية كاملة غير منقوصة .

أما العيب الذي أوقعوا فيه أنفسهم فلا يفكر فيه أحد . غير
أنهم لا يقفون عند هذا الحد ، لأنهم يحترمون التقاليد ، ويحافظون
عليها . وها هم اليوم يستحدثون بدعة جديدة ما كانت معروفة
في السابق : فقد أصبح لزاما عليهم بعد اعلان الخطوبة ، زيارة أسرة
الخطيب لتقديم التهناتي . وتستعد أسرة البنت المخطوبة للقيام
بواجب الزيارة ، غير أن أهلها يشعرون بالرغبة في اصطحاب الأقارب
والأصدقاء والذرية كلها معهم . ولا بد من أن يأخذ كل واحد منهم
معه الهدية التي اشتراها للعائلة السعيدة التي تفضلت بقبول ابنتهم
ذات الصون والعفاف . ويستمر هذا الأمر الى أن يتم الزواج ،
ويتواصل بعد الزواج الى الوفاة ... فما أقبح هذه العادة وما
أبغضها !

ولا تنتهي المشكلة بزواج البنت ، اذ لا بد من العناية بها
والاهتمام بأمرها ولو من بعيد . واذا كانت لا تشبع في دار زوجها

1 - الجهاز : كل ما يقدمه العريس للعروسة من ثياب وحلي وغير ذلك (المترجم) .

فانها تتردد بين الحين والآخر على دار أهلها لتتناول معهم شيئا من الطعام . واذا امتنع زوجها عن شراء ما تحتاج اليه من الثياب ، فلا بد من أن تدبر أمها طريقة لتشتري بعض الأقمشة ، ثم ستزعم لصديقاتها حين تجتمع بهن في العين - وهن يعرفن الحقيقة - ستقول لهن بأن أهل الدار كلهم يحيطون ابنتها بالرعاية ، وانهم يحبونها وأنهم راضون عنها كل الرضى ، بما في ذلك حمايتها . واذا احتاج الزوج الى مصروف الجيب وساء مزاجه بسبب ضيق ذات اليد ، ونهس عن غيظه بضرب البنت المسكينة ، فان الأم هي التي سوف تسترضيه ، وذلك بمد صهرها بين الحين والآخر بشيء من الدراهم . ولا شك انه اذا كان ممن لا ينسى الخير سيردها اليها ذات يوم أضعافا مضاعفة .

وبطبيعة الحال ليست الحياة هائلة بالنسبة للزوجة الجديدة ، ولا بد لها من أن تصبر كثيرا . لا بد لها من أن تصبر الى أن تنجب أطفالا ، وحينئذ تمسك بمقاييد الأمور في البيت وتطالب بحقها ، ويبدأ الناس في تقديرها واحترامها . وما من فتاة تتزوج الا وتعرف سلفا ما ينتظرها من مشاق ، ولذلك تستعد في سن مبكرة لاجتياز المرحلة الأولى ، وهي أصعب المراحل ، ولا تتهيب من الزواج ، بل على العكس تتمنى أن لا يسبقها اليه أحد من رفيقاتها .

وبصورة عامة ، فان الشبان لا يختلفون عن البنات ، فهم كذلك يستسلمون للأمر الواقع ، وان كانت لهم أسبابهم الخاصة . انهم مزقون بين نمطين مختلفين من الحياة ، وحائرون بينهما ، لا

يعرفون الى أيهما ينساقون . فإذا كانوا في فرنسا ، فإن العاقل منهم يعيش حياة العاقل الحريص على أداء مهمته . ولقد يعاشر فتاة أو يتخذ لنفسه عشيقة ، بل قد يتزوج . وإذا عاد الى القرية فإنه سينغمس بدون تردد في حياة القرية . وإن هي الا أيام قلائل حتى تتبدل سحنة وجهه نتيجة لتبدل الطقس ، ويعود كما كان ، من أبناء القرية ، ويتزوج فيها بنفس السهولة التي اتخذ بها عشيقة له في فرنسا . ولا تمضي شهور حتى تحبل المرأة أول حملها . وإذا قدر له أن يذهب مرة أخرى الى فرنسا ، فلا بد من أن يتلاءم من جديد مع الأوضاع هناك ، كما سيتلاءم مع الحالة في بلاده حين يعود اليها . وأما اذا ظل في القرية ولم يجر الى فرنسا ، فإن الزوجة لا تلبث أن تحبل للمرة الثانية . وهكذا تجري هذه الأمور كلها ولا يرى فيها بأسا ولا تشريبا . فهل يمكن بعد هذا أن نلوم جميع هؤلاء الشبان من غير استثناء ، وأن نستنكر بدون تردد ما يفعلون ، والحال أنهم لا يشعرون بأي ذنب ارتكبوه ولا يدخرون جهدا لرفع مستوى حياتهم ؟

والحقيقة انه يوجد من بين هؤلاء الشبان من يفكر في الأمر جديا ، ويحاول أن يحسن أحواله وأن يحقق الى حد ما مطامحه . ومن بينهم ذلك الشاب من ايفيل زمان الذي عزم على أن يتخبر من جميع القيود ، لأن هذا الحل في نظره هو الحل المنطقي الوحيد .

وصل هذا الشاب ذات يوم الى البلاد عائدا من مدينة توركوينج ، فقال لزوجته ليضعها أمام الأمر الواقع :

— يا هذه ، أنا فقير . وجميع الناس يعرفون بأنني لا أملك شيئاً في ايغيل نزمان . أما في مدينة نور كوينج فلي على الأقل عمل في أحد مصانع الغزل والنسيج . والبسات في هذا المصنع كثيرات . وما بقي لي اذن سوى أن أطلب منك الرجوع إلى أهلك ، وأن تتزوجي مرة ثانية مع من تريدن . أما أنا ، فقد قررت نهائياً أن أعود الى هناك .

وقال له القاضي الذي رفعت إليه قضية الطلاق هذه :

— انك ترتكب غلطة فادحة . واذا أردت مني النصيحة ، فالأفضل أن تأخذها معك الى توركوينج ، ولن تجد معها الا الخير ..

فقال الشاب لزوجته :

— هل توافقين على الذهاب معي الى مدينة توركوينج ؟

— موافقة . وهل هي بعيدة ؟

— بل قرية . هيا بنا اذن .

وحينما وصل الزوج الى توركوينج لم يجد سكناً لأنه لم يكن له سوى ولد واحد ، وادعت مصالح البلدية أنه لا بد من ولدين لكي يسجل اسمه في قوائم الاسكان .

وألح الزوج عليهم في الطلب ، وقال لهم :

— سجلوني في هذه القوائم ، وسأعود اليكم بعد عشرة أشهر ،
مستوفيا لجميع الشروط .

وهكذا حصل على سكن في توركوينج ، وظل يعمل ويكدح
هناك ، في مصانع الغزل والنسيج في شمال فرنسا .

وآخر ما يروى عن هذا الشاب من أخبار أن زوجته عادت
من جديد إلى اينغل نزمان وبصحبتها طفلان ، بعد أن كان لها طفل
واحد . أما الزوج فقد بقي هناك وما لبث أن عوض عن بنت
بلاده بفتاة من فلاندره كان قد تعرف بها .

ولكن ، ماذا حدث بينهما بالضبط ؟ لقد قال البعض بأن صورة
زوجته نشرت مكبرة على الصفحة الاولى من إحدى المجلات
الأسبوعية ، وأن أبناء بلاده ممن يشتغلون في تلك المنطقة صاروا
يقبلون الصورة أمامه بطريقة ماحنة . وأخفقت جميع محاولاته
للاهتمام إلى هذا الصحافي الوقح ، غير أن هذه القضية سببت له
عدة مشاجرات ، فلم ير بدا من أن يتخلص من امرأة فقدت شرفها .
ويقال أيضا أنه لم يتأسف على فراقها وأنه عوض عنها بأحسن
منها ...

لا والله ... ما من شك في أن كل هذه الأمور ليس فيها شيء
من الجد . وإذا نظر الانسان إلى الزواج في اينغل نزمان فلا يجد
فيه شيئا من التعقل والمنطق . ولم العجلة في الزواج إذا كان الأمر
كله هزلا ؟ والغريب أن جميع الناس قد سلكوا طريق الهزل ،
فهم يتزوجون من غير أن يفكروا في المواقب ، ويطلقون زوجاتهم

بنفس الطريقة الطائشة ، وينجبون الأطفال بدون أن يفكروا في أمر مستقبلهم ، ويهملونهم بدعوى الفقر وضيق ذات اليد ، ويسافرون الى فرنسا على أمل إيجاد حل نهائي ، ولكنهم في الواقع لا يحلون من المشكلة شيئا . وخلال ذلك كله يبلغ الرجال والنساء مرحلة الشيخوخة ، ويتربى الأطفال في البؤس والشقاء ويصبحون بدورهم شبانا ورجالا . ويتساءلون عن مصيرهم . وذات يوم يحصل بين هؤلاء الشبان وبين الشيوخ سوء تفاهم فيكفرون البلاد ، ولا يفكرون الا في الخروج منها . ولقد تجد منهم من يرغب نفسه على البقاء في أرض الاجداد ، الا أنهم يعرفون في قرارة أنفسهم أن المغامرة الى الخارج ستفريهم ان عاجلا أو آجلا ، وأنه متى حدث ذلك فلا بد من الاستجابة لندائها القوي . وعندئذ لا يجدون مانعا من الزواج بأية فتاة يقع عليها اختيار أهلهم . وعلى هذا المنوال تستمر المهزلة الكبرى من جيل الى جيل .

وأكثر من يستحق الشفقة والرحمة ؛ البنات ، لأنه لا بد من بقائهن في البلاد . ولو قبل أزواجهن لذهبن معهم الى فرنسا ، ولكن يتحتم حينئذ على هؤلاء أن يعلموهن ويربوهن ويعاملوهن كالاطفال الصغار ، وينقلوهن معهم من مكان الى مكان كالامتعة . والله يعلم كم يتطلب ذلك كله من الوقت . لقد كتب عليهن البقاء في البلاد ، وليس لهن من حيلة سوى الصبر الى أن تحين الوفاة . ومثلهن كمثل الزرع الرديء الذي لا يتعهده أحد بالسقي فتري الساق منه يذبل ويجف ويدوسه الراعي وتحوله الماشية الى هشيم .

ما كانت هذه الامور لتخفى على مالحة ، وهي المرأة الذكية الفطنة . غير أن الامل كان في بعض الاحيان يعاودها . ولم لا ؟ أو ليست ابنتها ذهبية من أحسن البنات وأجملهن ؟ إذن فليس من المستبعد أن يتقدم شاب عاقل رزين ليخطبها ، ويجعل منها فتاة سعيدة . أضف الى هذا أن ذهبية متعلمة ، واذا رافقت زوجها الى فرنسا فانهما ستعرف بدون شك كيف تدبر الامور ، ولن تعود الى ايفيل نزمان خائبة بعد سنة أو سنتين . والمسألة كلها بالنسبة لذهبية مسألة حظ .

كثيرا ما كانت مالحة تفكر سرا في عميروش ، ولد مدام . انها تعتقد بأنه شاب مناسب تماما ويمكن أن يكون لابنتها زوجا مثاليا ، وهي لا تفتأ تفكر في نفسها قائلة : « لا بد من الحذر والحيطه ولا ينبغي أن يسمع بهذا أحد . والمهم قبل كل شيء هو أن يعود عامر من فرنسا ، وعندئذ سندبر معه الامر » .

وفي انتظار ذلك اليوم حاولت أن تستدرج مدام للموضوع حتى تعرف رأيها ، فجرى بينهما هذا الحديث :

— ذهبية بنت لطيفة تستحق كل السعادة . وأنت ، ألا تفكرين في تزويج ابنك عامر ؟

— لن أسمح لنفسى أبدا بالتدخل في زواج ابني ، فلن أخطب له أية فتاة ، وعلى كل حال فولدي المسكين لا يزال في ديار الغربة . وزيادة على هذا ، فعاداتنا في الزواج نحن الفرنسيون مخالفة لعاداتكم .

ان جوابها واضح كل الوضوح ، وليس فيه أي لبس . ومن
الواضح أيضا أن مدام لا ترغب في ذهبية كزوجة لابنها ، لا لأن
هذه الفتاة مسيحية — وان كانت هذه حجة المنافقين الآخرين ،
وهي حجة لا أساس لها من الصحة ، لأن الانسان لا يكون مسيحيا
الا بمحض ارادته ، وذهبية لم يعد يهمها أن تظل على الديانة
المسيحية — ان مدام لا ترغب فيها كزوجة لابنها لسبب آخر ،
وهو أنها بائسة فقيرة . وهذا ما جعلها تلازم معها جانب الحيطة
والحذر . وان هي في الواقع الا كغيرها من النساء الاخريات ،
تحسب حسابها متظاهرة باللطف واللين . ولعلها هي أيضا تبحث
وتجد في البحث عن خطيبة لابنها غنية ، ومن بنات احدى العائلات
الكبرى في ايفيل نرمان . انها بدون شك تبحث عن آية في
البشاعة وسيرضى بها ولدها زوجة له من غير أن يكون له في
الموضوع أي رأي . ألا ما أخيب ظنها اذا كانت تعتبر نفسها ،
هي وابنها ، من الاكابر في ايفيل نرمان !

وهكذا صارت مالهة تنتظر المكتوب ، صابرة من غير أن تفقد
الامل . صارت تنتظر متى تسنح لها الفرصة ويتقدم الناس
ليخطبوا ذهبية ، وهي تمنى نفسها ، اذا تحقق الامل ، أن تشفى
من مدام وأن تخاطبها :

— ألم تقولي يا مدام بأن عامرا سيختار بنفسه البنت التي
يهواها ، بعد عودته من فرنسا ؟ ليكن في علمك اذن أن الامور
تمت على أحسن ما يرام بالنسبة لذهبية . وأنا أخبرك بهذا ، لكي
تفرحي معي لأنك صديقتي الوحيدة . وفي الحقيقة يا مدام ان

عامرا وذهبية أبناء عم ، ومن الافضل أن يظلا دائما أبناء عم .
وقد بدأت بنتي في المدة الاخيرة تشعر تجاهه بشيء من المودة .
وأنا متأكدة أنه سيبادلها تلك المودة . سيكون لها بمثابة الاخ .
أترين في ذلك مانعا يا مدام ؟ واذا تزوجت ، فلن تكون كاليتيمة
التي ليس لها أحد يزورها .

وكاد هذا الامر يتحقق بالفعل ذات يوم . ولكن فرحتها لم تدم
في النهاية الا لحظات ، فخاب أملها مرة أخرى ، بل هي أكبر خيبة
عرفتها في حياتها . ولذلك كتبت الخبر كله عن ابنتها ، فلم تسمع
به أبدا .

تصوروا أن شيخ البلدية بنفسه طلب منها الحضور ليفاتها
في موضوع ، واستقبلها في مكتبه واتخذ هيئة مهية قبل أن
يتحرك لسانه بكلمة . وكانت هي تتوقع في شيء من القلق أن
تسمع منه توبيخا على غلطة فادحة ربما ارتكبتها .

والغريب في الامر ، إنه أخذ يتحدث عن ذهبية . وتنفست
مالحة الصعداء ، واحمر وجهها من الفرح ، واتنابتها رعشة
عصبية . الحمد لله .. ابنتها أصبح لها شأن بين قومها ، وامتلكت
القلوب بجمالها وصفاتها . ومن ياترى قصدها ليخطبها ؟ أحد
الاغنياء ممن لا يهمه سوى جمالها وصفاتها ، ولا يقيم أي اعتبار
لما يبحث عنه الآخرون .. والمعروف أن شيخ البلدية له ولد بلغ
سن الزواج ، فيا له من حظ سعيد .

وبعد أن تكلم شيخ البلدية ، قال لها في الاخير :
— أعتقد انك لن ترفضى طلب الزواج من ابنتك ؟

ومالحة تعرف أن ولده متزوج ، غير أنها لا تشعر بأي حرج
في أن يطلق زوجته وأن يحل ذهبية محلها . ومع ذلك ردت عليه
لكي لا تشعر بتأنيب الضمير :

— ولكن ابنك متزوج ..

— الموضوع لا يتعلق بابني ، بل يتعلق بي أنا .

— أنت ؟

— نعم .. وسوف أعطيها مفاتيح الدار (1) وسوف أقلدها جميع
الامور .. أما أنت ، فسوف تعيشين معنا في البيت ، كأحد أفراد
الاسرة . أنا غني ، ولن ينقصكنا عندي شيء .

فأجابت بصوت منخفض :

— الآن فهمت قصدك .. تريدها لنفسك ..

وأحست مالحة بالرغبة في البكاء ، والهروب من ذلك المكان ،
وتمنت لو تبتلعها الارض في أغوار عميقة حالكة ..

اذن ، أهذا ما أرادته هذا الرجل البالغ من العمر خمسين عاما ..
أن يتزوج من ابنتها التي أعجب بجمالها ، وأن يحتفظ بها لنفسه ،
وأن يشتريها لأنه غني ؟

1 - اعطاء مفاتيح الدار : كناية من تسليم جميع الامور اليها . (المترجم) .

ثم أضاف شيخ البلدية ، وكأنه أدرك ما يدور في خلدها .

— فكري جيدا يا مالحة فيما قلته لك ، وكوني عاقلة . لا بد من أن تغتحمي ابنتك في الموضوع . وأنا لا أريد الا مصلحتك ومصلحتها . وتذكري أن بلقاسم آيت شعبان تزوج من علجية ، وهو أكبر مني سنا ، وأقل ثراء . لا تغتري بالشبان يا مالحة ، وإياك أن تدفعي بابنتك الى البؤس والشقاء .

وانصرفت في حال سييلها من غير أن ترد عليه ، وأحست في نفسها بالخزي والمذلة . وكيف لا ، وقد مسها في الصميم عندما قارن بين ذهبية وعلجية . وقالت في نفسها :
— لن يحدث هذا ما دمت حية .

وكتبت هذا الخبر عن ابنتها ، فلم تسمع به أبدا .

الفصل السادس

أبغض الشبان الى ذهبية وأكرههم عندها ، هو مقران ، فهي تنزعج من لقائه ، لأنه لا يكاد يصادفها في الطريق حتى يلتهمها بنظراته ، ويكشف عنها ستار الحشمة بدون حياء ، فيغيظها ذلك أشد الغيظ . ولا يكاد يراها من بعيد حتى يركز عليها عينيه الكبيرتين السوداوين ، فلا يفيض الطرف أبدا ، بل يرسل منها نظرات محرقة . وهو لا يكثرث بعيون الجيران ، ولا يتحرج من إزعاجها ، بل يبدو من سلوكه معها انه يريد أن يعاكسها ، وأن يعبر لها عن ترفعه عنها وميله اليها في نفس الوقت . وهو لا يعرف سببا لذلك الترفع — أهو ناشيء عن رغبته الشديدة فيها ؟ كما أنه لا يدري مبعث تلك الرغبة الشديدة — أهي نتيجة للاحتقار الصريح الذي يظهره لتلك الفتاة المسيحية ؟ ان هذه النصرانية التي يشعر بأن جمالها يتحداه ، ويزعزع ايمانه كمسلم صادق ، لا تستحق في نظره الا أن ينتهك عرضها بدون شفقة ولا رحمة ، واذا وجد الى ذلك سبيلا ، فانه على أتم الاستعداد للقيام بهذا العمل ، ولربما سينال على عمله أجرا وثوابا .

أما ذهبية فهي تكرهه لا لسبب معين ، وانما تخاف منه بعض الشيء وتكر من سلوكه معها تلك النظرات المتعطشة وبعض الاشارات والمبارات البذيئة ، وكلها من الاشياء التي تنكرها أية فتاة أخرى اذا صدرت عن أي شاب . وجملة القول ، أنها لا تنكر من أمره معها سوى تلك النظرات السمجة .

ورغم أنها تتأثر ، بل تغتاظ أشد الغيظ عندما يعرض عنها الشبان : فانها تفضل أن تصادف في الطريق من يشيح عنها وجهه ، على أن تقع وجها لوجه مع مقرران ، بابتسامته القاسية وعينييه الماكرتين . ومع ذلك فاذا حدث أن التقيا في مكان منزل ، فان جرأته كلها تتبخر : فابتسامته تتجمد على شفثيه في بلدة ، وطرفه يتبلل بالدمع : ولا يكون من ذهبية حينئذ الا أن تتركه منتصباً في مكانه كالأبله ، وتمضي في طريقها عابسة رزينة . ولم يحدث ولا مرة واحدة أن التفتت الى ورائها لتترحم عليه بنظرة . وعلى كل حال فرغم سوء أخلاقه معها ، أصبحت على يقين بأنها — عند اللزوم — تستطيع أن ترد اليه الصاع صاعين ، بل هي متأكدة تماماً انها لم تعد تخاف منه .

حينما بدأت أمها مألحة تشتغل عند أهله من بيت آيت سليمان وتسقيهم كل يوم من العين ماء ، تظاهر مقرران بأنه لا يعرف شيئاً عن هذه العلاقة الجديدة التي نشأت بين العائلتين ، كما أن ذهبية التي استاءت من عمل أمها وأحست بشيء من المذلة ، تظاهرت هي كذلك بعدم الاكتراث ، وقررت أن لا تدخل بعد اليوم دار آيت سليمان ، وصارت تقابل ابتسامته السمجة بوجه عابس

متجهم . ولذلك فقد كان من الطبيعي أن لا تقابله بالرضى حينما أراد أن يقبلها . ولكن ذلك الحمار البليد لا يفهم معنى للشرف والكرامة وحسن الاخلاق ، وقد لقي منها ما يستحقه عندما دخل الى الدار ، حاملا بين يديه صحنًا من الكسكسي ، وقد ارتسمت على وجهه الرغبة الدنيئة والبلادة التامة .

ومد اليها يده في خبث ومكر متمتا بين شفثيه :

— أتيت به لأملك .

وعندما تناولت الصحن وأخذت الابتسامة ترسم على شفثيها ، كأنها أرادت بذلك أن تغفر له وقاحته معها ، أمسك بها غدرا من خصرها ، كالكلب الخداع الذي يغرك منه سكوته فينهشك بأنيابه ، وأنت عنه غافل .

وأطلقت الصحن من يدها على عتبة الباب ، ودفعت بكل قواها مفران على بعد ثلاثة أمتار الى الجدار المقابل . ولم ينبس بينت شفة وانسا مسح كتفه وانصرف في حال سبيله ، وهو يكن لها في نفسه الحقد والضعينة .

وفي الواقع انها تشعر في أعماقها بالسرور من هذا الدرس الذي أعطته اياه . وقد أدركت أنها لن تحس بعد اليوم بأي خوف منه ، وخشيت أول الامر أن تعقد أمها المسألة ، غير أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تكلمها عن الحادث وأن تصفه لها كأنه انتصار تستحق عليه كل ثناء .

وبالرغم من المشاجرة العنيفة التي نشبت على اثر ذلك الحادث ،
ورغم الاقاويل المشينة التي روجتها أم مقران العجوز عن
« الكافرتين بالله » اللتين بعث بهما الشيطان الى ايجيل نزمان
لافساد الشيوخ والشبان ، فان ذهبية لم تضر في نفسها أي سوء
لمقران . وكانت على العكس من ذلك ، تنتظر في شيء من الفضول
أن تصادفه ثانية في الطريق وأن تلقي نظرة عجلى الى وجهه الماكر
لعلها تسمعه يلمح تلميحا بذينا الى رجولته ، أو يتلف من النار
التي شبت في قلبه ، وحينئذ ستسمعه ما يستفزه ، وستجيبه اذا
اقتضى الامر بعبارة لاذعة تليح بها للحادث الاخير . وما من شك
انه سيفهم ما تعنيه منها . لقد بدأت تستلذ هذه اللعبة التي أرغمها
عليها مقران ، لأن ذلك الشاب ، بالفعل ، بشع جدا ، وكانت —
وهي الفتاة اللعوب — تجد لذة في السخرية منه .

وفي الحقيقة انه أشبه ما يكون من حيث الهيئة والصورة بكلب
(بولدوج) ، اذ له رأس كبير وفم منفرج جدا ، وعينان تبعثان
الفرع في قلوب الاطفال . ومهما أجهد نفسه في حلق ذقنه فان
النقاط السوداء من لحيته الكثيفة تضي دائما مسحة رهية على
وجهه الذي أحرقت الشمس حتى صارت بشرته الملساء سمراء
داكنة السمرة . ويحسب من ينظر الى يديه الكبيرتين انه قوي
البنية ، غير أنه لم يكن يفوقها في الطول ، بل ان قامته لمهي دون
المتوسط بالنسبة للرجال . ولا يحبه الشبان لأنه في نظرهم شخص

متأخر ورجعي ، يصدق خرافات العجائز ولا يقل عن أبيه في الحقد والنفاق . وباختصار ، فقد اجتمعت لديه من الصفات ما جعل عائلته تعتمد عليه ليحافظ على تراثها .

ولئن كان الناس يتحملون معاشرته أحيانا ، فلأنه غني ولأنه قد يقرضهم عند الحاجة بعض المال . وهو من جهته لا يميل للمخالطة ولا يستعين بأحد لمساعدته في أعمال الفلاحة .

أما في سلوكه مع ذهبية ، فقد أظهر من العناد ما يبعث على الغيظ مما جعلها تشعر برغبة شديدة في أن توسعه ضربا وتفقأ عينيه وتغرر أسنانها في وجهه الداكن .

ظنت ذهبية أنه سينقطع عن معاكستها بعد تلك الفضيحة ، ولعله سيجعل لها في نفسه الحقد الدفين ، ثم يتحول عنها الى غيرها . ان هذا الشخص المكبوت الذي لا يفتأ يلاحقها بنظراته المتعطشة قد نغص عليها العيش وعكر عليها شعورها بكونها جميلة ، فاتنة الجمال . وقالت في نفسها :

— سأرى ما اذا كان قد عرف قدره .

وتم اللقاء الاول بينهما في النادي (1) بعد انقضاء عدة أيام على الحادث ، ولكن النادي كان غاصا بالناس ، ومرت ذهبية مع رفيقاتها ، وقد حملت على ظهرها الجرة ، فلم تتجاسر أن ترفع رأسها ، الا أنها عرفت أنه موجود هناك . ولم تكد تمر من ذلك المكان حتى قال أحد الشبان ممن لم تكن تتوقع منه الاذى لأنها تحترمه ، قال بصوت مرتفع لا يخلو من السخرية :

1 - المقصود بالنادي هنا هو ما يسمى في الامازيغية (تاجمايث) اي الجماعة ، وهو مكان اجتماع اهالي القرية لحل المشاكل او للسمر وقضاء الوقت (المترجم) .

— لا تزال في فصل الربيع يا مقران ، والتين لم ينضج بعد ،
وفاكهته اللذيذة ليست لك على كل حال .

ولم يرد عليه مقران بشيء ، واغتازت ذهبية من المتكلم ، وقالت
في نفسها ، وهي لا تدرك لغيظها سببا : « قل ما شئت ، فأنا لست
له ولا لك ، ولا لأي واحد منكم أيها الأغبياء » .

لقد مسها في الصميم حينما اعتبرها كالفاكهة التي يتمتع بها .
أهذا هو معنى الحب عند هؤلاء الاجلاف من اينيل زمان ؟
وحينما وصلت الى الدار ، نظرت الى نفسها في المرأة الصغيرة
يزهو واختيال ، ورأت بينها وبين الخوخة شبيها ، ولو قال عنها
بأنها خوخة لأعجبها ذلك منه ، ولكن يا له من غبي ! أرايت كيف
شبهها بالتين ؟

وفي الايام التالية انقطع مقران عن التعرض لها في الطريق ،
ولعله كان ينوي أن يتركها حتى تنسى الحادث تماما . الا أنها ذات
يوم رآته على سبيل المصادفة واقفا في البعيد بالقرب من العين ،
حيث يملك أهله حقلا . وفي اليوم التالي ، ثم في سائر الايام
الآخري وجدته هناك ، وقد وقف لها بالمرصاد مرة فوق شجرة
من أشجار الكرز القائمة على جانب الطريق — وكانت حينذاك قد
بدأت ثمارها تنضج — ومرة أخرى وجدته مشغولا بادخال
الاعشاب اليابسة الى الكوخ . وذات مرة صادفته في نفس الطريق
منهمكا في تصليح ثغرة حدثت في السياج .

ومن عادة مقران كلما أبصر البنات قد أقبلن في الطريق أذ يدير
لهن ظهره ، فاذا اختفين عن الانظار مبتعدات ، انصرف بدوره
من المكان وانهك في شغل آخر . ولم تلاحظ أية واحدة منهن
هذا الصنيع سوى ذهبية . ولكي تكثف ذهبية عن وجودها بين
البنات ، كانت تكتفي في أغلب الاحيان بأن تضحك ضحكة عالية
لأنفه الاسباب أو تنفوه بكلمة نائية تضحك لها البنات ثم تمضي
كأن شيئاً لم يكن .

أصبحت ذهبية على يقين بأنه لا داعي للخوف من مثل هذا
الشخص . وها هو الآن يتظاهر أمامها بالخجل ، حتى يجعلها
تعطف عليه . ولكنه في الواقع منافق . وما زادها ذلك الا كرها
له . وقالت في نفسها :

« ما أخطأ اذا كان يظن بأني أعيره أي اتباه » .

ولزمت الدار لمدة يومين ، ولم ترحها الى العين لأن أمها هي
التي قامت بالسقي ، وشعرت برغبة جامحة في أن تستخير
عما حصل ، ولكنها لم تفتح أمها في الموضوع ، ولم تجد من
يخبرها عما اذا كان مقران قد خرج خلال اليومين ليحوم حول
العين .

وفي اليوم الثالث نزلت بمفردها الى القرية لتتلا جرتها ، وفي
مثل ذلك الوقت من النهار لا يوجد عادة أحد في العين ، فقالت في
نفسها : « لن يخطر بباله أبدا أن يتعرض لي في مثل هذه الساعة .

وسيطول به الانتظار اذا كان يتوقع أن يراني بصحبة البنات عندما يذهبن الى العين » .

وكم كانت دهشتها حين شاهدت مقران بالقرب من الكوخ ، منهمكا في عمله يحتطب . ومرت غير مكرثة به ، غير أنها لاحظت بأنه انقطع عن العمل ، ومد نحوها وجهه الذي ارتسمت عليه الدهشة ليحلق فيها بعينه الواسعتين . وتوقف فأسه لحظة — احتراماً لها — قبل أن يهوي به الى الارض .

وحثت خطاها الى العين القريبة ورددت في نفسها : « أنا .. مشمزة منه .. مشمزة تماما » .

وان هي الا لحظة حتى أقبلت الى العين عجوزان ، وتلاحقت النساء واحدة بعد الاخرى ، حتى غص بهن المكان .

وذاث يوم ، بينما كانت ذهبية متأكدة أنها ستجد مقران قد تعرض لها في الاماكن المعتادة . واذا به يتخلف عن الموعد . وما كادت تلاحظ ذلك حتى أجالت بصرها يمينا وشمالا ، ونظرت الى الكوخ وتطلعت لعلها تشاهده تحت الشجرة الباسقة أو تحت الكرمة ، أو فوق شجرة الكرز . ولما تأكدت أنه بالفعل لم يحضر ، أحست بشيء من خيبة الامل ، كما لو حدث فراغ هائل في قلبها . وتوترت أعصابها ، فقالت للمرأة التي كانت تسير أمامها :

— مالك نائمة ؟ عجلي في السير ، أو افسحي لي المجال حتى أمر .

... فأجابتهـا. الاخرى :

— أمامنا متسع من الوقت يا بنتي . فما بك فجأة تستعجلين ؟

وعند ذاك قالت فتاة أخرى بأن مفران قد أخلف وعده في هذه المرة . فأخذت البنات كلهن يضحكن . واحسر وجه ذهبية : ولزمت العسست وتساءلت :

« ترى . هل يعتقدون بأنه لا يتعرض لنا في الطريق الا من أجلي ؟ »

ثم طسأت نفسها : « ما أبلد هؤلاء النسوة . ومتى كنت أعير هذا الغبي أي انتباه ؟ »

وفي طريق العودة من العين . صادفن مفران في مدخل القرية ، وكان واقفا بسفرده ومستندا الى باب مغلق . وقد ارتدى بنسابة ذهابه الى السوق عباءة بيضاء فوق صدارة سوداء ، ووضع برنوسه على كتفه . وكان يبدو عليه أنه ينتظر شخصا سيفتح الباب عما قليل ليخرج من الدار . وحينما وصلن اليه أدار لهن ظهره وتنحى جانبا ليفسح لهن الطريق . ثم صاح بأعلى صوته :

— أسرع ! أنت عارف انني وصلت الآن فقط من السوق ، ولا بد من أن أتفقد أشجار الكرز .

الا أن الباب لم ينفتح ، ولم يخرج منه أحد . وتأكدت ذهبية أن هذا الكلام موجه اليها وأنه يعتذر عن تخلفه عن الموعد .

وامتلأ الفراغ الذي أحست به في قلبها . لقد أدركت السبب
وعادت الامور الى مجراها . غير أنها تظاهرت بعدم الاكتراث ،
ورددت فيما بينها وبين نفسها مرة أخرى :
— أنا مشمئزة منه .. مشمئزة تماما .

الفصل السابع

ذاك الصباح ، رجعت مالحة من الحقل في حوالي الساعة العاشرة ، ورمت عن ظهرها أمام عتبة الباب حزمة صغيرة من الحطب اليابس، ثم مسحت وجهها بأحد أطراف فوطتها(1) وتطلعت في حزن الى ابنتها التي كانت منهمكة في قتل الدقيق من الشعير ، على القصعة الكبيرة ، لتعد منه شيئا من الكسكسي ، وقالت بصوت كتيب :

— خلاص .. مساء البارحة ، خطب مقران ويزة ثايت حموش . فقد سمعت النساء يزغردن حينما مررت بالقرب من دارهم . وجميع الناس في القرية يتحدثون عن هذه الخطوبة .

فأجابتها ذهبية ، وهي تهز كتفها غير مكترثة :

— وفيهم يهمني ذلك يا أماء ؟ هنيئا لويزة بهذه الخطوبة .

انها تعرف أن أمها ستظل عابسة الوجه طيلة النهار ، كما لو أن كل فتاة يخطبها الناس في اينيل نومان ، انما تحصل على ذلك الشاب الذي كان من المقروض أن يكون لابنتها هي ، وكما لو أن ذهبية — وهي الفتاة المغفلة — تسمح لجميع البنات بحرمانها

[— اللوحة : قطعة من الثوب زاهية الالوان ، تاتزر بها النساء في الصدر (المترجم) .

من نصيحتها . وذهبية ، في مثل هذه الظروف لا يسعها الا أن تكون عاقلة مع أمها ، فتقول لها بأن الذنب ذنبها ، وتطلب منها العفو ، فتسر أمها لذلك الموقف منها ، وتغفر لها ويعاودها الامل من جديد .

ومع ذلك ، فقد كانت مألحة متيقنة في تلك المرة أن عائلة آيت سليمان لن تنزل الى مستوى فتاة بائسة كذهبية .. ذهبية التي هي نصرانية ، زيادة على فقرها ، وليس لها أهل ولا خلان ، بل هي عديمة الشرف أيضا . أليست هي الفتاة التي يقول عنها الشيوخ بأنها (بنت الزبل) ؟ انها تعرف جيدا بأنه لا أمل في الحصول على أية نتيجة من عائلة آيت سليمان . ولكن ما عساها تفعل وهي تكره كل من يتزوج في القرية ؟

وبعد لحظات ، راحت تقول :

— معك حق يا بنتي ، تلك العائلة هي آخر العائلات التي أتمناها لك . انها بؤرة الفساد والرذيلة ، والله يرزق من يشاء .. وعلى كل حال فأنا أعرف من قد لا يفرح بهذه المصاهرة . وأما من جهتي ، فأنا راضية .

— ومن هو هذا الشخص يا أماء ؟

— وهل هناك أحد سوى الرومية (1) ؟ جميع الناس يعرفون بأن علاقاتها حسنة جدا مع أهل ويزة . وقد بذل دادا أحمد وأختي فاطمة بكل ما في وسعهما لتحسين تلك العلاقات ، وكنا

1 - الرومية : اي (مدام) الفرنسية . (المترجم) .

توقع أن تنتهي الامور الى نتيجة ، وكادت مدام رغم حذرها واحتياطها تورط نفسها وتخطب ويزة لابنها . ولا أدري اذا كانت الآن متأسفة على ترددتها . وعنى كل حال ، فلا بد من أن تبحث لابنها عن فتاة أخرى .

ولم ترد عليها ذهبية ، الا انها قالت في نفسها بأن الشيء الوحيد الذى استحوذ على عقل أمها ، هو البحث عن فتاة أخرى :

« لعل أُمي تعتقد بأنني سأكون تلك الفتاة ، وهذا ما جعلها مسرورة » .

كان بودها لو تستطيع أن تشرح لأمها مرة أخرى بأنها غير مستعجلة ، وأن فكرة عدم الزواج ، والبقاء معها طول الحياة ، قد خطرت ببالها مرارا . ان صوت ابليس اللعين الذى لا يفتأ يهمس في آذان جميع الفتيات لا يزعجها كثيرا ، بل هي في بعض الاحيان تغبط الراهبات وتتمنى أن تكون مثلهن . وهل خفي عليها ما يجري في ايفيل زمان ؟ فلم العجلة في الزواج بأول من يخطبها إذن ؟ واذا تزوجها فلا بد من أن تفر له بفضله عليها ، لأنه اختارها دون غيرها ، ولا بد أيضا من أن تتحمله مدى الحياة لا شيء سوى لأنه رجل رضي أن يتزوج بها .

غير أنها لم تقل شيئا ولزمت الصمت الى أن عادت أمها الى حالة الهدوء وختمت كلامها كماداتها :

— ما عندك حظ يا بنتي المسكينة . المسألة كلها يا بنتي متوقفة على نصيبك المكتوب على الجبين . وإذا لم يكتب عليه شيء فأنك مهما انتظرت الخطاب ، فلن يقصدك أحد منهم . نعم يا بنتي .. المسألة كلها متوقفة على المكتوب فوق جبين كل إنسان .

وعندما تسمع ذهبية ذلك الكلام لا يسمعها إلا أن تخفي جبينها في طاعة وخضوع . على أن عتاب أمها لا يتجاوز هذا الحد . ولا يدوم غيظها إلا لحظات ، لأنها تتشفي بشتيم العروس من حيث الذات والصفات ، ثم تنتقل بعد ذلك إلى العريس ، ثم إلى أهل كل منها : فتستعرضهم واحدا بعد الآخر ، وتنال كل واحد منهم بالسخرية والاستهزاء ، فإذا فعلت ذلك استراحت نفسها وعاد إليها السكون والرضى .

أما في تلك المرة . فلم تل قران ولا أهله بالانتقاد ، لأن الشيء الذي يعرفه الناس عنهم يكفي ولا حاجة لمزيد من الشتم . ولكنها سلطت لسانها على ويزة وأهلها آيت حموش ، كما اغتاظت من مدام التي كادت تورط نفسها معهم :

— لعلها تتوهم أن الناس لا يذكرون الخصومة القديمة الموجودة بين عائلة آيت حموش وعائلة آيت العربي ، فزوج مدام قتله أحد أفراد عائلة حموش . طبعا ، وقع ذلك من زمن بعيد . ولعلها نسيت زوجها .. أما أنا فلم أنس أبدا ، ولم أنس أيضا أن مصرعه تختفي وراءه أسباب غير مشرفة .

— ما هذا يا أماء ؟ وماذا سيكون موقفها اذا سمعتك تقولين ذلك عنها ؟

— معك حق يا بنتي ، فهي لطيفة معنا ، ولا يجوز أن أنتقدها ، وعلى كل حال فلم يتم ذلك الزواج ، ومن يدري فلعل عامرا هو الذى عارض فى قبره وكذلك كمومة ، فلم يوافقا على هذا المشروع .

— ومن هو عامر ؟

— عامر هو زوج مدام ووالد عيروش . أما كمومة فهي العجوز أمه . وأصلها من عائلة آيت حسوش . كم مرة شرحت لك ذلك ؟

— أنا على علم بأنه توجد أواصر قرابة .

— ماذا تقولين ؟ قرابة ؟ ان جميع الناس فى اينغيل نزمان بينهم أواصر قرابة . كل العائلات بينها روابط قرابة ، فانت مثلا ..

وراحت ننه مألحة تبحث عن أصلها وفصلها فى القرية وتحدثها عن قرابتها مع مختلف العائلات ، وتلك هي عاداتها لقضاء الوقت .

وهكذا غيرت مألحة موضوع الحديث وصارت تفكر فى أمور أخرى ، الا أن ذهبية ظلت على العكس منها كتيبة طوال النهار .

ما من شك لديها في أن الطرق التي يستعملها مقرران في ملاحظته لها طرق تدعو إلى الاستهزاء ؛ لأنه يكتفي بمجرد النظر إليها كلما تعرض لها في الطريق ، كأنه يجد في ذلك متعة . ولا شك أنها ما كانت لترضى أن تكون زوجته ، وكل ما في الأمر أنها تجد في تلك المغازلة الصامتة ما يشبع أنوثتها . ولذلك فسرعان ما فقد مقرران لديها ذلك القليل من العطف الذي بدأت تشعر به نحوه ، على غير علم منها . وما هذه الخطوبة إلا دليل آخر على غدره وخيائته . وتلك هي في الحقيقة عادة جميع أبناء آيت سليمان . ولكم تمنى الآن أن تصادفه في الطريق لتعبر له عن احتقارها . غير أنه لن يتجرأ بعد اليوم على المجيء إلى المكان المعتاد لانتظارها ، بل هي متأكدة أنه سيتحاشى لقاءها ، وسيصد عن الطريق حينما يراها .

لعلها كانت غيورة بعض الشيء من ويزة . وكيف لا ، وهي محرومة من جميع ما تتمتع به هي وأغلب البنات في إيغيل زمان : فكل واحدة منهن لها أب وأخوة وعائلة تحميها ، وللبعض منهن مال كثير ، فمن المؤكد والحالة هذه أن الشبان سيتقدمون إن عاجلاً أو آجلاً للخطوبة والزواج بهن . أما ذهبية فمن سيخطبها يا ترى ؟ .. أحد التعمساء من أمثالها بدون شك .. وستجبرها أمها على أن تقبله زوجاً .. وما دام الأمر على هذا الشكل فلم العجلة في الزواج ؟

وظلت ذهبية تجتر هذه الأفكار السوداء إلى أن تحولت كآبتها إلى حزن عميق ، وشعرت على غير عاداتها بالرغبة في

البكاء . وما فتئت طول النهار تقول في نفسها : « ما أنا في نظر المعجبين بي الا فتاة للمتعة . انهم لا يفكرون الا في تشويه سمعتي . أنا أحتقرهم جميعا لأنهم لا يختلفون عن مقران ... كلهم جناء » .

وأحب الفتيات الى نفسها هي ويزة ، بنت الجيران . وهي تحب الخروج معها لمرحها وجرأتها في الكلام ، وطيبة قلبها . فاذا ذهبت معها الى العين ، فان تلك اللحظات التي تقضيها معها تتحول الى نزهة ممتعة ، اذ أنها تعرف كيف تنتقم من أولئك الشبان الوقحين الذين يستفزون البنات عند اجتياز النادي ، فاذا مر أحدهم لوجده بالقرب من العين ، فان جرأته تتبخسر فيصير بدوره خجولا . انها تعرف كيف ترد على النكتة بالذع منها ، فتضحك جميع الحاضرين مما يجعل ذلك الشاب الوقح ينهزم أمامها منخني الرأس . ثم ان ويزة وسيمة الوجه ، أقصر من ذهبية في الطول ، ولكنها أكسل منها بدنا لأنها تكبرها بسنتين أو ثلاث . وما على الانسان الا أن ينظر الى أوراكها الواسعة وخصرها المكتنز لحما ، حتى يتبين له أنها امرأة ناضجة الاثوثة ، بينما يجد على العكس من ذلك في مثية ذهبية ، وحركاتها وصوتها ، شيئا من العفوية الممزوجة بالطيش ، كأنها لا تزال بنتا صغيرة . واذا وقفنا جنبا الى جنب ، وقارن الانسان بينهما ، فانه سيحكم بدون تردد أن ذهبية أجمل منها بسختها الناصعة البياض ، وقدها الفارع الطول . غير أن ويزة

لا تقل عنها جاذبية ، فهي المثال المجسم للفتاة السليمة المتوازنة المتفتحة للحياة ، بل هي أكثر منها جاذبية بعينيها الضاحكتين الجريئتين ووجهها الناعم البسام ما جعلها محبوبة من طرف سائر من يتردد على العين من النساء . أما الشبان المعجبون بها فلا يجدون صعوبة في الحصول على ابتسامة منها . وهي من جهتها كذلك تبادل ذهبية المودة وتحب أن ترافقها الى العين ، مما جعل أمها تحذرهما غير ما مرة :

— لا أحب أن أراك دائما برفقة ذهبية ، فالناس لهم عيون ترى وآذان تسمع .. أنها جميلة ، وأنت إذا وقمت بجانبها تظهرين قبيحة .

فتجيبها ويزة ، ساخرة منها :

— أنا أيضا جميلة .

وبالفعل ، فقد لاحظت بدون أن تغتر بنفسها ، أن الشبان يعيرونها كثيرا من الانتباه ، فما الداعي اذن للغيرة من ذهبية ؟ بل هي على العكس ، تفضلها على الكثير من رفيقاتها .

وحينما التقت بذهبية بعد اعلان الخطوبة ، قبلتها بمطف ومودة ردا على تهانيها وتمنياتها ، وأخذتا على طول الطريق تتحدثان في مختلف المواضيع ، ولم يكن بإمكانها أن تنهرب من الاجابة على أسئلة البنات الفضوليات ، وراحت ويزة تتفنن في اثاره غيرتهن . وهكذا فقد ظلت لمدة أسبوع محفوفة بالحناءة

من طرف سائر رفيقاتها . أما صديقاتها فقد فرحن لخطوبتها غاية الفرح ، وأما الاخريات ، فقد كن يستمعن بكل انتباه لما يدور من أحاديث حتى اذا خلون الى أنفسهن ، حينئذ فكل واحدة منهن تبحث عن نقاط الضعف وتلفت الانتباه الى ما لاحظته في كلام ويزة من المبالغة والكذب ، وكل ذلك لكي يقنعن أنفسهن أن ويزة مهما تظاهرت بالبهجة والسرور ، فانها لن تكون سعيدة في البيت الجديد الذي استدخله .

وسألته ذهبية بشيء من المكر ، عما اذا كانت تحب خطيبها ، فأجابتها :

— أتريدين مني الحقيقة ؟ .. وجهه لا يروقني ، ولكنني مع ذلك سأحبه اذا كان لطيفا معي . ولا تنسي يا عزيزتي أن أهله أغنياء ، فلهم بقرة وبضعة ثيران وكثير من أشجار التين والزيتون ودار كبيرة . ومن هذه الناحية لملك تواقين أنه سيكون زوجا أحسد عليه . وعائلته معروفة كمائلة آيت حموش . وأنا لا أنوي من هذا أن أحط من قدر عائلتكم آيت العربي لأن أعمامك أيضا من ذوي الحسب والنسب .. وهذا الامر على كل حال مهم في الزواج ، ولا تنسي أن له أخا . وهل تعرفين من هو أخوه ؟ رجل متعلم ، ولا يقل علما عن شيخ القرية ، بل هو أحسن منه ، تصوري انه يشتغل ناطورا (1) .

1 - الناطور : كان مرهوب الجانب في القرية او البلدة ، على عهد الاحتلال ، ويسمى : garde - champêtre (المترجم) .

— لقد فرحت لك غاية الفرح يا أختي ، وما بقي عليك الا أن تحبيه لتكوني من أسعد الناس .

— فهمت قصدك ، وأنا لا أعرف ما اذا كنت سأحبه أم لا ، وعلى كل حال سأفعل كما تفعل بعض النساء . أسألي المجربات منهن وسيشرحن لك ذلك . ان المسألة على غاية من البساطة : ما على المرأة الا أن تغمض عينيها ، وعندئذ لن يكون الشخص الذي يضمها بين ذراعيه ويلثم ثغرها .. لن يكون سوى الرجل الذي تحبه هي .. ولكن كفى من هذا الكلام ، لقد جعلتني أقول ما لا يليق .. وأرجو أن لا تغاري مني أنت على الخصوص . اتركى الحسد والغيرة لغيرك من البنات .

— ولماذا أنا بالخصوص ؟

— طيب ، لقد ذكرتني بأمر .. ألا تعرفين عميروش ؟ .. انه سيعود الى البلاد قريبا ، وسيكون عميروش لك أنت وحدك . يكفيه أن يراك مرة واحدة حتى يغرم بك . لن يكثر بأحد سواك أبدا . سترين عندما يصل ، من هو عميروش .. نجم يتألق بالجمال .

وتحدثت بعض رفيقاتها على سبيل التهكم عن أفراد البيت الجديد الذي سوف تدخله ، فلمجت احداهن الى أن العجوز صعبة ، وقالت أخرى ان بابا سعيد على العكس منها ، لطيف مع البنات فوق حد اللياقة ، وان زوجة الناطور هي — فيما يقال — صاحبة الامر والنهي عند بيت آيت سليمان ، فردت عليهن ويزة :

— أتردن الصراحة ؟.. لو تقدم أحد الشبان ليخطب فتاة ودفع لها مهرأ يقدر بمائة ألف فرنك ، لشعرت بالحسد والغيرة منها ، ولكن ما كنت لأفتح فمي ، ولا كنت لأتقدها في شيء . أما الشيخ بابا سعيد فإذا دار بخلده أن ينال مني أي شيء فسأنتف لحيته . أما العجوز ، فأنا أنصحها أن لا تتدخل فيما لا يعنها . وليكن في علمهم أن أهلي من ذوي الأثفة والشرف ، وبنتهم لم تبر (1) عليهم ، ولم يحركوا ساكنا ليزوجوها ، بل جاءوا هم ليخطبوها . ان بيت آيت حموش لا يدللون على بناتهم كما يدل على السلعة الكاسدة . ومن هذه الناحية فلتكن مطمئنت علي . أما زوجة الناطور فهي من بنات العم ، وأنا لا أخاف منها لأنها معوجة القد كالعصا المعقوفة ، وهيهات أن تكون مثلي في الجمال .

— قد يبلغها يا ويزة ما تحدثت به عنها ..

— سيبلغها بدون شك ، وأنا أعلم أن قصدكن هو اثارتي ونقل كلامي اليها ..

وأحدث هذا الجواب شيئا من الاضطراب والوضواء ، فأعادت ذهبية الهدوء عندما سألت ويزة عما سيشتمل عليه جهازها من الثياب ، فراحت ويزة تنسج لهن صورة مذهشة عن ذلك الجهاز ، وتصفه لهن في غير قليل من الاعتداد بنفسها ، بينما كانت رفيقاتها يستمعن اليها ويتغامزن .

1 - بلوت الفتاة : لم يتقدم احد ليتزوجها ... انظر ص 24 . (المترجم) .

وحينما عادت ويزة الى الدار ، قصت كل ما حدث على أمها .
وما كادت هذه تسمع منها ذلك حتى ارتاعت للأمر ، فأعطتها
درسا في الحذر من الناس ، ثم ذهبت في الحين لتعطي لتلك
المرأة التي ستعيش معها بنتها في نفس الدار ، صابونة معطرة ،
وقد حرصت كل الحرص على أن تسترضي تلك المرأة التي
وصفتها بنتها بأنها معوجة كالعصا المعقوفة . ، ومن يدري
فلعلها ستدقق ابنتها الأمرين .

ان أمها تعتقد أنه آن الاوان للسياسة والملاينة ، فلا بد مهما
كلف الامر ، من أن تصل الى الغاية المنشودة بدخول بنتها الى
بيت آيت سليمان ، وتركيز مكانها بينهم كشجرة التين الصغيرة
المفروسة في أرض قاحلة .

ولم يغب عن بالها أن أفراد هذه العائلة لا يشفقون ولا
يرحمون ، فاذا لم تعجبهم احدى النساء فانهم يطلقونها في
الحين ، ولا يخبرونها عن الغلطة التي ارتكبتها . ولذلك كان
من الحكمة أن تركز مكان بنتها بينهم حتى لا يقع ما لا تحمد
عقباه

الفصل الثامن

قال مقران في نفسه :

« خطيبتى ليست قبيحة الصورة . أنا متأكد من ذلك . وإذا كنت محظوظا ، فسأتمكن اليوم من مشاهدتها عن قرب ، ليطنن قلبي » .

واندس بين أوراق اللبلاب وأخذ مكانه وراء جذع شجرة الدردار الغليظ ، وتخبا هناك حتى لا يراه أحد . انه على بعد عشر خطوات فقط من العين التي لا تزال باحتها خالية من النساء . ثم استرسل يقول في نفسه :

« ربما أوقعت نفسي في ورطة ، اذ لا أستطيع أن أنصرف من هذا المكان حينما تفص باحة العين بالنساء . سأبقى حبيسا في هذا المكان حتى المساء . يا له من عمل سخيف... كأنني لا أعرف ويزة ولا أستطيع أن أراها في وضح النهار وفي أي مكان أريد » .

وأقر في نفسه أنه جاء على أمل مشاهدة أشياء أخرى ، وأن تلك الأشياء اذا حدثت أمامه فانه لن يفض بصره ، بل سينظر ملء عينيه .. ثم طرد هذه الفكرة الخبيثة من ذهنه ولعن ابليس واستعد لمغادرة المكان . وما كاد يفعل ذلك حتى أبصرته خلوجة في طريقها الى العين . ورآها وهي تدنو بخطوات ثقيلة وعلى ظهرها جرة وفي يدها جرة أخرى . ونهـ خلوجة هي التي تسقي بيت شيخ البلدية بالماء ، ومن عاداتها أن تذهب الى العين حاملة معها جرتين ، فتترك احدهما هناك لتملأها احدى النساء في غيابها ، وخلال تلك المدة تمضي بالأخرى الى البيت ، وبهذه الطريقة لا تضيع وقتها في الانتظار .

وهكذا وجد مقران نفسه مضطرا لأن يلازم مكانه ، ولم يجد ما يصنعه سوى أن يعد الجرار ، وأن يتفرج على النساء وهن يتلاحقن الى العين ، واستعد للبقاء هناك الى أن يحين الوقت ليتسلل من مكانه بدون أن يراه أحد .

رآهما مقبلتين واحدة بعد الأخرى في اللحظة التي كانت فيها انه خلوجة خارجة من تحت قبة العين ، وبين يديها جرتها التي فاض منها الماء . وتركز بصره عليهما ، فلم يعد ينتبه لغيرهما من البنات . لقد رأى ويزة وذهبية مقبلتين فشعر بالسرور يفغره .. أليس هذا ما كان يتسناه ؟ أن يقف على مقربة منهما ، مواجههما لهما تماما ، وبدون أن يعلم به أحد ، وأن يقارن بين تلك الفتاة التي ستصبح زوجته ، وبين تلك الفتاة الأخرى التي يكرهها لأنها سحرت عقله . انها البنت التي لا يرضاها لنفسه زوجة ، وان كان

يشعر نحوها بميل شديد .

وأخذ مقران يردد في نفسه : « خطيبي جميلة جدا . وكم أنا غبي اذ شككت في ذلك » .

وأبصر ويزة تسبق البنات في ثوبها الناصع البياض ، وقد وضعت على رأسها محرمة صفراء وتمنطقت بفوطة من الحرير الاحمر كأنها الجبة الضيقة ، فأبرزت أعطافها المكتنزة . وكانت تتحدث بأعلى صوتها وتتضحك وتلتفت بين الحين والآخر الى من يمشي وراءها من البنات .

أما ذهبية ، فقد كانت تسير خلفها وظهرت أطول من ويزة ، ورأى وجهها الذي يشع منه الجد والوقار ، ونظرتها العميقة التي طالما أثرت فيه . ولقد لبست عباءتها العتيقة ذات الزهور الوردية ووضعت على رأسها محرمتها السوداء ، واسترسلت ضفائرها الرقيقة الى خصرها كأنها سلسلة ناعمة .

ومضى مقران يقول في نفسه : « خطيبي جميلة ، ومعها ينم عن السعادة . وأنا أيضا أشعر بالسعادة تغمرني .. الحمد لله ، لقد نجوت من تلك الصبية النصرانية التي كادت تضلني عن الصراط المستقيم . وأبي معه حق ، فلا بد قبل كل شيء من القيام بالواجب ، ومن يهمل واجبه فليس برجل يعتمد عليه » .

ولكنه أدرك في شيء من الاسى ، أن تلك الفتاة التي لا يرضاها لنفسه زوجة قد انتهى أمره معها الى الابد ، كما لو كان

لا يعرفها وهي لا تعرفه . ومن يدري فلعلها لم تفكر فيه اطلاقا .
 انها تتجاهله تماما ، ولذلك يكرهها .. وخطر بباله أنها ستكون
 ذات يوم لغيره ، فأحس بالهم شديد كأنه وخزة ابرة ، وكاد
 يصرخ بقوة . غير أن ذلك الالم ما لبث أن زال. وتمتم بين
 شفقيه كمن يستيقظ من حلم مزعج :

— الله يلعن الشيطان .. مالي وتلك الفتاة الكافرة
 الملعونة ؟..

وأخذ في نفس الوقت ينظر اليها بعيون متعطشة ، غافلا عن
 خطيئته ويزة التي وقفت حينذاك أمام ذهبية في الباحة الصغيرة من
 العين . انه مسحور بقوامها وأعطاف جسمها وخبايا صدرها ،
 ومفتون بذلك الوجه الوسيم الذي ليس اليه من سبيل . أما
 ويزة فانه يحس بها قريبة منه . انها في متناول يده . وما عليه
 الا أن يناديها حتى تأتي اليه طليعة . واعتراه خزي من رغبته
 الدنيئة ، وبدا له أن كل ما فكر فيه باطل وسخيف لأنه لا يوجد
 أي شبه بينه وبين تلك الفتاة . انه اذا نظر اليها بوجهها الكئيب
 وثيابها الرمادية ، يتشئل فيها الأمل البعيد الذي لا سبيل الى
 تحقيقه لأنها الفتاة التي يسمى وراءها كل من أصيب بالكبت ،
 ويبحث عن المستحيل . فتكون عاقبته معها الفساد والالحاد
 والعار . وأغمض عينيه وأسند رأسه الى جذع الشجرة ، وبدون أن
 يدري : أخذ يقطع بأظفاره أوراقا غليظة من اللبلاب . وفكر في
 نفسه :

« سأبقى هكذا مغمض العينين ، وحينما يصلني صوتهما في طريق العودة الى القرية سأصرف بدوري . ابعدني عني يا بنت ، أنا لا أريدك ولا أعرفك ، وانما ابليس اللعين هو الذي أراد أن يضلني عن الصراط المستقيم . وابليس اللعين يتمثل لبني آدم في مختلف الصور والوجوه » .

ولكنه لم يمنع نفسه من أن يفتح عينيه ، فأبصر ويزة قابضة في زاوية من زوايا الباحة ، وقد أدارت له ظهرها ، وسمعها تنادي ذهبية فجاءت إليها وناولتها اناء من الماء لأنها قضت حاجتها وأرادت أن تستنحي ، وكانت تتضحك ، بينما صدت ذهبية وجهها وأخذت تبسم ابتسامة لطيفة .

وخيل اليه أنه قصدته خصيصا بتلك الابتسامة لأنها وجهت بصرها في تلك اللحظة الى ناحية اللباب . ومن يدري فلعلها رآته حيث هو يختبئ ، ولعله هو المقصود بتلك النظرة الناعمة وتلك الابتسامة اللطيفة . أما ويزة فقد ظلت قابضة غير بعيد عنها في وضعية مخزية ، تضحك وحدها ضحكة سخيفة ما لبثت أن أثارت غيظه . فلطالما أراد أن يرى خطيئته من مكان قريب وها هو ذا يراها على المكشوف .

وحدثته نفسه أن يخرج من مكانه وأن يسبها بكلام قبيح ، غير أنه تمالك وصد وجهه عنها كما فعلت ذهبية . ولم يلبث الا قليلا حتى رآهما تغادران العين ، وبعد لحظات خرج بدوره من مكانه وسرعان ما اختفى عن الانظار .

وكانت خلوجة حينذاك غائدة من القرية فرأته من أعلى الطريق وعرفته ، وكان يعدو الى جرف الوادي ويهيل في عدوه الاحجار والتراب ...

وفكرت في نفسها : « شبان اليوم لاجياء لهم .. ها هو ذا مقران يلاحق خطيئته ويسترق اليها النظر ، ولا يستحيي أن يفعل ذلك هنا بالقرب من العين وفي وضوح النهار » .

وهزت رأسها استنكارا لعمله وذهبت في حال سبيلها لتأخذ جرتها من العين .

حينما عاد مقران الى حقله أنكر على نفسه ما فعل ، فما كان يليق به أن يذهب الى العين وأن يسترق النظر الى الفتاة المسكينة التي لم تكن تدري من أمره شيئا ، فيا لخيبة أمله مما لقي منها ! كما أن البنت النصرانية لفتته درسا في الأدب لأنها صدت بوجهها ، بينما كان هو يتفرج على ويزة بكل وقاحة .. أليس من العيب عليه ، ومن العار على المسلم أن يأتي الى مكان مخصص للنساء ، وأن ينتهك أسرارهن ويراقب حركاتهن وسكناتهن ويسترق السمع الى أحاديثهن ؟ ..

لابد من أن ينسى تلك الفتاة النصرانية ، لابد من أن ينساها كما لو كانت غير موجودة بالمرّة ، فما خلق لها وما خلقت له . وهو يتذكر كلام والده قبل اعلان الخطوبة ، حينما أخبره بما تم في الموضوع ، وأراد أن يستطلع رأيه :

— الواجب يا بني يفرض على كل واحد منا أن يحافظ على قدره وعلى مرتبته . ولولا الواجب لتهدم بيت آيت سليمان . الواجب هو الشرف والدين والعائلة . ونحن عائلة كبيرة ومعروفة وكذلك بيت آيت حموش . ونحن أغنياء وعائلة آيت حموش غنية أيضا . ولنا رجال وكذلك ويزة لها ثلاثة اخوة يشتغلون في فرنسا ، فاذا ذهبت الى تلك البلاد فسيمدون اليك يد المساعدة . كل هذه الأمور يا بني دليل على أننا اخترنا لك الفتاة التي تليق بك ، فلا بد اذن من أن تقبل ويزة زوجة لك .

وهكذا وافق مقران ... وافق لأن بابا سعيد ظل يتحدث طوال المساء بعدما اجتمع أفراد العائلة حول قصبة الطعام . ولم يجد مقران أي مجال للمعارضة ، لأن أخاه وزوجة أخيه أيدا والده على طول الخط ، وكذلك المعجوز أمه التي كانت قد دبرت كل شيء سلفا ، فاتفقت مع أم ويزة على الصداق ، وأعطتها بعض الوعود الأخرى ، فلا بد اذن من أن تسير الأمور على أحسن ما يرام . ما بقي على مقران بعد كل هذا الا أن يكون سعيدا لأنه استوفى جميع الشروط التي يفرضها الواجب والدين والشرف والعائلة . ما بقي عليه الا أن ينهض من مكانه ليقبل رأس بابا سعيد ، اعترافا له بالجميل ، وأن يقبل كذلك رأس أمه وأن يتمنى لهم جميعا ليلة سعيدة قبل أن ينصرف لينام وليرى ويزة في أحلامه . لقد وقع الاختيار على ويزة فلا بد اذن من أن يفكر فيها كزوج مخلص لزوجته وأن يكن لها في قلبه المحبة ...

واستعداد هدوءه تدريجيا واستأنف عمله بحماس ، وهو يفكر انه سيتزوج قريبا ، بل خلال بضعة أيام ، وستكون له امرأة كغيره من الرجال ، وسيحتل الغرفة الموجودة في الطابق الاول فوق غرفة أخيه تماما . عما قريب سيزداد به عدد المتزوجين في القرية أي أنه سيصبح في عداد العاقلين القادرين على تكوين أسرة وتربية أطفال ... ومن يدري فلعله بعد عام سينجب طفلا ... وأثارت هذه الفكرة اضطرابه تماما ، وحينما سلك طريق العودة في المساء بعد انتهاء العمل في الحقول كان يفكر في ويزة .

وتمالك نفسه الى أن جاء يوم الزفاف وخلال تلك المدة صار يتجنب الملاقاة مع ذهبية ، بل صرفها من ذهنه تماما . وكلما ارتسمت صورتها بباله ، فانه يبعدها عنه كما يبعد الانسان بحركة عصبية ذبابة عنيدة تزعجه ... خلاص اذن ، انتهى أمه معها ، ولم تعد ذهبية في نظره الا ذبابة ... مع فرق واحد، وهو أن الذبابة يمكن للانسان أن يسحقها فيتخلص منها . أما صورة ذهبية فلا سبيل للمساك بها ، بل تظل دائما ساخرة منه بعيدة عن متناول يده . ثم انه لا يستطيع أن يتجنب اللقاء معها ، اذ لابد من أن يصادفها ذات يوم في الطريق فيتظاهر بعدم الاكتراث بها ، ويلقي اليها نظرة خاطفة ويظل بعد ذلك على جمر ...

سارت الأمور في حفلة الزفاف على أحسن ما يرام ، فقد كان من الأعراس المشهودة في اينيل زمان . وكيف لا وقد تمت المصاهرة بين عائلتين تعد كل منهما من أشهر العائلات وأغناها .

وما بقي على الحساد الا أن يوتوا من الفيظ أو يتظاهروا أمام الناس بالفرح رياء ونفاقا . وكانت الدعوة عامة ، وتناول الفقراء والمساكين الطعام ووزع منه على من تعذر عليه الحضور من الأراذل . وأقيمت كذلك حفلة غداء فاخرة لأكابر القرية وشيوخها ، ولم ينس الناطور أن يمر بهم على الزقاق الكبير حتى يراهم جميع الناس . وتواصلت حفلة النساء طوال الليل وسمح لهن بالغناء والرقص . أما الرجال ، فقد قضوا السهرة في المقهى ، وانفرد الشبان منهم بمقران لحمله على الشرب والسكر . وبالفعل فإن مقران الذي لم يذق ولا قطرة واحدة من الخمر طوال حياته ، سكر سكرة شنيعة كان لها أحسن الأثر في نفس أمه لأنها كانت تعتقد أنه لا يقوى على مثل ذلك الصنيع .

وفي مساء اليوم الموالي دخل على زوجته حسبا جرت به التقاليد ، دخل عليها حينما أسدل الليل ستاره وخيم الظلام على القرية وساد الصمت في أزقتها ، وأخذ الناس يأوون الى فراشهم ، بينما كان البعض منهم نائمين . غير أن ستة من أصدقائه أبوا الا أن يظلوا معه حتى اللحظة الأخيرة . وما كاد الظلام يهبط حتى بدأوا يشجعونه على الدخول لأنه كان حائرا في أمره فقالوا له :

— اسمع جيدا هذه النصيحة : لا تتردد بالمرّة ، وعليك بالهجوم في الحين ، والا فأنت من الخاسرين . عليك اذن بالهجوم ، ثم أطلق البارود حتى نعرف بأنك قضيت الأمر . ولا تبق معها طول الليل . اخرج في الحين لنعود سوياً الى المقهى حيث سنبقي السهرة الى الصباح . وعليها أن تدبر الأمور وحدها .

فأجابهم مكران :

— أما بالنسبة للبارود ، فأنا موافق ، وأما بالنسبة للخروج ، فلا ... لذلك لا تنتظروني .

قال لهم ذلك لأنه لم يكن متأكدا من مقدرته على «قضاء الأمر» في الحين ، فأراد أن يتخلص منهم ..

— طيب ، لكن ما أردت . ولكن عجل وأتينا بالاسفنج والبيض .

ان تقديم الاسفنج والبيض للرفاق العزاب من أهم الواجبات على المتزوج . ودمهم يفعل فهو لاء بامكانهم أن يمتروا سقف داره بالأحجار ، كما تقضي بذلك عادة متوارثة من القديم . وقد يوجهون اليه بعض العبارات الساخرة من وراء الباب ليمنعوه من القيام بما ينتظر من العريس في تلك الحالة ، فيجعلون منه أضحوكة بين الناس .

— معكم حق بالنسبة للاسفنج . ولكن أطلب منكم بالمقابل أن تكونوا يقظين حتى لا يزعجني أحد بالرجم . وأنا أقصد بعض الجبناء من أعدائنا ، فأنا لا أثق بهم ...

— لا عليك ... سنكون لهم بالمرصاد . ولكن لا تضع وقتك هباء . لن يفكر أحد في ازعاجك شريطة أن نسمع الطلقة النارية .
وأضاف أحد رفاقه ، وهو أكثرهم مكرًا ..

— لي اليك نصيحة أخيرة : اياك أن تخاف منها ، بل على العكس هي التي يجب أن تخاف منك . مفهوم ؟ .. كن عابس

(1) أكلة من المعجون والخميرة تطبخ في الزيت فتتفخ كالاسفنج ، وتسمى أيضا : الخفاف (الترجم) .

الوجه ، خشن اليد . انظر ، انظر الي .. أرأيت ؟ .. تكلم بالجهر
ولا تستعطفها . فليس الموقف موقف استعطاف ، والا فأنت من
الخاصرين ..

حينما دخل عليها ، ألقى نظرة حائرة الى البندقية المعلقة بالقرب
من الباب ، ثم صرخ بصوت مرتفع غضوب :
— يا الله أنت .. ناوليني القفة .

غير ان مقران لم ينظر اليها ، وظل يحدق الى الارض . انه لا
يدري كيف وأين وجدها ، وماذا كانت تصنع حينما دخل . لم
يستطع أن يرى شيئا ، فقد بهره ضوء الفئار كالخفاش الذي يعسبه
الضياء ، وخيل اليه ان ضبابا كثيفا قد غطى كل شيء من جوله .
وناولته القفة المليئة بالحلويات وامسك بها مرتعشا وانسل من
الغرفة قائلاً لها بصوت ينقصه الحزم :
— يا الله ، هيئي لنا الشاي .

وسمع صوتها لأول مرة منذ أن دخل الى الغرفة ، سمعها تقول
موافقة بصوت هاديء تماما :
أنا أعرف انه يلزم اعداد الشاي ، وما هو ذا جاهز .

فقال في نفسه وهو يحث الخطى نحو رفاقه : « الأمور لا تبشر
بالخير ، ولا بد من الحزم . أنا غبي ، غبي جدا ... »

ولم يقض مع رفاقه الا وقتا قصيرا ، لأنه صمم أن يجابه في
الحين تلك التجربة الصعبة ، ووجد ويزة جالسة على فراش وثير
كانت قد أعدته لنفسها ، وجدها متطلعة بكل هدوء الى البطاقات
البريدية التي ألصقها على الجدران قبيل الزواج بيضعة أيام ليزين
بها الغرفة ، وما كان منها حين رأتها الا أن انتزعته من مكانها
لتفحصها عن قرب . وتمثل تلك البطاقات فتيات جميلات من ذوات
الخدود الحمراء والشعر المذهب والابتسامة المشرقة . فقالت له
وهي تركز عينيها في عينيه :

— تعرف ولاشك هؤلاء البنات ...

— بالطبع ، باريسيات ...

كان واقفا أمامها ، فشعر بانزعاج من نظرتها الهادئة ، وتطلع
اليها فراها كالباريسيات قد وضعت مثلهن المساحيق ويدها
وقدماها مصبوغة بالحناء ، وجيدها مزين بقلادتين ، وجلست على
فراشها فبدا رأسها غائرا في ثيابها الفضفاضة الجديدة وكأنها
متضايقه من لباسها .

أما مقران فهو متضايق أيضا ، ولكن لا من ثيابه ، بل من كونه
لا يدري ماذا يفعل ... هل يجلس أو يقترب منها ؟ . كان ينتظر في
حيرة وتردد لعلها تقطع الصمت ، غير أن ويزة لم تنبس بمنت
شفة ، وأخيرا قال في همس :

— أأنا متضايق من هذه البندقية ، والجماعة ينتظرون .

— وماذا ينتظرون ؟ ..

— أن أطلق البارود

— وما يمنعك من ذلك ؟ أطلق البارود .

وبدت له الفكرة رائعة ، بلى .. ما عليه إلا أن يطلق البارود مسبقا فيبعد الشبان ويشعرهم ان الأمر كله انتهى . وعندما تسمع أمه الطلقة ستحدث نفسها في فرح وسرور : « خلاص ... ولدي أصبح رجلا » وبعد ذلك سيكون لديه طوال الليل متسع من الوقت . وأخذ البندقية فأغلقت ويزة . أذنيها ، وبعد أن دوت الطلقة ، قال :

— استرحنا منهم الآن .

فأيدته ويزة في قوله ، وهي لا تزال تقلب بين يديها البطاقات البريدية :

— نعم ، استرحنا منهم .

ثم ساد الصمت بينهما من جديد ، وفكر في نفسه بأن هذه النطلقة التي طمأنت أهله على رجولته صارت تفرض عليه أن لا يتراجع . وأخذت هذه الفكرة التي تنسلت تدريجيا الى ذهنه تبعث في نفسه الاضطراب ، وظل يردد بينه وبين نفسه : « لابد .. لابد .. ومن نحن الحظ ان الليل طويل ، وعندي وقت واسع .. »

وأراد أن يجلس بالقرب منها ، غير انها ابتعدت عنه في أدب ،
مبتسمة في استحياء ، فصرخ مغتاظا :

— أنسيت انني أطلقت البارود ؟ ..

— ما كان ينبغي أن تفعل .

— وهل من حيلة أخرى للتخلص ممن كانوا يسترقون
السمع ؟ ..

— حسنا فعلت اذن .

— لا تسخري مني يا بنت أحمد ، ولتعلني انني رجل صعب
... هيا ، صبي لنا الشاي .

ولم تجبه ويزة ، وانما صبت له كأسا من الشاي . وأراد مرة
أخرى أن يقترب منها ، وحاول أن يمسكها من ذراعها ، فحطت
أمامه البراد (1) ثم استوت جالسة على فراشها وأدارت له ظهرها .
فقال في نفسه :

« المسألة واضحة ، فهي لا تريد أن تستسلم . ان هذه الغبية
تريد أن تجعلني أضحوكة بين الناس . واذا تمادت في الرفض فلن
أصل معها الى نتيجة . ولكن ألسنت رجلا كسائر الرجال ؟ »

وشرب كأس الشاي وحده عابس الوجه حتى يشعرها بأنه
مصمم أن يضع لهذا الأمر حدا ، غير انه كان منزعا من الطلقة

1 - البراد : ابريق الشاي . (الترجمة) .

النارية ، ومن الموقف المعاكس الذي اتخذته ويزة ، اذ لا يبدو عليها انها خائفة منه اطلاقا ، فهي تمانع وتنتظر بانها لم تفهم قصده ، وبكلمة مختصرة رفضت أن ... تساعد .

وقال في نفسه : « الحل الوحيد هو أن أرتمي عليها بدون ماطلة وأغلق فيها حتى لا تصرخ وينتهي الأمر في لحظة ... »

الا أن المشكلة هي انه يشعر بقواه قد خارت وبرغبته قد زالت . ورأى أن يتظاهر أمامها بالرزانة والوقار ، كما لو كان أمام جماعة من الشيوخ أو أصبح هو نفسه أحد أولئك الشيوخ الموقرين ، وشعرت ويزة بشيء من الهيبة والدهشة لموقفه ذلك منها ، ولعلها كانت تتوقع أن يكون جريئا معها ، أو يقوم بعمل من تلك الأعمال الخسنة التي تخاف منها كل عروسة وتحبها في نفس الوقت . ولما رأت منه ذلك الموقف تمددت على المطرح (1) وغطت نفسها باللحاف وقررت أن تتركه يدبر الأمر وحده كما يشاء ، ورفضت أن تقدم له أية مساعدة .. ومن يدري ... فلعلها بدأت في سرها تحتقره على ضعفه .

وآل به الأمر الى يأس ، ثم الى حيرة فتناول من أحد الرفوف زجاجة من الانيسات⁽²⁾ وأصب منها كأسا كبيرا فشربه صرفا من الماء ، ثم أطفأ الفئار ، وقال في نفسه وقد عزم على أمر : « سنرى الآن اذا كنت رجلا أم لا . »

1 - المطرح : المفرش . (الترجمة) .

(2) الانيسات : شراب مسكر (مغيب) يستخرج من نبات الانيسون (الترجم)

وتحس مكانه في الظلام ، وتمدد بالقرب منها وقرر أن لا يتحرك من مكانه الى أن يحين الوقت المناسب ، وإذا كان فلن يستأذنها في الموضوع ، وما عليه الآن الا أن يستعد .

وأخذ يردد في نفسه : « لا بد ... لا بد ... » وأحس برأسه يدور ... وابتسم ابتسامة ساخرة لغباوته : « انه عمل سهل جدا لو لم أكن غبيا ، وكل واحد من رفاقي يتمنى أن يكون محلي . ما ألنهم أستطيع أن أفخر بعد اليوم ان لي زوجة .. زوجة رائعة كالدمية . لقد وقعت على تحفة رائعة » .

وأحس برأسه ثقيلًا وسرت النشوة في بدنه ولم يعد يكثرث لشيء مما حوله ، ودب النوم الى جفنيه ، ونسي بعض الوقت مخاوفه . انه لم يذق طعم النوم لمدة يومين .

واستيقظ مرتاعا وقد أحس بفزع شديد يخنق أنفاسه ، وحملق بعينه في الظلام الدامس لعله يرى شيئا . وتدفقت الدماء الى وجهه ، وشعر بقوة عمياء تريد أن تنطلق من عقالها وارتمى عليها بدون شفقة ولا هوادة ، وقبل أن تستفيق ويزة من نومها كان الأمر مقضيا .. لم تبدر منها الا صرخة واحدة ، ولكنها لم تستطع أن تتخلص من قبضته . وقام منتصرا ليخرج من الغرفة ، وقال لها باستعلاء :

— ابكي الآن بالدموع يا بنت أحمد ، ولتعرفي بعد اليوم

أنني رجل .

وأغلق الباب من ورائه بعنف .

وفي تلك اللحظة تماما أخذ الديك يصيح . فادرّك أن الصباح لم يعد بعيدا ، ومعنى ذلك أنه لم يقض الأمر الا في آخر لحظة ، ولو تخلّف قليلا لصار أضحوكة بين الناس . وابتعد عن الدار بمنتهى السرعة ، وتنفس هواء الفجر فزال عنه أثر النعاس . ووجد نفسه يضحك من الفرح عندما هبط الى الكوخ بالقرب من العين حيث سينام قليلا . ويبقى فيه وحده الى أن يحين المساء .

ولم ينم فوق الكلا اليابس الا ساعات قلائل ، ثم استيقظ ليفكر من جديد في العسل البطولي الذي قام به وشعر بنفسه تتفتح للحياة ، وتصور أمه وزوجة أخيه وحماته وبعض النساء الأخريات قد أقبلن على العروس لمعاينة ما وقع . ولما رأى ذلك تأكد لديه أن الأمل لم يخب وكل شيء قد تم على أحسن ما يرام ، والعرس قد انتهى ، وأن القرية أصبح بعد اليوم في عداد أفرادها رجل آخر وامرأة أخرى ... ومن يدري فلعله سيصبح عما قريب من أفرادها صبي ، ومن بعده صبيان ...

واستفاق مفران من أحلامه . وقال في نفسه : « كفاني . كفاني من هذا » .

وفجأة خطرت بباله صورة ذهبية . وفي الحقيقة لم ينس تلك النصرانية أبدا ، بل حتى عندما كان ليلة البارحة مع ويزة ، لم

يستطيع أن يبعد خيالها عن ذهنه . لقد تمثل ابتسامتها الرائعة . وقال في نفسه ، بأنها لو كانت هي التي قاسمها فراش النوم لكان معها أفصح لسانا . وأخذ يشعر نحوها بشيء من الشفقة والرحمة وعاهد نفسه أنه ، اذا ما التقى بها فسيجود عليها بنظرة عطف ومودة ، وبذلك سيرهن لها عن كونه لا يزال مخلصا لها ... بالنظرات على الأقل ... وهذا لا يتنافى أبدا مع واجباته الزوجية نحو ويزة .

وشاءت المصادفة أن يلتقي بها عندما عاد الى القرية ، وكانت هي في طريقها الى العين برفقة أمها وخلوجة . وارتبك في أمره لا يدري ما يفعل لأن أخوف ما يخافه هو أن يقابل ننه مألحة وجها لوجه في الطريق ، وفكر في نفسه :

« الله ينجيننا من شر هذه المرأة . لا أظن أنني سأسلم من سبها وشتمها . ولكن ... لا علي منها .. »

وخطا خطوات الى الامام وأدار ظهره ليمسح مجال المروز لخلوجة وننه مألحة . أما ذهبية التي رأته مقبلا ، فقد تخلفت قليلا . وعندما أراد أن يواجه سيره وجدها أمامه تماما على بعد خطوة فتسارعت دقات قلبه وأراد أن يتنسم لها فما كان منها الا أن قذفته في وجهه بالعبارة الفرنسية :

— يا زبل .

وتلقى منها تلك السبة كأنها بصقة ، فمسح خده بطريقة آلية ، وقال في نفسه : « يالها من بنت حقيرة . انها تكاد تموت من الغيرة،

ومعنى ذلك أنها لاتزال متعلقة بي . وأنا فى الواقع ما أردت الا أن
أضحك منها وأمتع نفسي بها » .

وأحس مفران أنه فقد الشهية : وأن الجوع الذي كان يشمر
به قد زال فاستأنف سيره الى الدار بخطوات وئيدة .

الفصل التاسع

قالت مالحة لا بنتها قبل أن تستغرق في النوم :

— الرجال كلهم لا فرق بينهم يا بنيتي .

لقد مات عامر، ولكن ما أكثر الرجال اوفى الحقيقة انها لم تتكل أبدا لا عليه ولا على أمه مدام . ومع ذلك فهي تكلفت بمراسيم دفنه ، ولم يساعدها أحد ، حتى أنهكها التعب ولم تعد تستطيع أن تسهر مع ذهبية ، ولا أن تسليها وتؤاسيها ، لأن ذلك على العكس لا يزيدھا الا ألما وحزنا ، ولذلك لزمّت السكوت وقررت أن لا تتحرك من مكانها في الفراش ، الى أن يغلبها النوم ... وما لبث الناس أن سرى اليها وخيم عليها كأنه حمولة ثقيلة من الحطب، غير أنها قبل أن يدب اليها الناس استعادت الى ذهنها صورة شيخ البلدية وتخيلته وقد ارتسم الوقار على وجهه ، وتركزت عيناه على عينيها في عناد ليؤكد لها مرة أخرى رغبته أو يجدد لها طلبه . وتذكرت ما دار بينهما من حديث :

— أتعبت نفسك كثيرا من أجل هذا المسكين ، فلم تستريحى منذ الصباح . بارك الله فيك .

— ما قمت إلا بالواجب . وأنا أعتبر نفسي منذ أن توفيت والدته مدام ، كامه .

— نعم أنا عارف .. مسكينة بنتك ، ستألم كثيرا لو فاته .

— أي والله ، ستمر بعذاب أليم . ولا أعتقد أنها ستسلو أبدا .

— الحياة طويلة يا مالحة ..

— ... وقاسية على الفقراء والمساكين .

— من الواجب عليك يا مالحة أن تخففي عنها الألم وتعيديها الى الصواب . أنت ولا شك جربت الحياة . وتعرفين ...

لم يصعب عليها أن تفهم الى ماذا كان يرمي ، ولا حاجة للالاحاح لأن المسألة واضحة .

وتذكرت ذلك ، ثم قالت في نفسها قبل أن تستسلم للنوم :
« سرى فيما بعد ، فالحياة بالفعل طويلة .. »

وكان شيخ البلدية خلال تلك المدة قد أظهر اهتمامه بأمرها ، فأخذ يسعى لكي يشغلها عنده ، وكلفها بقطف نجزة من غلة الزيتون .

سدا سمعت ذهبية كلام أمها فكرت في نفسها : « لا ، والله . هذا غير صحيح ، اذ لا يستوي الرجال ، بل حتى النساء قد تجد بين الواحدة منهن والأخرى فرقا كبيرا . وهل عرفت أمي في حياتها

كلها .. هل عرفت الحب الحقيقي الذي عرفته أنا ؟ .. فلماذا
تتدخل اذن في ما لا يعنياها ؟ »

غير أن الشك ما لبث أن خامرها ، فتساءلت : هل كان حبها
بالفعل عظيما ؟ واذا كان عظيما ، فلماذا وقعت لها تلك المصيبة ؟
ان عامرا لم يتحدث في يومياته الا عن التفاهم بينهما ، ولم يشر الى
أي نوع من الجفاء ، ولكن سوء التفاهم بينهما وقع في البداية ..
في بداية التعارف تماما .. اترأها اذن مسؤولة عن هذه المصيبة ؟
وهل هي وحدها المذنبة ؟ وخيل اليها أن مقران ووزارة وعامرا
قد تحولوا الى أشباح واختفوا من حولها في الظلام ليعذبوها .
انها تراهم يقبلون عليها واحدا بعد الآخر ، ثم ينصرفون ويعودون
سوية ويختلط البعض منهم ببعض الآخر ، ويحاول كل واحد
أن يبرر موقفه ، ويتكلمون في نفس اللحظة كلاما لا يكاد يبين ،
ثم يهزون رؤوسهم ويقهقهون قهقهة رهبة . واستوت ذهبية جالسة
وفركت عينيها لعلها تبعد الأشباح .. انها حسست أن تظل طوال
الليل صاحبة حتى تشرح كل شيء لعامر الذي تخيلته قد جلس
غير بعيد منها بالقرب من الصندوق : يستمع بكل انتباه الى
شرحها . وهي لا تشعر بأي خوف منه . بل تتسنى أن تلحق به ...

وصل عامر من فرنسا عندما أينعت ثمار التين . وبعد بضعة
أسابيع فقط من زواج ويزة . وكانت تنتظر قدومه بفارغ الصبر ،
وكانت سائر البنات في القرية ينتظرن قدومه لأنه وسيم الوجه
ولأنه يتعرض لهن في الطريق . غير أنها اعتبرته كأنه عامرها هي ،

ولا يشاركها فيه أحد ، لعدة أسباب معقولة : لأنها جميلة ، ولأنها بلغت سن الزواج ، ولأنها نصرانية . وبما أن أمه فرنسية ، فهي ولا شك أقرب البنات من عامر .

وبالإضافة الى كل هذا ، أليست ذهبية بنت عمه ؟ اذن ما على البنات الأخريات الا أن يختفين من الميدان ، وأن يعترفن لها بحقها ويفسحن لها المجال .

كانت هذه الأفكار تشغل بالها قبل وصوله من فرلساء ، وكانت أمها تشجعها بطريقة غير مباشرة وتتعلق هي أيضا بنفس الأمل .

التقت به لأول مرة منذ وصوله حينما كانت عائدة بصحبة رفيقاتها من العين ، وكان ذلك بمقبرة تازروت ، وهو مكان طلق الهواء ممتع للغاية ، وكثيرا ما يتردد عليه الشبان ليتجاذبوا فيه أطراف الحديث ، فيستاء لذلك الشيوخ بسبب قربهم من العين . وأبصره سرب الفتيات جالسا على أحجار أحد القبور بجانب الطريق ، ولم يكن وحده ، غير أنهن لم ينتبهن لأحد سواه ، فحُدِجَنه بنظراتهن المتعطشة .

بدأت المسألة كلها في ذلك اليوم عندما قرصتها ويزة من ساعدها . بعد أن مرت على عامر وهمست في أذنها :

— أرايت يا أختي انني لم أبالغ حينما قلت لك بأنه كالنجم المتألق بالجمال ؟

وظهر الاضطراب على ويزة ، مما أثار مخاوف ذهبية التي فكرت في نفسها بأن رفيقتها ربما ستنافسها في حبه . وبينما هي على تلك الحال من الوجوم ، أضافت ويزة :

— الله لا يرحم أهلي .. لو أنهم صبروا قليلا وما زوجوني ...

وفكرت ذهبية في نفسها : « أخاف أن تسحره بابتسامتها ، وسحرها فتان . وهي تعرف كيف تستولي على القلوب ، فإذا صادف عامر منها ذلك فلا شك أنه سيميل إليها » .

كانت بالفعل خائفة من ويزة لأنها الفتاة ذات الجمال والجرأة والحسب والنسب . ولئن كانت ويزة مخطوبة ، فإن هذا لا يغير من الأمر شيئا لأن ذهبية أدركت منذ اللحظة الاولى أن رفيقتها ستجرب سحرها مع عامر ، ولن يثنىها الخوف من الفضيحة عن ذلك . ومنذ تلك اللحظة أخذت تشعر بالغيرة . وتحولت تلك الغيرة الى عذاب لا يكاد يطاق . وما حيلتها أمام ذلك السحر الفتان ؟ وهل كان عامر يدري بأنها تقاسي من أجله أشد أنواع العذاب ؟

وقدرت منذ البداية انها ستخسر المعركة مع ويزة ، غير أنها كانت تهديء من روعها أحيانا فتفترض أن التعارف بين ويزة وعامر قديم ، وانه ربما كان يحبها قبل ذهابه الى فرنسا ، فليس من المستغرب إذن أن يتجدد الحب بينهما وأن يشتد .

ومما يؤكد ذلك ان ويزة كانت منذ أربع سنوات مكتملة
الألثة ، وان عامرا كان أيضا مكتمل الرجولة . أما ذهبية فلم
تكن حينذاك تعرفه بالمرّة ، لأنها كانت تقيم مع أمها في قرية أخرى .
وكانت ويزة تتردد متى شاءت على دار أمه مدام لوجود قرابة
بينهما ، لأن كمومة أصلها من عائلة آيت حموش ، فهي عمة ويزة .

إنها تتذكر ان الناس لم يكونوا يستغربون أن يشاهدوا ويزة
تخرج في طريقها على منزل مدام لأن سي أحمد وأم عامر حصل
بينهما تفاهم على أمر الزواج ، وأصبح جميع الناس يعرفون
ذلك ، كما أنها تتذكر ان ويزة كثيرا ما كانت تتوقف قليلا في
طريقها لكي تسلم عليها فتستقبلها ذهبية بكل فرح وسرور ،
ومنذ ذلك الحين حصلت بينهما مودة عظيمة .

وإذا كان الأمر كذلك فليس من حقها أبدا أن تتعامل على
صديقتها ، لأن الذنب هو ذنب عامر . لقد اتخذ معها بعد وصوله
من فرنسا موقفاً أثار غيظها ، لأنه اعتبرها كالبنت الصغيرة فتارة
يشدها من أذنّها وتارة أخرى يقرصها من خدها ، وطورا آخر
يؤدبها . وطريقته في التحدث معها لا تروقها ، لأنه يخاطبها بصوت
غليظ قاس كما لو قصد من ذلك أن يمنعها من مناقشة آرائه أو
نصائحه ، فيقول لها : « يا الله يا ذهبية ، عجلي ... افعلي هذا ...
مالك لا تسرعين ... » طبعا فهي تشعر أنه يحمل لها تحت هذه
العبارات كثيرا من العطف ، غير أنها متمردة على اعتباره لها صبية
صغيرة ، بينما هي أطول من ويزة . وقالت في نفسها متأسفة :

« المشكلة ان ويزة أصبحت امرأة كاملة الأنوثة ، وأن عامراً مسحور بهذه المرأة » .

وأخذت ذهبية تتجسس عليهما ، ولم يعد يخفى عليها شيء من أمر المواعيد المستورة والاشارات الخفيه بينهما ، وصارت تلاحقهما أينما ذهبا ، وان كانا لا يدريان . الا أن هذه الملاحقة التي أصبحت شغلها الشاغل ما لبثت أن تحولت الى عذاب ، لأنها لا تجد من تصارحه بمكنون قلبها . انها خبأت سر عذابها عن كل انسان ، بل حتى عن أمها ، كأنه من الأمراض التي يخجل المرء من التصريح بها .. على أنها تحب المرض الذي أصيبت به وتجد لذة عندما تحس بالدموع تنسكب من مآقيها .

لاحظت ذهبية منذ الأيام الاولى . ان ويزة أخذت تعنى بزينتها ، وكلما رأتها قد غيرت ثوبها أو وضعت الكحل في عينيها أو حمرت شفتيها ، تقول في نفسها : « انها تتزين من أجل عامر لا من أجل مقران... مقران ليس له أي اعتبار عندها ، بل لم تقم له أبدا أي اعتبار » ولا يسمعها حينذاك الا أن تشعر بشيء من الشفقة على مقران وتتمنى أن تقابله في الطريق حتى تنظر اليه بمودة وعطف . وسنحت أمامها عدة فرص ، غير أن مقران كان يتجنبها بترفع لا يخلو من الاهانة ، فأعرضت عنه .

ولم تصارحها ويزة بشيء من أسرارها . بل هي لم تغبر لأحد عن خبية أمها في زواجها . غير أن جسيع صديقاتها يعرفن أن زوجها وأقاربه وبيت آيت سليمان قد خيخوا ظنهما . ولعلها متألة

من ذلك في قلبها ، غير انها لم تبج لأحد بألمها .. لقد كانت صابرة لأن أمها نصحتها بالصبر ، ولأن والدها يرى بأنها لن تجد بيتا أفضل من بيت آيت سليمان .. هذه الامور كلها أصبحت موضوع الاحاديث بين النساء في العين . وهناك ما يدل على صحة الاقاويل التي تشاع عنها ، خاصة أن سلوك ويزة لا يخلو من شيء من الطيش ، فهي لا تخاف من أحد في بيت زوجها ، ولا تحب منهم أحدا . أما أمها ، فقد كانت تتظاهر بتأييد ابنتها في سلوكها ذلك ، بل تعتبر هذا الطيش منها أمر طبيعيا ، لأنها أجمل من قران بكثير ، فلها الحق في أن تكون بين أهل زوجها محبوبة ومدللة .. على انها كانت اذا خلت بابنتها تؤنبها تأنيبا شديدا ، وتحذرها من الاستهتار الذي قد يؤدي الى الطلاق .

ولاحظت ذهبية وغيرها من البنات أن ويزة لم تكن منذ أن تزوجت تعنى بزيئتها . وذات يوم سألتها عما اذا كانت تحب قران ، فردت عليها ويزة :

— ما أغربه من سؤال ! طبعا أنا أحبه ...

وكاد يؤدي ذلك الى القطيعة بينهما . ثم نسيت كل منهما الحادث .. غير أن التغير أصبح واضحا منذ أن رجع عامر ، اذ أخذت ويزة تعنى بهيئتها مما جعل ذهبية تراقبها خفية عنها . ولم يمنعها ذلك من مرافقتها الى العين ، وكثيرا ما عرجت عليها ويزة في الدار حتى ان ذهبية فكرت بأن قصدها هو الامل في ملاقة عامر . وأظهرت لها من المودة أكثر من السابق وخيل اليها أن

عامرا صار يعجبه أن يلتقي بها معا . غير أن كل واحدة منها التزمت بأن لا تتحدث عنه ولو بالإشارة ، فتتظاهر بعدم الاكتراث.

أما ذهبية فكلما وقعت عينها على النظرات التي يتبادلانها ، فانها تتألم أشد الألم .. كانت في بعض الاحيان تفاجئ أحدهما وهو يوجه الى الآخر اشارة ، فيرد عليها الآخر بطريقة لا تدع مجالاً للشك . وكانت تارة أخرى تباغت ابتسامة خاطفة لا تكاد ترف فوق شفثيهما حتى تختفي ، فينشرح صدر ويزة وينطلق لسانها ، يئسا تعبس ذهبية ويتقطب جبينها .

واذا مضت أيام بدون أن يلتقيا . فان قلقها يزداد لكونها تتصور بأن ويزة وعامرا ينعمان بالسعادة بعد أن استراحا منها ، ولعلهما يسخران من تلك « الصبية الحمقاء » التي أبت الا أن تعترض طريقهما وأن تسنعهما من تبادل الحب والمودة . وبالفعل فان تصرفاتها لا تخلو من شيء من الحق ، لأنها في بعض الاحيان كانت تستبعد أن تكون قد نشأت بين ويزة وعامر أية علاقة مهما كان نوعها ، وحينئذ كان الامل يباودها : فتقول في نفسها بأن عامرا رجل لا يسكن أن ينحط الى تلك الدرجة الدنيئة ، وان ويزة من أحسن صديقاتها . واذا كانت غير سعيدة في زواجها ، فهي على كل حال وفية لزوجها ومخلصة له . ما من شك اذن أنها وفية له رغم ما يبدو من طيش في سلوكها . وكلما فكرت ذهبية في هذه الامور ، تقول في نفسها : « وما يسعني أنا أيضا من أن أكون جريئة وأكثر تصريحا بما أكنه لعامر من عاطفة ؟ » ولكنها

لا تكاد تلتقي بوزة وتقف معها أمام عامر حتى تشعر من جديد
بالخذلان فتتهزم هزيمة نكراء .

و ذات يوم بينما كانتا واقفتين معا في إباحة العين الصغيرة ،
اقتربت ويزة التي كانت شبه حاملة ، وطلقت خصر ذهبية برفق ،
وقالت لها بصوت عميق وهي لا تزال شاردة الذهن :

— يا أختي ، أنا عارفة أنه سيختارك زوجة له .. أما أنا ،
فقد فات الاوان .. ولكن صدقيني اذا قلت لك بأنه قد أحاط
بخصري بذراعه هكذا ..

فأجابتها ذهبية وهي تدفمها بعنف :

— لا يهمني أن أعرف ذلك ، اتركيني .

وفي طريق العودة إلى الدار ساد الصمت بينهما ، ومنذ ذلك
اليوم لم تترافقا إلى العين أبدا .

في نفس الأسبوع ، أعيدت ويزة إلى دار أهلها . وقد أشار عامر
إلى ذلك في يومياته . ورغم أن بيت آيت سليمان لم يذيعوا أي
خبر عن هذا الحادث ، لأنهم من أحرص الناس على كتمان
أسرارهم ، فقد شاع في القرية أن مقران رجل غيور ، ويعامل
زوجته بالعنف والشدّة ، لا شيء سوى لأنها جميلة ، ولأنها
لا تحبه ، فكان من الطبيعي أن يطلقها .. وذهب البعض إلى
أن عامرا ربما سيتزوج بها شريطة أن يسرحها مقران ويأذن لها
كما تقضي بذلك التقاليد .

وأنكر عميروش وأمه هذا الخبر أيما انكار .. أما ذهبية ،
فقد تيقنت في قرارة نفسها أن مقران وجدتهما في حالة مشبوهة .
وهذا اليقين زادها يأسا وقنوطا ، بل حطسها تماما .. ثم خفت
حدة غضبها ، لأنها لم تعد تجس بشيء : لقد كانت منهارة ..



أخذت ذهبية تنتظر دورها ، فراحت تعد الجرار الفارغة التي
وضعت في باحة العين ، وقد بلغت اثنتي عشرة جرة أو نحو ذلك ،
وقالت في نفسها : « لن يأتي دوري الا بعد مدة طويلة . سأعود
الى الدار ، على أن أرجع الى العين بعد ساعة » ، وقررت ذلك
لأنها لم تكن ميالة للضحك والمزاح مع البنات الموجودات هناك ،
ومن من البنات الطائشات المسلات .. وضعت جرتها في زاوية من
الزوايا ، ودستها بين الاعشاب الشائكة ، ثم انصرفت في حال
سبيلها . وبينما هي متجهة الى الطريق ، اذا بها ترى مقران واقفا
وراء شجرة الدردار الكبيرة ، وقد صوب بصره نحوها . وأحست
بقلبها يخفق ، واحمر وجهها ، فقالت في نفسها : « يا لها من
مصادفة ... مسكين والله ... سأبتسم له اليوم ، لأنه يبعث على
الشفقة » .

وتقدمت الى الامام فرأته قد أقبل للقاءها .. انها تستطيع
الآن أن تتخيل المشاهدة مرة ثانية ، فهي لا تزال تذكر جميع التفاصيل
.. وصلا في نفس الوقت الى السياج ، ورفع كل منهما بصره في
نفس اللحظة . وبقيتا مدة من الزمن وجها لوجه وكل واحد منهما

مسحور بالآخر . ومنذ تلك اللحظة لم تعد تذكر ما حدث بالضبط .. انها لا تدري هل أمسك بها من يدها ليسحبها معه الى الكوخ ، أم انها سارت خلفه من غير مقاومة ؟ .. كما أنها لا تدري هل بقيا وجها لوجه ، وقد انعقد لسانهما ، أم تبادلا بعض العبارات ؟ .. وكل ما تذكره انها شعرت بالرغبة في عضه كما كانت دائما تتمنى أن تفعل ، ولكنها عوضا عن ذلك وضعت يديها على كتفيه وأسندت رأسها الى صدره .

وسمعتة في شبه غيبوبة يحدثها بسرعة وغضب ، بينما رأت من خلال أهدابها الطويلة التي لا تقوى على رفعها ، رأت ابتسامته الماكرة ووجهه الاسود الذي يتصبب منه العرق . وسمعتة يقول وهو يهزها هزا عنيفا :

— تذكرني كل ما سأقوله لك يا ذهبية . لقد تجسست على ذلك الرجل اللعين وتيقنت انه فضحني وامتن شرقي .. والآن ينوي أن يتزوج بك ، أنت التي أحبها . خلاص .. استحوذ على كل شيء وأراد أن ينتزع مني قلبي وأحشائي وأن يجردني من كل شيء . هل سمعت يا ذهبية ؟ من كل شيء .. وستكونين له .. له الى الابد .. له وحده ، وأنا سأبقى صفر اليدين .. اسمعيني جيدا ، وبلغني اني سويت القضية القائمة بيني وبينه حول الشرف : فخذت ثأري . أما ويزة فاني أسامحها على ما فعلت . وعلى كل حال فلن تراه بعد اليوم أبدا .

ثم صار يقهقه :

— أما البقية .. يجب أن تبلغيه البقية ... وإن كنت لا أعتقد أنك ستفعلين .. قولي له من أنا إذا كان لا يعرفني .. أنا مقران ، مقران آيت سليمان ..

وانصرف في حال سبيله من دون أن يلتفت الى الوراء . وأخذت دموع غزيرة تنسكب من مآقيها بعد ما استعادت وعيها وأحست بأوجاع مبرحة تسري في بطنها . لقد تركها مقران لاهثة منهارة بعد ما ألقى بها في هاوية سحيقة ، وها هي الآن قد أدركت بعد فوات الأوان ما آل اليه أمرها ... لم يبق لها الا أن تلغنه على ما فعل بها ، وأن تبكي على حالها ... وعندئذ فكرت في عامر وقد تملكها الحزن والأسى فجاش قلبها الجريح بدعاء حار .. ولكن ما الفائدة من الدعاء إذا كانت يد الأقدار قد تسلطت عليها منذ الولادة ...

انها تتذكر. تماما عبارات مقران : يجب أن تبلغيه البقية ... وإن كنت لا أعتقد أنك ستفعلين ... » وبالفعل ، فلن تقول له شيئا أبدا ، لا ، أبدا . أما مقران ، فلم ينتظر وفاة خصمه لكي يعيد ويزة الى داره حتى يستر الفضيحة ويُرِيل الشبهات . لقد حسب لكل شيء حسابه سلفا ، ولعله الآن نائم بكل ارتياح مع زوجته في هذه الليلة الفظيعة التي تقضيها هي مسهدة الجفن ... لعله نائم بكل هدوء وطمأنينة بعد أن أخذ الثأر لشرفه .

وتحسست ذهبية بيدها في الظلمة العالكة لعلها تجد فوق الصندوق يوميات عامر ، وهي رزمة من الأوراق كانت قد لفتها في محرمتها قبل أن تتمدد في فراشها . فلما وجدت قريبتها من

شفتيها وقبلتها طويلا . وفي شغف ، ثم تسددت مرة ثانية ، وأمسكت بالرزمة وضمتها الى صدرها ، وما لبثت الأشباح الثلاثة الكامنة في ظلمة الليل أن تحركت من جديد . وحاولت أن تغض عينيهما ، الا أنها كانت تراها قريبة منها . ثم تحولت الى ثلاثة أزواج من النجوم وخيل اليها انها ترسل السهام الى مخها وان ويزة تقول لها :

— ان بيت آيت حموش يا بنتي سيكون وبالا على بيت آيت العربي . ولا تنسي ان أحد أفراد آيت حموش قد اغتال عامرا الأب دفاعا عن شرفه وها هو ذا أحد أفراد آيت سليمان يغتال عامرا الابن من أجل ويزة آيت حموش . هذا الشيء يا بنتي مقدر ومكتوب وليس لك فيه من حياة .

وشبه لها ان عامرا تسال الى مضجعيها مبتسما وانحنى فوقها وفتح ذراعيه ... ولكنها فجأة عرفت فيه نظرة مفران الحادة المليئة بالشهوة ، وابتسامته القاسية . وحينما أدركت ذلك زمت شفتيها . ولكنه أهوى عليها وعضها منها ..

وأزاحت يديها عن صدرها ومدتها وأحسبت بنفسها ضعيفة ثقيلة . بينما أخذت تشمر بسوجة عارمة. تغسرها وتهدهدها وتخدر أعصابها وتحطسها بنعومة ورفق ... واستسلمت لتلك السفرة المتعة ..

وحينما فتحت عينيها ، كان ضوء النهار الشاحب قد بدد
الظلمات . وأحست بمعدتها خاوية ووجدت في نفسها شهية كبرى
للطعام ، وإذا بأُمها الحنون تمد إليها فنجانا من القهوة الساخنة
ذات الرائحة اللذيذة المنعشة ، فتناولت الفنجان بيديها معا وركزت
عينيها النجلاوين في وجه أُمها البسام ، وتذكرت أنه مألحة ما قال
لها شيخ القرية ذات يوم : « سوف أعطيها مفاتيح الدار ، وسوف
أقلدها جميع الأمور ... » .

القسم الثاني يوميات عامر

اليوم الاول : 20 يناير من الخمسينات

الاسم الذي أعرف به هو عامر أن عامر ، واذا شئت فقل : عامر ابن عامر ، وهذه التسمية كافية لكي تميزني عن سائر من سمي باسم عامر في القرية . وذلك ان اسم الوالد عندنا يخالف دائما اسم ولده ، فللاب اذن اسمه الشخصي الذي يعرف به وللابن اسم آخر . وعلى وجه العموم ، فان الطفل يسمى باسم جده أو أحد أعمامه أو اخوته ممن ماتوا . وبما أن أبي كان قد توفي حينما ولدت ، فقد أعطيت اسمه لأكون خلفه في هذه الحياة ... وعلى هذا فكل من يريد أن يقابلني في ايغيل نزمان ما عليه الا أن يسأل عن « عامر بن عامر » ، ففي الحين يدرك الناس من هو المقصود ويرشدونه الى حيث أنا موجود ...

أمي فرنسية ، وقد جاءت الى هذه المنطقة من بلادنا مع واندي . ومنذ ذلك الحين لم تغادرها اطلاقا . وهي التي ربّنتي ، وأنا ابنتها الوحيد . والخلاصة ان لي اسمين لا اسما واحدا ، وأما لا كغيرها من الأمهات ، كما أنني صرت يتيما حينما كنت لا أزال في بطن أمي .

كل هذه الأمور لا تخلو من الغرابة . غير أن هناك ما هو أغرب منها ، لأنني منذ البارحة صرت يتيما تماما .. صرت وحيدا في هذه الدنيا تماما . لقد لفظت أُمِّي أنفاسها الأخيرة في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلا — عند الساعة الحادية عشرة . والدقيقة السابعة عشرة بالضبط — وأنا الآن راجع من مقبرة تازروت . انتهى كل شيء .. دفناها تحت التراب . وها أنا أعود الى الدار .. وبعد ما دخلت أغلقت الباب الكبير وقررت أن لا أفتحه لأحد ، أو .. من يدري ، ربما سأفتحه بعد حين

حينما جمع رفاقي المعاول والمجارف ألقيت على ظهري الزريبة الحراء السيكة ، وغادرت المكان على عجل . وبطبيعة الحال سلت الى أحد أبناء العم الدراهم المخصصة للمرابطين : وما عليهم الا أن يتقاسموها فيما بينهم . وأدرك الناس ما أعانيه من الحزن والأسى ففسحوا لي طريق المرور . وقد أثار غيظي أحدهم واسمه بشير ، لأنه قطع الصمت وقال :

— يا فاس .. بنتي لا تزال في المستشفى ولا بد من أن تعود الآن من الجزائر لأنها شفيت من مرضها ... وكنت على يقين بأنها ستشفى . المشكلة هو رجوعها من الجزائر ، اذ ما معي دراهم لأدفع تكاليف السفر .

فأجابه بعض الحاضرين :

— كان ينبغي أن تختار وقتا أنسب من هذا للسؤال ...

— لم أجد يا ناس أحسن من هذا الوقت ، فأنتم اليوم
مجتمعون ، وإذا انفض الاجتماع فأين سأجدكم ؟ .. وأنتم تعرفون
جيذا بأنني أعسى ...

أليس من العيب عليه أن يستغل هذه الفرصة وأن يتناول الكلمة
في نفس اللحظة التي انتهوا فيها من ملء الحفرة بالتراب وفسحوا
لي طريق المرور ؟ ويا ليتة حصل منهم على شيء ... لأن كاتب
البلدية قاطعه بخشونة :

— ابتك لا تزال في الجزائر ولكنها شفيت من المرض . كن على
يقين انها ستعود اليك قريباً يا شيخ . وهناك موضوع آخر يا سادة:
لدينا كمية من الطوابع الخيرية لمكافحة السل ، لدينا منها مجموعة
ولا بد من شرائها ، فأنتم تعرفون ان ميزانية المركز البلدي ليست
كثراً لا ينقص ولا ينفذ .. كونوا عاقلين أيها السادة واشتروا هذه
الطوابع ..

وسمعت بعض الناس يفقهون استخفافاً به فسرني ذلك . ولا
أدري ماذا حصل بعدئذ ، ولا يهمني أن أعرف ، فقد قررت أن لا
أدفع فلساً لبشير . أما الطوابع التي حثنا الكاتب على شرائها ،
فليصقها اذا شاء على ظروف رسائله .

ثم انني ساخط على كل واحد منهم لشيء آخر ، وهو أنهم
ما جاءوا الا لقضاء الوقت في التهمك . فحينما أطلع موكب الجنازة

وصرنا في الطريق ، كنت في آخر الموكب تقريبا ، وسمعت الناس يتبادلون مختلف الأحاديث بدون مراعاة لشعوري ، ولم يكن يردد الشهادة (لا اله الا الله) الا حملة النعش ، ولكن بصوت منخفض لا يكاد يسمع ، وأظن أنهم ما جاءوا الا للتجول ، كأنهم خرجوا في نزهة . وبادرني أحدهم ، وكان بجواري ، فقال لي :

— الطقس ليس رديئا ، بل هو رائع بالنسبة لشهر يناير .
فأجبته باقتضاب :

— نعم .
فارتبك في كلامه لا يدري ما يقول :

— متأسف ... كنت أظن ...

وارتسمت على وجهه آيات الحزن والبلادة . وأعرضت عنه غير مكترث به . ورأيت أن ألتحق بحملة النعش ، وكلهم من الشبان ، ومن رفاقي ، وهم يتناوبون على حملة ، فوجدتهم بالفعل ينتظروني ، وما ان لحقت بهم حتى قال لي أحدهم مستكرا :

— أرايت هؤلاء الشيوخ المرابطين ؟ .. ألم تدفع لهم الدراهم ؟
متى نسمع صوتهم ؟ .

وأدركت ان رفيقي على حق فصحت بلهجة فيها شيء من السخرية ، وأنا أبتسم ابتسامة خفيفة :

— يا مشايخ .. نحن في أشد الشوق لسماعكم .

وما كدت ألتلفظ بهذه العبارة حتى انطلقت ألسنتهم المعقودة .
وأخذوا يرتلون الآيات البيّنات . لقد أحسنت صنعا حينما ذكرتهم
بواجبهم ولم أترك لهم الفرصة لاختلاس المال مني بدون مقابل ..
وحسبت أن الأمور آيلة للتحسن ولكن خاب ظنّي ..
وربما كنت ممن يغتاط لأتفه الأشياء ، اذ لاحظت أن رفاقي
أساءوا الأدب معي ، فما أعجبنى منهم تزامهم على أخذ المعول
والمجرفة ورميهم التراب بقوة ، وضحكهم ، كلما صعب على أحدهم
أن يملأ المجرفة بالتراب . لا والله ، ليس في طريقتهم تلك شيء
من اللياقة والحياء . ومما زادني حزنا أنني أنا وحدي أعير الانتباه
لهذه الأشياء . وما كان مني في آخر الأمر إلا أن شعرت بأن موقعي
يبعث على السخرية وأن المصيبة التي حلت بي لا يشاركني فيها
أحد من رفاقي ، مما جعلني أستاذ منهم . غير أن أحدهم ممن كان
أكثرهم ثروة ، اقترب مني ثم صافحني طويلا خفية عن الأنظار ،
تحت البرنوس . واغرورقت عيناه بالدموع ، وما كدت أراه على
تلك الحال حتى توقفت عن البكاء . ثم فكرت في نفسي وقلت بأن
المرء لا ينبغي أن ينقص حياته حزنا على من مات . وكل ما علي
الآن هو أداء الواجب . وطلبت منهم أن يهيلوا على القبر التراب
وأن يملأوا جميع الفراغات تحت الأحجار .

لم تترك تلك المصافحة أثرا كبيرا في نفسي . ولعله أراد بها أن
يعتذر عما بدر منه . وأنا الآن أستطيع أن أتصور ما أراد أن يعبر
عنه بتلك المصافحة . لقد أراد أن يقول لي :

« طيب... نحن نعرف أن والدتك ماتت. ولكن أنت لا تزال على
قيد الحياة . أو تحسب أن القيامة قامت بموتها ؟.. كلا ! لا تفكر

فيها بعد اليوم . لقد أودعناها في أسفل هذه الحفرة ونحن الآن فوقها ندوس هذه التربة .. سترى بنفسك بعد أيام قلائل انه لا فرق بين من له أم ومن كان يتيما » .

وبالفعل ، لاحظت ذلك ووجدت بأنه لا فرق ... وأنا الآن أتحدى الموت .. فما له الي من سبيل ، الا اذا غلبني بالحيلة والغدر . أنا لا أستطيع أن أتصور نفسي ميتا كما ماتت أمي ، ولا أرى ما يدعو الي أن أستخرج من وفاتها أية عبرة أتعظ بها . ومع ذلك فبودي لو أستطيع أن أفكر في الأمر بوضوح ، وأن أتعمق في النظر والتأمل ، كما يفعل الناس في مثل هذه الظروف . ولكن ، لعله من الأفضل أن ألزم الصمت ، لأن جميع الناس يعرفون ما معنى وفاة الأم ، وذلك ما قصده رفيقي حينما جاء ليصافحني ، فكأنه أراد أن يقول : « كل واحد منا كانت له أم » . انه قد فقد أمه هو أيضا ، وما نسيت ذلك ، بل فكرت في هذا الأمر بمجرد أن رأيته مقبلا علي .

حينما كنت صغيرا ، كنت دائما أشعر بعطف كبير علي كل من يفقد أهله . أما الآن فأنا لاحظ بأني كنت علي خطأ . وفي الواقع لا أرى من لزوم لعطف الناس ... وبطبيعة الحال ، فقد أخذت أنا أيضا نصيبي من ذلك العطف ، وكنت مسرورا أن أجدهم يعطفون علي وأن أسمعهم يقولون :

— كن واثقا يا عميروش أننا نتألم لمصائبك . ولكن لا داعي للحزن ما دمت قد أديت واجبك . الموت شيء لا بد منه واذا جاء الأجل فلا يمكن لك أن تخلصها منه ...

— ما من أم يا عميرش الا وتتمنى أن يرزقها الله بأمثالك من
الشبان ...

— أمك يا ولدي ، قد فارقتك قريرة العين وستبارك عملك في
دار الآخرة . انها لم تخلف من بعدها بنتا ليس لها من يحميها ،
بل تركت رجلا ذكيا يستطيع أن يعيش في هناء . لا تخف يا عامر
لأنك نلت رضاها ، ونلت منها دعوة الخير ...

كل هذا سمعته البارحة من الناس حينما كانوا يتوافدون الى
داري للتعزية . وظهرت لهم كأني قد خرجت من تجربة قاسية
وتغلبت على الحزن فهناؤني على صبري ، وأضافوا غير قليل من
عبارات المدح والثناء على المرحومة أمي التي كانت مسجاة على
الأرض في وسط الدار . ولك أن تتصورها على تلك الحال
معروضة لمدة ساعات أمام أنظار الناس كأنها في متحف .

. ومن الذين كلفوا أنفسهم مشقة المجيء للتعزية أحد أبناء عمي
وهو معلم وممن أقدرهم أحسن التقدير . وبما أن المناسبة تقتضي
منه أن يتكلم ، فقد قال لي :

— تصور انني علمت مساء البارحة بأن أحد زملائي مات فجأة .
وهو شخص أعرفه جيدا ، بل اعتبره من أعز الاصدقاء . ولم يكن
أحد يتوقع موته ، فقد تمدد على فراشه لينام ، ونام نومه
الاخيرة . وحينما جاءت زوجته لتأوي هي أيضا الى الفراش ، لم
يبق فيه حيا سوى السجارة التي كانت لا تزال تحترق شيئا
فشيئا بين أصابعه . وأصيب كل من في القرية بوجوم شديد ، لأن

المرحوم يستمتع بصحة جيدة ، وكان معلما ممتازا . وأنا متأكد أنه قبل وفاته لم يكن يفكر سوى في ما يفكر فيه أمثاله من المعلمين الممتازين ، كالتوزيع الشهري للسواد ، والتحضير اليومي للدروس ، وتصحيح الدفاتر ، واحتمال زيارة المفتش . وما كان يدري أن أجله قد حان ...

لم يكن لهذه القصة علاقة كبيرة بسوت امي . غير أن ابن عدي استطاع أن يثير اهتمامي ...

وامي كذلك لم تكن في الشهر المنصرم تشعر بأي قلق على حياتها ، ولم يدر بخلدي قط أن الموت يهددها . ثم لزمتم الفراش وأخذت ترفض ما يقدم لها من الطعام . وكانت تتألم من شيء أشبه ما يكون بكرة صلبة تحس بها في وسط بطنها تارة ، وفي جنبها الايمن تارة أخرى ، وكانت هذه الكرة تؤلمها أشد الألم . وتخنق أنفاسها وتسنعها من تناول الطعام . وعندما جاء الطبيب قلت له مهونا الأمر :

— لا بأس عليها يا دكتور ، وكل ما في الأمر أن امي قد تحتاج الى مسهل ، لأنك ستري بنفسك بأنها تعاني ألما في المعدة .. حالتها ستتحسن بمجرد أن تراك . هل فهمت ما أعني ؟ .. لأنها مثلك فرنسية .

— نعم ، فهمت قصدك ، وأنا سمعت بها . هل أنت ولدها ؟

— ولدها الوحيد يا دكتور ، وستكون مسرورة برؤيتك .

— طيب ، هيا بنا . لن يكون الا الخير ..

وحينما وصلنا الى الدار تجاذبنا معه أطراف الحديث ، وحصلنا منه على بعض الأدوية ، وكان قد جلبها معه في حقيبة صغيرة اعتاد أن يحضرها معه كلما جاء الى القرية . والناس عندنا مسرورون من هذا الفحص الطبي ومن هذه المعالجة في عين المكان ، ومن الحصول على الأدوية من غير أن يتكلفوا في ذلك مشقة السفر . وكنت أظن أن المشكلة انتهت ، وانه ما بقي على أُمي الا أن تتماثل للشفاء . ومازحتها قليلا لأنها تناولت في الحين نصف الأقراص التي أوصى بها الطبيب لليوم كله .

لقد كانت مستعجلة للتخلص من تلك الأدوية . وها هي ذي قد استراحت منها ، ولكن بعد شهر من العذاب . ولم أتخل عنها ، ولم أفرط فيها ، وكل الناس يعرفون ذلك ، بما فيهم الطبيب . وكنت موزعا بين الامل في شفائها والخوف من فقدها . ولعل هذا الكلام قد يبدو ساذجا ، ومع هذا فان الامل في شفائها ملا نفسي بالارتياح ، لأنه أمل قوي ثابت لا يتزعزع ، وكان لي خير معين لتحمل المشاق ، والسهر والتضحية . غير أن الخوف من فقدها أخذ يعذبني ويضعف معنوياتي .. ان الخواطر التي كانت تراود ذهني لا أستطيع اليوم أن أعبر عنها . وكنت مثلا أقول في نفسي :

— ما الفائدة من تبذير الدراهم جزافا ؟ ما الفائدة من ذلك ما دامت ستموت لا محالة ؟ لماذا لا تكف عن طلب بعض الأشياء التي لا أكاد أحضرها من أجلها حتى ترفضها ؟ لماذا — وقد أصبحت قاب قوسين من الموت — لا تترقب بي قليلا ولا تشفق علي ؟ ما أشد أنايتها وما أكثر تشبثها بالحياة ! انها لا تريد أن تموت ،

ما في ذلك شك . والدليل على ذلك أن بريق الأمل كان يشرق في عينيها عندما أكذب عليها لأطمئنها على صحتها .

لقد أصبحت أمي في حالة يرثى لها . وأحسبها لم تلاحظ بأنني أكاد أهلك من أجلاها : ولم أعد أنام ولم أعد أتناول شيئا من الطعام ، وأن ما عندي من المال القليل قد نفذ . لماذا كل هذا التبذير اذن : ما دامت ستسوت كغيره من الناس ؟ .. ان ملامح وجهي تكشف أحيانا عن أشياء لا يسكن ان ينخدع بها أحد ، حتى المريض المحتضر . وكانت أمي حينئذ تنفهم موقعي فأراها قد صارت امرأة تستحق الإعجاب . اذ ليس في نظراتها شيء من الخوف ، أو المسكنة أو التويخ . بل كانت نظراتها مشرقة طاهرة تعبر لي عن مكنون صدرها بهدوء ومساينة .

ودام ذلك شهرا . شهرا كاملا . ولم يسمع الناس الا في اللحظة الاخيرة بأنها تعاني سكرات الموت . وكانوا يعتقدون بأنها مريضة كما يمرض جميع الناس . وأنها لن تلبث حتى تتسائل للشفاء . غير انها لم تشف من دائها الى ان جاءهم خبر وفاتها . ولم يأخذوا في السؤال عن صحتها والاستفسار عن أحوالها الا في الأيام الأربعة الأخيرة . ولم يساعدني في ساعة المحنة أحد سوى ذهبية وأما .. أما الآخرون ...

والشيء الذي لم أستطع ان اتحمله هو تمثك الليالي البيضاء التي قضيتها ساهرا لوحدي مع أمي المريضة ... ومن الغريب أن يقال عن تلك الليالي بأنها بيضاء اذ ليس لها من ابيض سوى الشعلة

الشاحبة الصغيرة المتراقصة التي تنفث البترول وتملأ مناخيري
 بالدخان ، لأنني كنت أضع المصباح على الأرض بالقرب من
 الوسادة ، وتحت أنفي تماما .. ومثلها في الشحوب ، ذلك الوجه
 المسكين الذي ينوب شيئا فشيئا كأنه قناع من الشمع ... ومثلها
 في الشحوب أيضا ، ذلك الوجه الشارد النظرات ، المتوتر
 الأعصاب ، المبتسم تارة والمتجهم تارة أخرى ... انه وجهي أنا .
 وكل ما عدا ذلك لا أرى منه شيئا ، لأنه قد اختفى في الظلال :
 فالثياب المعلقة على الجدران تبدو كأنها أشباح ، وخوابي الحبوب
 أراها قد دبت فيها الحياة فرزت علي في سخرية عيونها (1) المستديرة ،
 وأخشاب السقف الغليظة قد استحالت الى وحوش رهيبة . وخيل
 لي أن عشرات المتفرجين يطلون من خلال مصراعي الباب وينشغلون
 بتعذيبي . لقد كنت أشعر أن هالة من الضياء الأصفر قد أهدقت
 بي ، أنا وأمي .. وان هي الا هالة الموت الشاحبة . ما أفزع تلك
 اللحظات ، وما أشد الخوف الذي يعتريني حين تغفو أُمي ، أرى
 صدرها يرتفع كأنه يقاوم ثقلا باهظا يكاد يسحقه ، فأحس بذلك
 الثقل يحني كتفي ، وأشعر أن ماردا جبارا يخيم علينا معا .. وكنت
 أحيانا أفقد الوعي وأستسلم للنوم وأفا في مكاني قابع . وحينئذ
 كنت أرى نفس الحلم المزعج الذي تراه أُمي ، لأنني لا أكاد
 أتنفص صاحيا من سكرة النوم حتى أجد أُمي قد استيقظت هي
 أيضا من سباتها فتفتح عينيها بمشقة وتناديني بالهمس فتبادل
 النظرات في صمت ، اذ ليس هناك ما يستحق أن يقال .

(1) المقصود بالنعيمون هنا هو الفوهة المستديرة الموجودة في اسفل الخابية واعلاها ،
 ومنها يؤخذ الحب (الترجمة) .

ولكن ما الفائدة من الحديث عن تلك الليالي ؟ كفايني منها ما عانيت . سوف أتحدث الآن عن موضوع آخر : حينما قررت ذهبية أن تجيء الى الدار لكي تقاسمني مشقة السهر ؛ لم أكن أتوقع منها ذلك أبدا . انها بكل تأكيد بنت طيبة ، ووجودها معنا قد أثر في أمي تأثيرا جعلها تذرف آخر دموعها في هذه الحياة . الا أنني رأيت بالاتفاق مع أمي أن أمنعها من المجيء وحدها لأنها قد تعرض سمعتها للقليل والقال . وعلى كل حال فلها فضل كبير علينا لأنها سنت سنة حسنة فأخذت جاراتنا من العجائز يأتين كل ليلة للسهر في دارنا . ودام ذلك أربعة ليال بما فيها الليلة الاخيرة ، ثم انتهى كل شيء ، وقضي الأمر الذي ليس منه مفر ..

لأول مرة سأنام اليوم وحدي هنا في نفس المكان الذي نامت فيه كل يوم لمدة شهر كامل .. في نفس المكان الذي نقلوها منه منذ حين . لم أعد أشعر بالخوف . وما الفائدة من الخوف ؟ أنا اليوم راض عن نفسي كل الرضى ما عدا اللحظة التي شعرت فيها بشيء من الانزعاج عندما كنا في المقبرة نستعد للانصراف منها . وقد ظن الناس حينما رأوني أغادر المكان انني أردت أن أبكي لوحدي . ولكن هذا غير صحيح فلم تقطر ولا دموع واحدة من عيني .

والحقيقة أن كل ما أريده هو أن اكتب وأن أتحدث عن كل شيء : عن حياتي وعن حياتها . وأن أقول للناس بأن أمي . وان غابت عن الانظار ؛ الا أنها لا تزال هنا تحوم من حوالى كأنها قد حصلت في بدني لسكي تتحدث بلسماني

ونحسني أن أكتب اليوميات . لابد اذن من أن أقول كل شيء ، كل شيء بدون استثناء . ولكن ، لماذا لم تعد الكلمات تتوارد الى ذهني ؟ ولماذا أحس برأسي يكاد ينفجر ؟ ..

سأفتح الباب على كل حال ، ومن يدري ، فلعل ذهبية ستاتي .

* * *

في بعض الاحيان تتضح الامور في ذهني وتشرق اشراقا يكاد يسبب لي الحيرة ، فأجدي مرهف الشعور ، سريع الفهم والملاحظة ، ثم لا تلبث معالم الاشياء أن تنطمس أمام ناظري ، فلا أرى سوى نقطة تتراقص أمام عيني ، وتظل كذلك تتراقص بدون انقطاع .

وها أنا اليوم أمر بتلك اللحظات من الاشراق . فلا بد من الاستفادة منها في النظر والتأمل .. كل شيء يبدو لي في منتهى البساطة وما من شيء معقد أبدا ، فالطريق ممتد الى الامام وسأمضي فيه بدون أن أتساءل عن الهدف ، لان جميع من أحبهم سلكوه من قبلي : جدتي وأمي وشابحة وغيرهن ، فما الداعي للحيرة اذن ؟ سأمضي فيه بدون تردد وسأذكر دائما أن هؤلاء الأحباب الثلاثة : جدتي وشابحة وأمي ، فارقوا الحياة ، وسيأتي بعد ذلك دوري .. ودور ذهبية .

في الشهر المنصرم ماتت احدى العانسات من بيت آيت حموش في لوبة حادة من الغضب ، وكانت هي أيضا تعرف أن ساعتها الأخيرة قد اغتربت ، وكانت أختها الصغيرة تترقب موتها بفارغ الصبر لكي تستولي على ما تتركه من ثياب . غير أن المريضة لم

تخف عليها نوايا أختها ، فكانت تتبادل معها الشتائم وتثير معها ضجة كبيرة ، فيهرع الناس للتفرج على ذلك المشهد الغريب . وذات يوم خارت قوى هذه البنت العانس فما استطاعت أن تتشاجر معها ولا أن تصرخ ولم يبق لها من سلاح سوى النظرة الشزراء ، فوضعت في تلك النظرة كل ما في قلبها من حقد دفين . على أن أختها كانت تتحداها فتأخذ الثوب تدو الآخر . وتختال به أمام هذه المرأة المسكينة . فتتهجر الدموع من عينيها ساخنة غزيرة ... ويتدخل الأهل أحيانا لحمايتها . ولكن بدون حماس . وفي صبيحة يوم من الايام اتتبتها نوبة من الغضب فأصبح جسدها يابساً كالحجر اذ خارت قواها حين أرادت أن تقوم من مكانها لتدافع عن نفسها ، فما كان منها الا أن لفظت أنفاسها الأخيرة .

وحينما سمعنا نحن الشبان بهذا الخبر جعلنا منه موضوعاً للتهكم والمزاح ، وضعكنا لحماقة هذه المرأة التي أبت أن تسلم ثيابها ما دامت على قيد الحياة . ولعلها ظنت بأنها ستكون في حاجة اليها في الآخرة ، وأن الموت لا يسكن أن يحرمها منها ... أو ربما قالت في نفسها بأن أختها غير معذورة حينما أخذت تتحداها وتستولي على الثياب التي هي ملك لها .

وإذا أمعن الانسان النظر في هذه الحادثة فانه سيجد بأن الموقف الذي اتخذته هذه البنت المسكينة هو الموقف الذي ينبغي أن يتخذه كل واحد منا في لحظاته الأخيرة . اذ يجب على الانسان أن يعيش وأن يتستع بالحياة الى آخر رمق ، وليأت الموت من بعد ذلك متى يشاء .

اليوم الثاني : 21 يناير من الخمسينات

البارحة نمت نوما عميقا .. نمت وحدي في الدار . كنت متعبا جدا ، وبقي الباب مفتوحا لأنني كنت أنتظر ذهبية : يا للحماقة ! ليس مبعث هذا الامل السخيف سوى رغبة في نفسي طائشة . وتوقفت عن الكتابة وقلت في نفسي : لا بد أنها ستأتي . وتركت الأوراق فوق الصندوق وتسددت على الأغصان بعد أن فرشتها على الأرض ، وأغمضت عيني في الحين . وعندما تطلعت الى المرأة في هذا الصباح وجدت بأن وجهي متورم ، ثم خرجت أحت الخطى نحو المقهى حيث مكثت طوال النهار ...

المطر يهطل منذ أكثر من ساعة ، والطقس بارد وأنا أتمنى أن يستمر المطر في التهطل ، وأن يبقى الطقس باردا الى الصباح . وقربت الصندوق من الموقد وقبعت أمامه لكي أدفيء ظهري ..

سيان عندي أن أقضي الليل هنا أو أتقل الى أي مكان آخر من العالم ، الى جزيرة خالية أو الى غرفة حقيرة في إحدى المدن الكبرى ... الى جنة النعيم ، أو الى عذاب الجحيم . وعندما يحترق كل ما في المصباح من بترول ، سوف أتصور نفسي كأنني

انتقلت الى القبر ، ودخلته غير هياب ، لأنني على يقين بأن ملاك الموت لن يزعجني في عزلي وانفرادي .

ومهما يكن من أمر ، فعدا تشرق الشمس وتستيقظ القرية كما تعودت أن تستيقظ في الشتاء ، وتزيج عن نفسها جو الخمول الكثيف الذي يخيم عليها حين ينزل البرد الشديد . سيبدأ النهار كالعادة بصياح الديك (وبالمناسبة ، فلا بد من أن أخلق أنفاسه ذات يوم) ثم يأخذ صبيان موح والي في الصراخ ، وأسمع صوت أمه المرتمش وهي تصلي وتسلم على سيدنا محمد . (يا لها من عجوز لا ينقطع لها أنين !) ، وأخيرا ستنتفتح بعض الابواب وتنفلق أخرى وينهض الجيران ويخرج بعضهم ويتقابلون في الطريق ويتبادلون تحية الصباح ويسير بعضهم وراء بعض في عثمات الفجر ... انهم يحشون الخطى لقضاء الحاجة والاستنجاء ، وبعدئذ يؤدي بعضهم فريضة الصلاة ، بينما يعود آخرون لتدفئة أرجلهم في انتظار فنجان القهوة . وهكذا يبدأ الصباح حزينا باردا في أغلب البيوت ، اذ لابد من اسكات الاطفال باستعمال الشدة معهم ، ولابد من تبادل العبارات اللاذعة ولابد من النفخ في الحطب الاخضر الذي لا تندلع فيه النار الا بعد مشقة ... سيقبل كل واحد وبدنه يقشعر ، سيقبل على الجرة الباردة كالصقيع ، ليصب منها الماء ويلبل به وجهه ويديه ، وما بقي عليه بعد ذلك الا أن يتفأل ويسعى في الارض ويضع نصب عينيه مشروعه اليومي لكي يعمل ويكد ، وحينئذ يكون قد استيقظ من النوم تماما واستعد لاداء دوره في مهزلة الحياة .

المشكلة التي أواجهها الآن هي أنه لا بد من اتخاذ قرار : فإما أن أواصل دوري في هذه المهزلة ، وإما أن أضع له حدا .. ان موقعي بسيط جدا، وذلك أن الموضوع يتعلق بمصري أنا، ولذلك أتساءل : ماذا تراني سأفعل الآن ؟ والواقع أنني لست في حيرة من أمري ، بل أعرف تماما ماذا سأفعل. وأنا في الواقع أكتب هذه الصفحات لأبرر موقعي ، أو بالأحرى لأعبر عما يختلج في نفسي . أما الناس فلا يهتمني أن أعرف رأيهم ، لأنني أريد أن أفهم نفسي وأن أحيط بالموضوع من جميع جوانبه وأن أوضحه على هذه الأوراق حتى لا يفلت مني أبدا . وحينما أنتهي من شرح الموضوع ونسخه على هذه الأوراق فأنت لا شك، يا أماء تعلمين ماذا سأفعل.. وما عليك إذن الا الصبر .

أود أولا أن أبدأ من البداية وأن أتحدث بتعقل عن جميع الامور التي تخصني وأن أكون موضوعيا في كلامي . أريد أن أشرح لماذا أرفض هذه الحياة ولماذا سرت منذ البارحة أصرخ في وجهها ساخطا مستكرا . غير أنني أشعر برأسي يغلي غليان القدر ، وبفقاعات الهواء تتولد فيه وتنفجر بدون انقطاع . وكل واحدة من تلك الفقاعات ان هي في الواقع الا عنصر من عناصر الموضوع الذي أحاول عبثا أن أمسك به قبل أن يفلت، وأحس به يكاد ينفجر في رأسي ويبعث الاضطراب في مخي ويشوش بصري ويتركني بعد ذلك خائر القوى .

لقد انتهى الامر بأمي الى اعتناق الاسلام في قرينتنا . ولعلها خاتمة حسنة بالنسبة لامرأة فرنسية تخلت عن عاداتها وتبنت

التقاليد المحلية ، ولذلك لم ير شيوخ المرابطين أي مانع ليشرفوها بالحضور في تشييع جنازتها . الويل لهم من قوم لا يصلحون ا فكلما سنحت أمثال هذه المناسبات كالجنائز أو غيرها فانهم يشعرون أن فضلهم علينا كبير . وعلى كل حال فنحن واياهم على قدم المساواة . ولا بد من أن يسود بيننا روح التفاهم . وما قلته عنهم لا ينبغي أن يؤخذ على علاته لأنني في الواقع لا أحمل لهم الحقد في نفسي ، بل أنا لا أحمل الحقد لحد . ولكن ... هذه هي الحقيقة ولا بد من التصريح بها .

كنت في وقت من الأوقات آكن الحقد الصبيح الناس ، ويرجع ذلك الى عهد بعيد ، وبقي معي ذلك الحقد مدة طويلة ، ومبعثه أن أترابي من الاطفال ، كانوا ينادونني « ولد الرلومية » كما لو كنت بدون اسم أعرف به . وجدتي هي أول من اغتاطت للامر حينما رأت أن الرجال والنساء أخذوا يقلدون الاطفال وأنهم جميعا مصرون على أن لا يذكروا اسم والدي علمر واسمي أنا عامر ، وكأنهم يريدون أن يندثر هذا الاسم تماما وأن لا يبقى له أثر في العائلة . وذات يوم قالت لهم :

— اعلموا يا ناس أن هذا الطفل هو ابن عامر ، والويل لمن ينسى ذلك . انه عامر بن عامر ، من بيت آيت العربي ، بيت الحسب والنسب ، فاعرفوا اذن قدرنا لكي نعرف قدركم .. وأنت يا حمار ، ارفع رأسك ودافع عن نفسك ا سترى أنهم لن يسخروا منك اذا ضربت وشتمت وبصقت في وجوههم .

وهكذا فرضت اسم عامر على الناس ، و لا أعتقد أن أحدا منهم ينازعني فيه الآن . وأنا على يقين أنهم حينما يتحدثون عني في غيابي يقولون « عامر بن عامر » وليس « ولد الرومية » . وأنا راض عن هذه التسمية لأنها تشير الى أصلي من جهة الاب لا من جهة الام .

ان الصورة التي بقيت منذ عهد الطفولة راسخة في ذهني عن جدتي ، هي صورة امرأة عابسة الوجه ، وكلما واثتها الفرصة ، أذاقت الناس ألوانا من لسانها السليط . وكنت وأنا صغير ، أحب أن أراها في حالة الغضب وأن أسمعها تسب وتشتتم . وعندما أعود من النادي أو من المدرسة لأشكو لها داعم العينين ما لاني من الضرب على يد طفل أكبر مني سنا ، أو ما لحقني من أهالة من طرف رجل أو امرأة ، كانت جدتي تسمعي الكلمات التي تشفي قلبي الجريح فأمسح دموعي . الا أن أمي كانت تبكي ، فتقول لها جدتي :

— انهم يستضعفونه لأنه يتيم لا أب له يدافع عنه ، ولكنه رجل ولن يكون جباناً مثلهم .. البكاء ليس من شيم الرجال ، بل هو من شيم البنات .. هل فهمت يا عميروش ؟

طبعا فهمت . وفي الواقع ما ذكرت هذا الكلام الا لكي أقول بأنني بدأت منذ الصغر أفهم نفسيات الناس عندي . وأنا اليوم أعرفهم جيدا حتى إنني صرت لا أحمل الحقد لأحد ، لا للرابطين ولا لغيرهم . والمثل عندنا يقول : « ما من امرئة من القمح الا

وفيها نفايات (1) « فما أصدق هذا المثل ! بل أنا ميال للاعتقاد بأنه لا يوجد في البيدر الا أكوام من النفايات وان الثور على شيء من القمح فيها أمر نادر . وكذلك الناس : في كل جماعة ينذر أن تقع على رجل صالح . ان ذكرياتي عن مرحلة الطفولة ليست واضحة في ذهني تمام الوضوح ، ولذلك أشك في صحة الاحكام التي كنت أطلقها ، وفي معرفتي آنذاك للامور حق المعرفة ، وفي تقديري للناس حق قدرهم .

لقد كنت دائما أسمع من يقول في عائلتنا بأن جميع الناس يكرهوننا ، وأنهم ينوون بنا شرا ، وان كانوا لا يتجاسرون على ذلك . وهذا الامر أصبح بالنسبة لجدي حقيقة ثابتة لا مراء فيها . أما أنا فقد كنت أرى في هذه الكراهية شيئا طبيعيا لا يحتاج الى أي برهان ولا أي دليل . كنت أنظر الى هذه العداوة كما أنظر الى الظواهر الطبيعية ، كالسماء حين تتلبد بالغيوم ، والاشجار حين تسقط أوراقها ، والأجسام اذ تهوي بها الجاذبية الى الارض، والمقادير اذ تقذف بالناس الى الهلاك . ما هذه العداوة اذن الا قانون من القوانين الطبيعية التي لا بد من تحملها والصبر عليها . وأنا أتساءل اليوم : هل كنا — ونحن نظن السوء بالناس — على صواب أو على خطأ ؟ ... ربما كنا على خطأ وعلى صواب في نفس الوقت ...

لقد تركت مخاوف الطفولة في نفسي أثرا لا يمحي ... فما أشد تلك الأيام ، وما أقساها ! كنت اذا خرجت من الدار الى حيث

1 - مثل امازيغي، ونصة باللفظ امازيغي : «كل ثير شت ذكس امرفا» . (الترجم).

يلعب الاطفال : كنت لا أجد من يحميني سوى جدتي . الا أنها لا تأتي متوكئة علي عكازها لجدتي الا بعد فوات الأوان ، فتمسكني من يدي وتأخذني معها الى الدار لتزيح عن قلبي الأسى . أما أقراني من الاطفال فقد كانوا دائما يجدون من يشجعهم ويساعدهم لأن جميع الناس يريدون أن أكون مغلوبا . وبالفعل فقد كنت في أغلب الاحيان مغلوبا ، وكم كان ذلك قاسيا على نفسي .

كثيرا ما كنا - ونحن ستة أو نحو ذلك من الاطفال الصغار - نجتمع للعب في الطريق المليء بالفبار والتراب ، فلا يلبث أن يأتي طفل أكبر منا سنا ويفسد علينا اللعب ، ويكون سببا في المخاصمة بيننا فيحرص رفاقي علي قائلا :

— هل أنت خائف من ولد الرومية ؟

— لا ، لست خائفا منه .

— اذن ماذا تنتظر ؟ .. اضربه .

وأنا أعرف سلفا أن الامور ستنتهي الى تلك النتيجة ، لأتي منذ البداية لقمة سائغة لهم . واذا دافعت عن نفسي فان هذا الطفل الأكبر يتدخل فتنهال الضربات علي ، حتى اذا جاءت جدتي ، اذا بهم يشرحون لها بأنني أنا المذنب . وما كنت أقوى على أن أشرح لها كيف انهم ظلموني وتحاموا (1) علي . وقد سيطر على نفسي منذ الصبا خوف يشبه خوف الحيوان المتوحش ،

(1) نحاموا علي : تناصروا واجتمعوا ضدي (المترجم) .

ولم يعد هذا الخوف يبرخني . فأنا أحس به يخنق أنفاسي ويسبب لي مغصا في المعدة ، ويجعل بدني يقشعر ، ويزعج أحلامي في الليل ، فأصرخ كالمجنون . كنت أخاف من الاطفال الكبار ومن الرجال ، وصرت خداعا مأكرا كالحيوان الضعيف الذي يقع على حيوان آخر أضعف منه فلا أشفق على الصغار أبدا . واذا صادفت منهم أحدا بمفرده أجد لذة كبرى في الانتقام منه ، وبهذه الطريقة ألقن الصغار ما أتلقاء من الدروس القاسية من الكبار ، ولا أصارح بذلك أحدا لأنني لم أكن أستطيع أن أتكلم ، لصغر سني ، وإن كنت أفهم كل شيء . لم يكن عمري فيما أعتقد يتجاوز الخامسة أو السادسة لأن جدتي ماتت سنة 1934 . وتغيرت الامور بعد ما دخلت الى المدرسة ، اذ حدث شيء كان فيه خير . وأنا اليوم منهش كيف انني رغم صغري أدركت ذلك الشيء الذي حدث في حياتي ، وأعتقد أن الاطفال ممن لا يتجاوز عمرهم التاسعة أو العاشرة ، قل أن تجد بينهم من يدركه .

كان خصومي من الاطفال يزدادون على مر السنين قوة وبطشا ، وأخذت المشاجرات معهم تزداد شدة . وكثيرا ما رجعت الى الدار ممزق العباءة مصابا بخدش أو عض أو جرح خطير أو بغير ذلك من الاعتداءات التي لا تزال الى حد اليوم تثير حفيظتي وغيظي كلما تذكرتها . وما أنا في نظرهم الا ولد الرومية الحقير ، فليكن اذن كبش الفداء ! ما أنا في نظرهم الا طفل لا يستحق الشفقة والرحمة .

وتمضي الايام واذا بي أتقدم في العمر واذا بالحي يعج بالهسيان واذا بالاطفال الكبار يتركون المدرسة نهائيا ويصيرون شبانا وكهولا ويقطعون البحر الى فرنسا ويعملون في المزارع والحقول وتنقطع أخبارهم عنا نحن الاطفال ، والاحظ ذلك فترتاح له نفسي لأنه يؤذن بأن دوري قد حان لأن أكون قويا مهايا بين من بقي في القرية من الاطفال . وما لبث الصغار أن أخذوا يتوددون الي ويتقربون مني ويخضعون لارادتي . وصرت أنا أيضا أسبب مشاجرات بينهم وأؤدب منهم من أشاء فلا يكون منهم الا أن يشتكوا لامي . لقد أردت أن أتقم لنفسي لأنني ما نسيت أبدا . وما من رذيلة الا واتصفت بها ، كالوقاحة والكذب والسرقة . وكنت أطوف في المقاهي لجمع أعقاب السجائر والمشاركة في الالعاب التي ما لبثت أن مهت فيها ، مثل الدومينو والروندا ولعبة 31 والبولوت ، حتى صرت أربح مع أشر اللاعبين . الا أن الرجال ما كانوا يترفقون بي فلا يكون مني الا أن أبكي وأصرخ وأسب وأرجم بالاحجار كل من يريد أن يعتدي علي ، ثم أنسل هاربا . لقد أدركت أنهم يكرهونني أشد الكراهية ، لذلك قررت أن لا أقيم حسابا لأي واحد منهم ، وصرت لا أخاف من أحد . أما أقراني الذين كانوا في السابق يجدون من طرف الكبار المساندة ويضربونني فقد تغلبت عليهم جميعا وأصبحوا لي خاضعين .

ومنذ ذلك الوقت صار لي أصدقاء .. أصدقاء بآثم معنى الكلمة . وقد حافظوا على عهد الصداقة الى حد اليوم ، واتفقنا

فيما يبتنا على نسيان الاحقاد والضغائن الدنيئة التي لا تجدي
نفعاً . وعلى كل حال فسأعود الى الحديث عن تلك الاحقاد
مرة أخرى .

ان السنوات الاولى من حياتي هي التي كوتتني . أليس كذلك
يا أماء ؟ تكلمي .. أليس كذلك ؟ ألا ترين اني لا أحتاج الى
جدتي كمومة لتحميني من شر الناس ؟ ماتت ولم يعد أحد يسمع
صوتها . وبقيت أنت في هذه القرية .. لماذا بقيت فيها ؟ لولاك
لرحلت عن هذه الديار ولما شقيت بها كما شقيت ، فيا ليتك غادرت
البلاد .

وهكذا بقيت أمني في القرية فلم تبقي لي حرية الاختيار ، وأصبح
لزما علي أن أكون أحد أبناء ايفيل زمان ، وأن أخلص لبلادي
وأن أعتر بأصلي وأن لا أتكر له . لقد حصلت على مكان في هذه
الارض وأنا مصمم على أن أحتفظ به . وان الذين يريدون أن
يتخلصوا مني من أهالي القرية يعرفون ذلك جيدا .. البعض
منهم يريدون بالفعل أن يتخلصوا مني وهؤلاء أكرههم ، وسأبقى
هنا لكي أكون غصة في حلقهم . ولعلهم يقولون في أنفسهم كلما
أبصروني بينهم : « انا لانا الا الصبر » ولا شك انهم كانوا
مسرورين جدا حينما ذهبت الى فرنسا :

« استرحنا من ولد الرومية وتخلصنا منه .. الله يبقيه في بلاد
الكفار ، عند أخواله » .

وبالفعل مكثت هناك أربع سنوات ، وها أنا قد عدت الى البلاد ، عدت اليها لأجد من يقول عني : « ان هذا الشاب لا يشذ عن القاعدة المتبعة عندنا .. سيسافر من حين الى حين الى فرنسا وسيعود منها كما يفعل أمثاله من شبابنا وسيمضي في عادته القديمة من التحدي والتشكيك في عقائدنا والاستهتار بديننا وافساد شبابنا وتضليلهم لأنه هو الذي أصبح يوجههم الى سبل الفساد » .

أنا أعرف أيها الاغبياء أنكم لا ترجبون بي . ولكن الى أين تريدون أن اذهب ؟ هل تعتقدون أن أخوالي الفرنسيين يرجبون بي ؟ أأنتم مخطئون . اسألوا أولادكم ممن كانوا معي في فرنسا فسيخبرونكم عن سيرتي في بلاد « أخوالي » وهل تكبرت على أبناء بلادي .. اسألوهم ، هل رضيت ولو مرة واحدة بالهواذ وكيف كنت أنال حظي من الاهانة على يد السلطات ، وكيف كنت أقاسمهم المعيشة التلسة في الغرفة الحقيمة ، ولقمة العيش المرة في باريس وفي غيرها من المدن . أنا أمقتكم أيها الاغبياء ، ولكن أولادكم اخواني فلطالما استرشدوا بأرائي ، وأنا معهم على وفاق تام ..

لا بد لي قبل أن أنام من أن أسجل هذه الخواطر .. كم الساعة الآن يا ترى ؟ ما عندي ساعة . الهزيع الأول من الليل قد انقضى .. منذ احظات وقعت أحجار على سقف الدار ، فاهتز لها السقف ... لاشك أنها أحجار كبيرة . من أي مكان قذفوها يا ترى ؟ من مكان قريب بكل تأكيد . من باحة الدار

أو من الزقاق ؟ لا أدري .. لقد أرهفت السمع مدة طويلة لعلني
أتبين وقع خطوات ، ولكن لا شيء .. لا شيء سوى الصمت ..
من المحتمل أن تكون هذه الاحجار قد حطمت بعض القراميد ..
يا له من جبان ! لماذا لا يقابلني جهارا ، عوض أن ينهزم خائفا كلما
أبصرني في الطريق ...؟

ها أنت يا أماء تلاحظين أنني صرت — والحمد لله — أشغل
بال الناس . والشخص الذي أشغل باله على وجه الخصوص
تعرفينه جيدا ، وما كان قلبك يطمئن اليه أبدا . انه يضمر لي
الحقد والضعينة . وقصتي معه طويلة ، يكتنفها الغموض والابهام ،
حتى صرت أتساءل هل يصح أن أسميها قصة ، وهي تتلخص في
ما يلي : انه من ناحيته يضمر لي الحقد ، وأنا من ناحيتي أحتقره .
المسألة اذن واضحة ، ولا بد من ايجاد حل لها .

أما الاحجار ، فهو الذي ألقاها فوق السقف ، وأنا أعرف
لماذا فعل ذلك .

اليوم الثالث : 22 يناير من الخمسينات

العقلاء من أهالي قريتنا لا يشعرونني صراحة بأني دخيل عليهم .
وأنا لا أعني أبناء عمي من بيت آيت العربي ، فهؤلاء ليس في
وسعهم أن يتبرأوا مني .. وحتى لو فعلوا ، ما كنت لأكثر
بهم ، لأنهم موصومون الى الابد بوصمة العار ، وأنا في نظرهم
تلك الوصمة .. لا أكثر بهم ولا بغيرهم ممن يقول اذا خلا
بعضهم الى بعض :

« الحمد لله الذي جعلنا من أبناء القبائل وأنعم علينا بنعمة
الاسلام ولجأنا من الكفر » . انهم يتبحجون بكونهم من الشرفاء .
أما أنا فلست في زعمهم من أبناء الحسب والنسب .. ولكن أمثال
مقران وغيره من المرابطين والمتزمتين ليسوا في الحقيقة أفضل
من غيرهم من الناس . أتذكر أنني في احدى السنوات الماضية
لم أؤد فريضة الصيام تحديا لهم ، غير انهم لم يقيموا لذلك
أي اعتبار ، وأدركت في الحين ان ذلك هو بالفعل ما يبحثون عنه
وربما قالوا في أنفسهم :

— ومتى كان أبناء الكفار يصومون ؟ ولو أنه صام ما كان
صيامه ليقبل . ان شهر رمضان ما فرض الا علينا .

وقلت في نفسي :

« سأريهم أنني أحسن منهم » ، وفي السنة الموالية توكلت على الله وصمت رمضان كغيري من الناس ، بل أحسن منهم ، لأنني كنت دائما عندما تتلاقى في النادي ، خاوي البطن ، فارغ الذهن ، ناشف الرق ، بينما كان أمثالي من الشبان يفطرون خلسة ويتظاهرون أمام الناس بالصوم . أما أنا فقد صمت مخلصا لله ، غير أنه لم يصدقني منهم أحد .

ومنذ ذلك الحين أفسدوا نيتي ولم أعد أصوم أبدا . وصرت أنا ومن اتبعني نشكل حزب الشيطان ، ولا نقيم لهم أي وزن فيزيدهم ذلك كراهية لي أنا وحدي .. يا لهؤلاء المساكين ! انهم يظنون ان التزمت الأعمى هو الذي سيخرجهم من الذل والشقاء ... الذل والشقاء . انها نفس العبارات التي يرددها الشيوعيون ، ولكن ، هذه هي الحقيقة المرة . فبلادنا ليس فيها الا الشقاء والذل . أما الاول منهما فقد أصبح واضحا للعيان ولا ينكره أحد . وأما الثاني فلا يزال الكثير منا عنه غافلين . ولكن كيف السبيل الى شرحه لهم وما الفائدة من الشرح ؟

لقد عشت في باريس ، ومما لا شك فيه أنني سأعود إليها ... الا اذا حدث مانع .. فنحن هناك لسنا غافلين عن واقع حالنا . انهم لا يمارسون معنا سياسة التمييز العنصري ، والمجال مفتوح أمامنا في كل مكان .. ولكن أينما استقر بنا المقام في فرنسا فنحن دائما أشقياء ومعذبون في الارض . الناس هناك أشكال وأنواع ،

فمنهم الاغنياء والفقراء ، ومنهم اللصوص والمتسكعون ... أما نحن فلا ننسي الى أية واحدة من هذه الفئات . اننا لا نستحي من واقع حالنا ما دما بالفعل معذيين في الارض .

ومن الناس من ينظر الينا شزرا وما أكثرهم ! ونظرتهم تلك لا تخفى علينا ، فلا نملك معهم الا أن نتظاهر بالعبادة لتزداد نفوسهم غيظا . ومن الناس من يشفق ويعطف علينا . وهؤلاء يضيعون وقتهم معنا لأن عقولهم الضيقة لا يسكن أن تتفهم قضيتنا . وكم أتمنى أن أقول لهم :

« أتم تشفقون علينا . أليس كذلك ؟ اسبحوا لي اذن بنؤال بسيط أيها السادة . لماذا تعطفون علينا نحن الجزائريين بالخصوص ؟ أتراكم تشفقون علينا كما تشفقون على المساكين من لا مأوى لهم . وعلى الأوباش من الناس ؟ ألا فلتعلموا أننا لسنا منهم . فنحن ننسي الى فئة خاصة هي فئة المعذيين في الارض ، ولا أحسبكم تهتسون بأمر هؤلاء . ولتعلموا أيضا أيها السادة أن المعذيين في الارض بشر كسائر الناس . فلا تعتبرونا بينكم كالوباء الذي يجتاح مدينتكم العامرة . اننا بشر ولا نختلف في شيء عن الايطاليين أو سكان منطقة بورجونيا أو سويسرا » .

وهكذا أدركت أن الذين يتظاهرون بأنهم يريدون لنا خيرا . يعتبروننا أخطئ ذاق الله . واليههم أقول : « أنتم ترثون لحالتنا البائسة . ولكن لسنا في حاجة الى شفقتكم المزيفة لأن شعوركم

تجاهنا ينبعث عن فكرة راسخة تشير الاشسزاز . بل هي أشد
وقعا على النفوس من القمع والارهاب » ..

كان أصحابي من اينيل زمان أو من غيرها من القرى يعتزون
بي في فرنسا لأنني لا أنافق ولا أستحي من واقع حالي ، غير
أننا صرنا نتعاطى جميع الموبقات من افطار في رمضان وشرب
للخمر وأكل للحم الخنزير . لقد تحررنا من جميع القيود ما عدا
حقد الفرنسيين علينا ، غير أننا لم نكن نكثر لذلك الحقد
الا كما يكثر الانسان لقطرات المطر عندما تنزل فوق معطفه
الواقى .

وها أنا ذا قد عدت الى البلاد لأجد فيها قوما لا يرجون بي .
وعلى كل حال ، أستطيع هنا أن آخذ حريتي كما أشاء وما من
أحد يتجاسر ليقول لي : « عد الى بلادك يا ييكو » (1) .

انهم لا يرجون بي لسبب بسيط وهو أنني لا أعبا بتقاليدهم
وعاداتهم وطقوسهم التي يريدون أن أخضع لها . وفي جميع
القرى ، سواء هنا في اينيل زمان أو في تاجمونت أو في تاويريت ،
في جميع هذه القرى أو في غيرها ، يوجد شبان مثلي لا يقيمون
لها حسابا لأنهم ذاقوا الأمرين في فرنسا . وعندما رجعوا منها
استفاقوا من غفلتهم وفهموا الأمور على حقيقتها . وليس هذا
بالأمر السهل . وكم أتمنى لو أن أحد الفرنسيين من سكان
باريس يجيء الى قرينتنا ، فلا شك أنه سيدرك الأمور على حقيقتها

1 - يكو : كلمة احتقار بالفرنسية . (المترجم) .

في الحين لأن هذه الاشياء لا يمكن أن تخفى على أحد وخاصة على من تربى في أحضان باريس ، ولأنه سيقارن بين حالتين وسينظر اليهما بعيون ليست عليها غشاوة . أما من أمضى شبابه في هذه البلاد ولم يخرج منها الا بضعة سنين فكيف تريد منه أن يفهم الأمور على حقيقتها ؟ وحينما أنظر الى هؤلاء القوم أتساءل : ألسنت فرنسا من جهة الأم ؟ وهل يمكن لي بين عشية وضحاها أن أنسى ما تعلمته في المدرسة مما أنجزته فرنسا من مشاريع في التربية والقضاء والتقدم العلمي وغير ذلك من المظاهر الحضارية التي جعلتني أعجب بتفوق فرنسا ؟

على أنني عندما سمعت الناس في فرنسا يقولون لي : « عد الى بلادك يا بيكو » ، عندئذ أدركت أن لي وطناً وأنني سأعتبر دائماً أجنبياً في غيره من الاوطان . وقد غفلت عن هذه الحقيقة الخفية عشرين سنة ، وحينما اتبعت من غفلتي صرت لا أطيق صبراً على بلادي ، وشعرت برغبة جامحة لزيارتها والتمتع بخيراتها والمشى فوق ترابها واستنشاق هوائها الساخن والتعرض لأشعة شمسها المحرقة والسير في دروبها المغبرة والتهام فواكهها اللذيذة ومغازلة بناتها السر .

وهكذا أخذت القطار الى مرسيليا ، ومنها ركبت على متن الباخرة الى الجزائر . وكأني بأهالي مرسيليا يقولون لي في لهجة ساخرة مأكرة : « رح الى بلادك يا ابن العرب » وتمثلت نفسي أرد عليهم وأنا أصعد فرحاً مسروراً الى ظهر الباخرة : « أما كوني ابن عربي فهذا صحيح . ولكن ليست أمي عربية ،

وأنتم أيضا لستم فرنسيين الا من جهة الأم لأنكم أحفاد
الفوسيين (1) ، وتعلموا أن مدينة الجزائر أجمل من مرسيليا .

وضحكت في قرارة نفسي ممن كانوا على ظهر الباخرة من
أبناء المعمرين وبناتهم .. انهم يتصورون بعد أن قضوا عطلة
الصيف في فرنسا أنهم الآن عائدون الى « بلادهم » . ورأيتهم
يتباهون في غرفهم الفاخرة وفي قاعات الاستقبال وفوق السطح
المحجوز لركاب الدرجة الاولى ، فسخرت منهم وقلت في نفسي :
« أنتم مخطئون يا سادة ، فالبلاد التي تتوجهون اليها ليست
بلادكم » . وحينما رأيت قمم جبال جرجرة الشامخة ترتسم في
الصباح الباكر على الافق المحفوف بالضباب ، ولاحت مدينة
الجزائر البيضاء كأنها جبل من الرخام ، غمرتني فرحة كبرى
واقشعرت بدني من التأثر وقلت في نفسي : « ما أجمل بلادتي » .
وتذكرت في تلك اللحظة أنني ، عند مغادرتي البلاد الى فرنسا ،
وقبل رسو الباخرة في مرسيليا ، كنت محاذيا لأحد الفرنسيين
المستوطنين بالجزائر ، فسمعتة يقول لرفيقتة وقد ظهرت عليه
علامات الغبطة والسرور لمشاهدة فرنسا :

— ها نحن قد وصلنا يا كريستيان ، وعما قليل سنضع أقدامنا
فوق تربة فرنسا الطيبة . .

وفكرت في نفسي وأنا أغبطه : « ما أسعدك ! لك الحق أن
تقول ان فرنسا هي بلادكم فادخلوها غانمين .. » .

1- الفوسيون : نسبة الى فوسا ، وهي مدينة في آسيا الصغرى ، والفوسيون
هم الذين انشأوا مرسيليا . (المترجم) .

وتذكرت هذه الحادثة وأردت أن أتقم لنفسي فدنوت من أحد الركاب . ولما حاذيته ، همست في أذنه :

— منظر جميل .. أليس كذلك ؟

فرد بلهجة لا تخلو من الاحتقار :

— انه بالفعل منظر جميل ، ولكن المؤسف ان العرب في تلك البلاد كثيرون ...

ولم يخطر بباله أنني أحدهم . وحينئذ أدركت أن مدينة الجزائر ليست لنا نحن العرب بل لهم . ولو خامرني أدلى شك في هذه الحقيقة المرة لبدده الجمركي الذي لم يفتح أية حقيقة من حقائق الفرنسيين ، بينما فتش حقائق الركاب العرب كلهم . أما حقيقتي فقد سلمت من التنقيش لأن الجمركي حسبي فرنسا ، ويا ليتة لم يفعل فكأنه قد وجه لي بذلك سبة .

وفكرت في نفسي :

« نحن قوم نعتز بأنفسنا ، وهذا ما جعل أبناء بلادي في جميع العصور يفرون من السهول ويعتصمون بالجبال المنيعه ويتركون الأراضي الخصبة ويقيمون في الغابات الكثيفة ذات التربة المليئة بالحصى والأحجار . اننا نعتز بأنفسنا ونتمسك بحريتنا ولا نكثرث باللبؤس والشقاء ، ولهذا فأنني لا أرضى عن ايغيل نزمان وغيرها من قرى بلادي ، لا أرضى عنها بديلا لأننا هناك نعيش في جو عائلي ولا يوجد أحد من الفرنسيين ما عدا أمي ومعلم

المدرسة ، وهو حسبما سمعت شاب شيوعي النزعة وصل حديثا من فرنسا . »

ان هذه الخواطر جعلتني أتشوق لقريتنا . ولما وصلت وجدت أن أمورا كثيرة وقعت فيها : فقد مات قائد القبيلة وكان يتحكم في ما لا يقل عن عشرة من القرى ، كما توفي أمين قريتنا . لقد جدت أمور تدعو الى الاعتقاد بأن عهد الظلم قد انتهى ، اذ وقعت انتخابات واختار الناس بكل حرية أعضاء البلديات وشيوخها وتخلصت القرية من العملاء والجواسيس الذين كانوا رهن اشارة الحاكم الفرنسي .

ولكن يا للأسف الشديد ! فان هي الا أيام حتى أدركنا أن الاسماء وحدها تتغير ، وان الذين يتناوبون على الحكم أصبحوا عملاء للاستعمار وجواسيس يتصرف فيهم الحاكم كما يشاء . والغريب في الأمر أن الحاكم شاب لا يكبرني في السن الا قليلا . وقد تسلط على عباد الله وأعمل فيهم يد القسح والارهاب .

وهكذا فما كاد الأسبوع الأول ينقضي حتى مللت من اينغل زمان ومن أصدقائي ومن نفسي أيضا ... وكيف لا يمل الانسان من نفسه في هذه القرية التي يعتبر الناس فيها حلق الشوارب عارا ؟ الا أن الشيوخ أصحاب اللحن الطويلة لم يجرؤ أحد منهم عندما قابلتهم في النادي أن يشير الى هذا الأمر ، وتظاهروا بأنهم يرحبون بقدومي ، غير أنني لم أكثرث بهم ، فكنت تراني بين المقهى والنادي أغدو وأروح حاسر الرأس أنيقا في بدلتي المشيرة

للاعجاب ، أطلع الى الفتيات وأتبادل معهن النظرات ... أما أصدقائي فقد ظلوا كلهم أوفياء لعهد الصداقة ما عدا المتزوجين منهم . ولا أدري لماذا أخذ هؤلاء يجتنبون لقائي ، وخاصة أنني اعتزلت السياسة .

وبينما كنت أصادف من الناس هذه المعاملة ، كنت يا أماء تصادفين نجاحا كبيرا بين النساء . فقد سمعت أن البعض منهن قدمن اليك عروضاً مغرية ، إلا أنك كنت ترفضين وتختارين فتاة حسنة لابنك العزيز . وعندما أمازحك في الموضوع وأقول لك بأنني لا أريد أن أرتبط في هذه البلاد بمسؤوليات عائلية كنت تنكرين المساعي التي تقومين بها من إجلي وتقولين بأنني على صواب ، إلا أن الظروف تحتم علينا أن نؤسس بيتا حتى نتم بالراحة والهناء . وأنا الغبي : تركت نفسي للظروف تفعل بي ما تشاء .. ولا أدري هل كنت سأزوج أو أغل أعزب لو لم تصابي بالمرض الذي أودى بحياتك وفرق بيننا الى الأبد ..

كم بقي لي من أحباب في هذه الحياة بعد أن فارقتني أمي ؟ لا أحد ... سوى ذهبية بطبيعة الحال . لم يعد هناك مجال للتراجع معها لأنها تعجبنني ، ويبدو انها تبادلني الاعجاب . ولقد كانت معي في منتهى اللطف في هذه الأيام الأخيرة ، ولكنني رأيتها حزينة في هذا الصباح ، كئيبة بشكل يبعث على القلق . هذه البنت حيرتني ، وزيادة على هذا فهي فتاة معقدة جدا . ومع ذلك فأنا أعرف سبب حزنها : لعلها تقول في نفسها ، بأنني أصبحت مشغول المهن بمصيبي ونسيتها تماما ولا أحبها ... والا ، فماذا

يمنعني من أن أبتسم في وجهها وأن أنظر إليها نظرة العطف والمودة ؟ ولا أظنها تعتقد بأنني هجرتها ولكن الشيء المؤكد هو انها مهمومة ... يا لها من فتاة ساذجة ! لقد تركت على عتبة داري ورقة صغيرة تمثل قلبا اخترقه سهم ، فأين تعلمت الملعونة هذه الأشياء ؟ ووضعت الورقة في جيبي وأحسست بها تبعث شيئا من الدفء في نفسي ، وعزمت أن أداعبها من وجناتها لكي أراها تحمر كالوردة الناعمة .. دعنا الآن من هذه المسائل الصبائية .. فانا في هذا المساء أتمنى أن أسمع صوت أمي وهي تحدثني وترشدني وتوجه الي نصائحها الثمينة ، وما أحوجني الى صوتها الحنون في هذه الحالة التي أنا فيها . ولكن ، أنى لها أن تتكلم وقد خرجت من هذه الدنيا الى الأبد !

ان كل ما يصدر عن أبناء البشر من تصرفات ما هي الا أمور صبيانية ، وبالتالي فان العداوة بيني وبين مقران ما هي الا من عبث الصبيان ... لا بد من أن أنسى هذا الشخص . وكم سيكون مسرورا لو يعرف أنني أفكر فيه ، وأقيم له وزنا وأنه أصبح يشغل بالي . الا أنه يعرف بأنني أعتبره من أتفه الناس وأقلهم شأنا وهذا ما يعذبه وينغص عليه الحياة ليل نهار .

لقد حطمته باحتقاري له وتجاهلي لما يضره لي من الحقد الدفين . وأنا من هذه الناحية راض عن نفسي لأنني وقفت معه موقف الرجال . ولاشك أنه يقيم لي ألف حساب ، ولكن ، يجب علي أن أحتاط والأزم جانب الحذر ، وكأني به يستجمع قوته ويكشر عن أليابه .

وفى الواقع لست منزعجا مما فعله عندما ألقى الأحجار على
سقف بيتي وكسر أربعة قراميد . وقد أتيت فى هذا الصباح
بائنين من أصحابي وصعدنا الى السقف لتصليح العطب فقضينا
الوقت فى المزاح ، واغتنمت الفرصة فلوحت بيدي بحركة سريعة
مختلسة الى ذهبية التي مرت فى الطريق وقد حملت على ظهرها
الحجرة ، ورأيتها تدخل الى الدار وكأنها لم تبصر من الأمر شيئا .
أما مقران فأنا متأكد أنه يراقبنا من بعيد ويتأسف على ما بدر منه
من حماقة .

وأنا أيضا قمت بحماقة ندمت عليها لو ينفع الندم ، وهي أنني
البارحة ضربت مقران ... ما كان ينبغي أن أفعل ذلك ، غير أنني
لم أمالك معه . وقد اتفقت كلمة الناس على أنه استحق ذلك
التأديب ، وعبر لي الكثير منهم عن تأييدهم لما فعلت ... تصوروا
يا ناس أنني ، بعد ما أودعت أُمِّي فى التراب ، وبعد ما قضيت
ليلة فظيعة فى التفكير وتسجيل الخواطر ، وبعد ما عانيت من
العذاب ما عانيته ، اذا بي أقع على مقران وهو يتشدد أمام الناس
ويعطيهم دروسا فى الاخلاق ... وتصوروا يا عباد الله ما هو
موضوع حديثه . كان يتكلم عني وعن المرحومة أُمِّي ويقول لهم
بأن صلاة الجنائز لا تصح على أُمِّي لأنها رومية ، وأنا أيضا
رومي ، وان شيوخ المرابطين أخطأوا حينما حضروا فى الجنائز ،
واستنكر هذه البادرة منهم واعتبرها عارا .

حينما وقفت أمامه اصفر وجهه وأدركت فى الحين أنني لن
أسيطر على أعصابي ، ولن يكون فى مقدور أحد أن يمنعني من

أن أهشم أنفه الأفطس وأن أقطع لسانه الطويل وأن أمسك به من تلايبيه . وبالفعل ارتميت عليه ، ولم يتدخل أحد بيننا ليفرقنا ، ولم أتركه الا بعد أن شفيت منه غليلي . وحينئذ نهض من الأرض وأمسك في يده سكيناً ، الا أنني لم أعبأ به وبصقت في وجهه ، ثم مضى به بعض الحاضرين الى داره ، ربما ليغسل وجهه ويغير ملابسه . ومضيت أنا الى المقهى غالباً لا مغلوباً اذ لم تصبني منه ولا لكمة واحدة ، بل ولا خدشة صغيرة . لقد أدبته كما ينبغي .

وعلى اثر ذلك قال لي أحد رفاقي :

— رأتَه زوجته واقعا على الأرض ، ولن يغفر لك ذلك أبداً .
فأجبتُه .

— أنا على العكس ، مسرور من كونها رأتَه على الأرض ، ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئاً لأنها تعرفه وتعرف انه يساوي الصفر .

هذا ما فعلته وأنا بدوري متأسف على ما بدر مني . ولعله خرج من بيته في حوالي منتصف الليل وجاء بكل أمان ليقذف الأحجار فوق سقف الدار . ان هذا لا يعد عملاً بطولياً ، ولكن لا بد من أن أحترس بعد اليوم منه ... ورفيقي لم يخطيء حينما حذرني منه ، ونبهني الى أنه لن ينسى أبداً كيف أوقعته على الأرض عندما كانت زوجته مارة بالطريق . وعلى كل حال ليكن ما يكون ، ويكفي أنني برهنت له بأنني فتى أصيل من فتیان ايفيل زمان ولست كما يدعي ابن جرام ولا دخبلاً على البلد ... يا له من حقيس !

اليوم الرابع : 23 يناير من لخمسينات

بدأت أفهم نوايا أنه مألحة : لها تريد ، بما تكنه لي من عطف وحنان ، أن تعاملني كأنني أحد أبناءها . وقد أخذ الجيران يفكرون بأنها نصبت لي فخا ، وأنه لابد أن أقع فيه . وأنا أعتقد ، نظرا الى حالتي التعبة ، أنها تنصب الفخ لابنتها ذهبية . ما أغربها من مغامرة ! لم يعد بالامكان أن أتملص منها ، بل أنا موافق بكل فرح وسرور على مشروعها . وقد غمرتني السعادة عندما قمت في هذا الصباح ، فوجدتني قد نسيت كل ما حدث لي ، وصرت لا أفكر في شيء . وما الفائدة من التفكير ، كما كانت أمي تقول ؟ صرت لا أفكر ولا أكرث الا لما وقع لي في هذا اليوم ، ولتطورات هذا الحدث الهام في حياتي ... وما عدا ذلك فلا يهمني في شيء .

وهكذا بادرتني أنه مألحة بقولها :

— يا عميروش .. نحن اخوان في الدين والدنيا .. ونحرم جيران وأقارب .. أرأيت ماذا سيقول الناس لو أنني أتخلي عند وأفرط فيك ؟ أنا امرأة وأنت رجل ، وما بيننا الا الخير . أستطيع أن أوقد لك النار وأكنس لك البيت وأهييء لك الخبز . وهذه

بنت عليك ، وأنا أيضا في امكانك أن تعتبرني كعتك ، فما رأيك في الموضوع ؟

— شكرا جزيلا يا ننه مالمحة . ولكن يجب علي أن أدبر أموري وحدي . وأنت تعرفين أنني أكتفي بالقليل وأقنع بما عندي .

— أنا عارفة ... ولكن ، ماذا سيقول الناس ؟

— تلك هي المشكلة بالضبط : ماذا سيقول الناس عني وعن ابنتك ؟

— لن يجدوا في ذلك أي بأس يا عميروش . سيفهمون بأنه من الطبيعي أن نساعدك قليلا .

— ولكن ما هو الحل بالنسبة لابنتك يا ننه مالمحة ؟

— نسد آذاننا ، وأنت أيضا تسد أذنيك .

— طيب ، اذن نسد آذاننا .

ليتها تعرف بأني لا أعابأقاويل الناس . وإذا خطر ببال أحدهم أن يتحدث عنا بالسوء فسيري كيف يكون رد الفعل مني . ولكن المشكلة هي أن الأمور أخذت تتطور بسرعة فائقة نحو النتيجة الحتمية ، لأنني أحب ذهبية ، ما في ذلك شك ، فلا ينبغي إذن أن أكون سببا في شقاؤها ... ويبدو لي أننا نحن الثلاثة نلعب بالنار ، ولا يعلم الا الله ماذا ستكون النتيجة . وليس معنى هذا أنني أشعر سلفا بتأيب الضمير ، كلا بل سأترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي . وقد بدأت المسألة منذ بضعة أشهر ، ولم يعد هناك مجال للأسف والتحسر بعد أن تطورت الامور الى ما هي

عليه . ولم أقدم على هذا العمل في حالة من الاضطراب . بل بالعكس لأنني أشعر في قرارة نفسي أنه آن الأوان لتقرير مصيري ، وأتخيل النهاية كما كنت أتناها ، وستحقق لا محالة ، وعندئذ سأغلب على جميع الصعوبات وسأدلل جميع العقبات ... وما كادت هذه الفكرة تشرق في ذهني حتى استعدت عزيزتي ونسيت مصابي وآلامي وأبعدت عن فكري شبح الموت ولم أعد أقيم أي حساب للمشاكل التي تقلق الناس وتنقص عليهم الحياة وتجعلهم يفكرون فيها ليل نهار لعلهم يهتدون الى حل .

ألا يجدر بي عوضا من أن أعذب نفسي بالتفكير في هذه المشاكل التي هي فوق طاقتي ، ألا يجدر بي أن أعنى بذهبية ؟ أليس من الأفضل أن أعيش بالقرب منها ، لكي أبادل معها الحديث وأقامسها الطعام وأدعوها لزيارتي في الدار ؟

ان هذه الأفكار وغيرها مما يتصل بها قد أصبحت تراودني ليل نهار ، ففكري مشغول وخيالي منطلق وأنا جد مسرور .. وإذا شئت الحقيقة ، فأنا لا أحب ذهبية وأنا أشعر نحوها برغبة ، ولذلك فينبغي أن احتاط كي لا أتورط معها الى الأبد في قصة حب ، كما أنني لن أتقيد معها بأي اعتبار من الاعتبارات السخيفة لأنني على كل حال لست مسؤولا عما يسكن أن يحدث ما دامت مألحة هي التي عرضت علي المساعدة . ولعلها حسبت حسابها كما يفعل جميع الناس عندنا . فسيخيب اذن أملها وتغتازل كما يغتازل غيرها من الناس حين تخيب آمالهم وتبطل حساباتهم .

أنا مدرك تماما قصدها : فهي تعتقد أن ذهبية ما خلقت الا لي .
وأنا ما خلقت الا لها : وأن الأقدار التي قربت بيننا في هذه المحنة
ستجبر شملنا ذات يوم . الا أن المشكلة هي الاهتداء الى طريقة
تتحقق بها أمنيتهما . أما من جهتي فليس لدي مانع ، غير انني
سأبحث الموضوع مع ذهبية نفسها ، ولي أمل قوي في أنها ستفهم
وسترفض كل ما أرفضه اذ ليس من المعقول أن نقوم نحن أيضا
بنفس الغلطة التي يقوم بها الآخرون ... قصدي أن أقول اننا لن
نتزوج . ولن ننجب أطفالا لأننا نرفض هذه الميثة التبعة ولا
نرضى بالهوان ولأن الميثة في ايغيل زمان هي في حد ذاتها بلية
وعقاب .

ما أحق من يقدم على الزواج ! والشبان عندنا يرون انه
بالفعل عمل في منتهى الحساسة ، ولكنك تجدهم بعد ذلك يفعلون
مثلا كان يفعل آباؤهم . ولعلك توافقين يا ذهبية اننا لن نقوم
بنفس تلك التجربة . ولهذا نستفضل جميع محاولات أمك ...
وعبا قريب ستتاح لنا فرص عديدة لتبادل الآراء ، ولذلك أجدني
في هذا المساء مسرورا مرتاحا وسعيدا . بل تغلبت على الكتابة
التي استولت علي . وتخلصت من الأفكار السوداء التي استبدت
بفكري . ولعلك أدركت بأنني لا أفنأ أناقض نفسي في كل حين
كالمجنون الذي لا يسيطر على عقله ... انني متشبث بفكرة
واحدة ، هي أنك ستوافقين على الذهاب معي الى أي مكان :
وأنتك ستفعلين ذلك بدون أي تردد . اننا متعلقون بالحياة . رغم
ما فيها من تعاسة ، فلا بد اذن من أن تتحارب عليها
للتخفيف من تلك التعاسة . وما لنا من حيلة سوى أن نترك لها

الحبل على الغارب ، وأن تقنع بما قد تجود به من سعادة في هذه القرية البائسة ، وأن لا نقيم لصروف الدهر أي حساب .

عندما وصلت من فرنسا منذ ستة أشهر ، لم أكن أعرف ذهبية . وقد جاءت الى الدار برفقة امها لتحمد لي سلامة الوصول ، فأصبت بدهشة كبرى لدى رؤيتها . وكنت على علم بأن نه مألحة هي أيضا من بيت آيت العربي . وأنها بالتالي من الأقارب ، وكنت أسمع بها منذ أيام الطفولة : فقد تزوجت في قرية أخرى غير قريتنا ، وكنت يومئذ صغيرا ، ثم مات عنها زوجها ، فصادت الأرملة الى مسقط رأسها ، وبصحبته بنت ما كاد الناس يرونها حتى أخذوا يقولون بأنها لا تختلف في شيء عن بنات القرية .

أتذكر أنها قالت لذهبية :

— قبلي رأس ولد عمك يا بنتي ... شاب وسيم كما ترين .. لك أن تفتخري بأولاد عمك يا بنتى ... ألم أكن دائما أقول لك افتخري بهم ؟

لقد صدقت. نه مألحة في قولها : فأنا فعلا وسيم الوجه ، ولكن لا أرى في ذلك ما يدعو الى الافتخار ، بل كثيرا ما سخطت في صغري على نفسي من هذه الوسامة ، لأن أطفال الجيران كانوا يشتمونني ويقولون بأنني أشبه البنات . وبطبيعة الحال ، تطور الأمر لصالحني فيما بعد ، لأنني أحرزت مع البنات كثيرا من النجاح ، ولولا أنني خجول لاستفدت من هذه الوسامة كما لم يستفد منها أحد من قبل .

ذاك باختصار هو عهد الطفولة ، وقد انقضى ولن يعود . ثم رجعت من فرنسا ، واذا بي أصبح أجمل مما كنت ، واذا بالأمهات يتقربن الى أمي بينما كانت الفتيات من ذوات العيون الجريئة يرسلن الي نظرات ولهي كلما قابلتهن في الطريق ، مما يجعل الشبان يميزون حسدا وغيظا ... غير أن أمي ليست ممن يتقن أساليب المراوغة والنفاق ، وعوضا من أن تستغل الظروف فقد خيبت آمال جميع الأمهات واحدة بعد الأخرى مؤكدة لهن بأنني لا أريد أن أتزوج بنت من ايغيل نزمان .

وأعود للحديث عن ذهبية لأقول بأنها أعجبت بي ، كما أنني من جهتي أعجبت بها في الحين . وأنا الآن أمثل ذلك المشهد كيف جرى : فقد رأيت فتاة ماردة الخدين محتشمة تتقدم الى الامام وترفع يدها وتضعها على رأسي لكي تسيله قليلا وتقبله .

وارتبت ذهبية في أمرها فوضعت شفتيها على جبهي عند منبت الشعر ، ثم أمسكت بدوري تلك اليد الناعمة حتى أقبلها وأحسست بها قد سرت فيها رجفة ، فالتفت الى الورا لتخسبي وراء أمها . ورأيت نهديها قد ارتسما تحت عباءتها الصفراء أما أمها التي لم يغب عنها شيء من المشهد ، فقد لمحت في نظراتها ما يدل على التشجيع كأنها تريد أن تقول لي :

— أرايت أيها الغبي هذه الفتاة الغضة التي أتيت بها اليك هدية ؟ انظر اليها جيدا ، ألا ترى أنها لا تقل عنك جمالا ؟ لماذا تغض بصرك كأنك تستحي منها ؟ وهل يليق هذا بمن عاش في باريس ؟

ثم خاطبتي بقولها :

— آيت واضو طردوني وها أنا قد رجعت ... فهل عرفتني حين رأيتني ، أم نسيت عمتك ننه مالحة ؟
— لا والله . ، ما عرفتك ، بل نسيتك ..

فقلت أمني :

— تركته صغيرا جدا يا مالحة .. كوني عاقلة . فحتى أنا ما عرفتك إلا بمشقة لأنك لم تعودى الى القرية ولا مرة بمد زواجك فى آيت واضو .

— انه على كل حال شيء مؤسف أن لا يعرفني ولدى عميروش .
اسأل أمك كم حملتك على ظهري وأنت طفل صغير . أليس كذلك يا مدام ؟ وأنت الآن لا تتذكر من ذلك شيئا ، مع أنك كنت تحبني كثيرا . وأبوك دادا عامر حين مات لم يبك عليه أحد مثاما بكيت أنا عليه ... الله يرحم يمه كمومة ، الله يرحم تلك المرأة الصالحة . أتذكر أنني كنت أعاكسها دائما وما كانت هي تحبني .. ربما بسبب تصرفاتي معها .. لا تظنوا أن زواجى فى آيت واضو قد أنساني أحدا منكم ، بل كنت دائما أفكر فيكم جميعا :
والدليل على ذلك أنني تركت آيت واضو وعدت اليكم . وكذلك الأمر بالنسبة للرجال . مهما طافوا فى الأقطار والبلدان ، فانهم دائما يعودون الى القرية ذات يوم . صدقتى يا ولدى عامر ، صدقتى اذا قلت لك ان جميع البلدان لا تعدل الوطن ... بلاد

الأجداد ومسرح الطفولة . فإذا وجد الانسان سائر الأبواب
مغلقة أمامه فانه يقول في نفسه :

« ما لي أقيم في هذه الديار ؟ أليس لي وطن ؟ » ويعود الى
بلاده معززا ومكرما فيرحب به الناس . هذه هي الحقيقة وكل
ما قيل غني ان هو . الا كذب وبهتان ... لقد جئت لأقضي بقية
أيامي حيث نشأت وتربيت ، أليس هذا أمرا طبيعيا ؟

وبينما استغرقت ننه مألحة في حديثها ، أخذت ذهبية تبسم
ابتسامة ناعمة بعد أن زال عنها الاضطراب ، وظهرت لي لطيفة
الشكل بصفائر شعرها الطويل الذي خيل لي أنه مصبوغ
بالصبغة ... لطيفة بعيونها النجلاء التي لم أستطع أن أعرف لونها
في ضياء النهار ، بعد ما أخذت تناقص داخل الغرفة . ولم أرد أن أركز
عليها بصري لأن أمها كانت تراقبني كما لو أن قصدها الوحيد
من تلك الزيارة هو تقديم بنتها الي حتى أتعرف عليها ، وإثارة
اعجابي ومعرفة رأيي فيها . وصمتت من جهتي أن لا أفسر
فيها أو على الأقل أن لا أظهر أي نوع من التأثير والاعجاب أمامها .
ومن حسن الحظ ان أمي ما لبثت أن خلصتني من حالة الارتباك
حينما أنهت زيارتها بطريقة مهذبة . ورأيت ذهبية تخرج وراء
أمها ، فترأت لي فتاة مشوقة القدر بضة اللحم مكتنزة كأنها
امراة ناضجة مع شيء من علامات المكر ومن ملامح الطفولة في
وجهها . ترى كم عسرها ؟ انها والله جارة وسيدة ، فيا لها من
مفاجأة لطيفة .

وقلت لأمي متسائلا :

— من أين وفدت الينا هاتان المرأتان ؟

— سمعت ذلك بنفسك : عادت الى القرية من غير أن تستأذن أحدا . لقد حدث لها ما حدث لمن يضيع في فرنسا سنوات ، ثم يتذكر ذات يوم بأن له قرية في البلاد فيزعم على الرحيل . غادرت القرية منذ عشرين سنة . انها امرأة ثرثرة وتتحدث بكل ما يخطر ببالها ، وبنتها أعقل منها . وفي الواقع ما كان ينبغي أن أتكلم عنها بالسوء ، لأنها شقية وهي تبذل ما في وسعها حتى تخفف عن نفسها البؤس والشقاء ... لم تتغير مألحة منذ أن عرفتها ، فهي كالطائر الصغير اللطيف الذي لا يكثر لمصائب الدهر . ورغم كبر سنها وما ذاقت من المحن ، فهي لم تتغير . وإذا صممت على فكرة فمن العبث أن تحاول اقناعها لأنها تظل دائما متمسكة بفكرتها . لقد وصلت الى القرية من سنة مضت في وقت الصباح حاملة كل ما تملك في هذه الدنيا من متاع على حمار . وما كادت تحط الرحال حتى سمع بقدميها القاصي والداني ... وقد اصطحبت معها بنتها التي ظلت ساكنة لا ترد على سؤال ، ولكنها كانت رائعة الجمال رغم لباسها البسيط . وكان معها أيضا رجل مسن لا نعرفه ، قصير القامة ، نحيل الجسم ، معقود اللسان كذلك البنت الصغيرة . وقد اتجهوا الى بيتنا مباشرة فأفرغ الشيخ حمولة الدابة من غير أن ينبس ببنت شفة ، ثم عاد في الحين من حيث أتى .

وبعد ما توارى الشيخ عن الأنظار وانعطف به الطريق في أعلى الزقاق ، نظرت مالحة الي فجأة وقالت لي :

— ها نحن الآن في دارنا ، ولا بد يا مدام أن أقبلك مرة ثانية وبعد ذلك سأحدثك بكل شيء مما وقع لي .

وقبلتني ، فحدثت حذوها ذهبية في الحين . أما أخبارها فلم تستعجل في الكشف عنها ، بل أطلعتني عليها تدريجيا ، مصحوبة بالدموع تارة وبالضحكات تارة أخرى وبالدموع والضحكات معا في أغلب الأحيان :

— لعلك لم تسمع بما حدث لي يا مدام . طبعاً ما سمعت بشيء . لقد أصبحت مثلك أرملة ، ولكن حالتي أسوء لأن لك ولدا بينما أنا لي بنت . أين ولدك يا مدام ؟ لعله صار رجلاً .
— سافر الى فرنسا .

— الله يكون في عونك . وحينما يعود بأذن الله سيحدثني قد عدت أنا أيضا ... مات والد ذهبية فلم نجد من حل سوى أن نرجل ، لأنه لم يترك لنا شيئاً من المال ولم يسد أحد إلينا يد المساعدة هناك ، فرفعت رأسي اعتزازاً بنفسي وقلت لبنتي :
« أنا من بيت آيت العربي من ايفيل زمان . ألا تعرفين من هم آيت العربي ؟ انهم رجال كالأسود ، وايغيل زمان ألا تعرفينه ؟ انه مسقط رأسي » . ولا تظني يا مدام اني تذلت لأحد منهم ..
سألي ذهبية ماذا أسمعتهم من كلام قبل مغادرة قريتهم . هل

تذكرين يا ذهبية كيف كان موقف أعمامك في آيت واضو ؟
كانوا يصرخون في وجهي :

— تنازلنا لك عن بنت الحرام هذه ... خذوها معك ...
تخلينا لك عنها ...

وبطبيعة الحال أخذتها معي . لقد أرادوا في أول الامر أن
أترك لهم بنتي أو (بنت الحرام) — على حد تعبيرهم — فيا لهم
من قوم لا شرف لهم ! لو بقيت ذهبية عندهم لجعلوا منها
خادمة . ومن هم أهالي آيت واضو يا ترى .. ؟ شرذمة من
المرتدين الكفار . كنا نحن أيضا نذهب الى كيسيثهم في بعض
الأيام ، ولكن من أجل والد ذهبية .. مالك تنظرين الي
كأنني قلت ما لا يجوز أن يقال ؟ أنت يا بنتي لا تعرفين مدام ،
انها ممن يؤتمن على السر . وعلى كل حال فلا يزال أماننا وقت
واسع وسأقول لك كل شيء يا مدام وهذا واجبي ...

هكذا نزلت عندنا بدون أن تشعر بأي حرج كما لو أن
ضياقتها واجب مفروغ منه . غير أنني لم ألزعج أبدا من وجودها
معي في الدار . فقد كانت البنت تخاف مني فلا أسمع لها صوتا
طوال النهار ، كما أنها في منتهى اللطف . أما أمها فكنت أتسلى
بالاستماع الى حديثها الذي لا ينفد ، وكانت صحبتها تنسيني
طول غيابك في فرنسا . وبعد مدة من الزمان اكرى لهما عمك
حسين الدار الصغيرة. التي هم فيها الآن ، ولعلك تعرف عمك
حسين ، فليس ممن يفرط في أقاربه ولا يرضى أن يرى أحدا

منهم بدون مأوى . ومن يدري فلربما كان يظن في قرارة نفسه انها جلبت معها تركة كبيرة من المال ، وانها قد تستشيريه في الامر ، وقد تكون في حاجة الى وكيل . وها هي ذي الآن تقيم هنا مع بنتها .. هؤلاء يابني هم جيراننا ، فمن يا ترى يرحب بهما ان لم نكن نحن ؟

بهذه الصورة عرفت قصة لئه مالمجة . عرفت على شكل سلسلة من الفكاهات وعلى هوى المصادفة : مما أسمعه من أمي تارة ، أو منها تارة أخرى أو من أحد أبناء آيت العربي في بعض الاحيان .. عرفت أولا أن زوجها كان مسيحيا مرتدا ، وأنه يوجد في تلك المنطقة من آيت واضو حيث تزوجت ، يوجد هناك ارسالية من الآباء البيض والراهبات . وعدد كبير من العائلات المسيحية المرتدة عن الاسلام . ونحن أبناء آيت العربي نعتبر أن الخروج عن دين الاسلام وصمة عار لحقت بنا ولذلك فلا نريد أن يلمح أحد الى موضوع زواج لئه مالمجة ، وان كانت القرية كلها على علم بذلك . ومن المؤكد أن ذهنية مسيحية وأن لها اسما آخر بصرايا . بل حالتها أدهى وأمر ، لأنها لم تنشأ على دين الاسلام أبدا . ولئن كنت متأسفا بعض الشيء على ذلك فأنا في الواقع أشعر بالسرور من أن يكون لها اسم آخر وسأحاول أن أكتشف هذا الاسم ...

والجدير بالذكر أنه لا يوجد عندنا في الواقع أي مسيحي بأنتم معنى الكلمة . فجيراننا - وأقصد بهم ذهنية وأمها بالدرجة الاولى - لا يريدون أن يشذوا في شيء عن جماعة

المسلمين ، فتجدهم يصومون رمضان ويحتفلون بأعيادنا الدينية .. وأمي هي التي لفنت انتباهي لهذا الأمر وحدثني عنه بكل بساطة كما لو كان أمرا عاديا . وأنا شخصا لا أرى في ذلك ما يدعو الى الاستغراب أو الاستنكار ، إلا أن أهالي ايجيل نزمان لا يوافقون على هذا الرأي ، ومن هؤلاء أحد أبناء العم وهو من المتزمتين المتعصبين ، فقد قال لي ذات يوم ان ننه مالحة ما جاءت الى هذه الدنيا الا لتكون وصية عار للعائلة .

— هل تتذكر عمنا شعبان الذي مات حينما اجتاحت وباء التيفوس البلاد ؟ والدها هو عمنا شعبان .

— نعم أتذكره .

— ان والد عاشور — وربما التقيت بهذا الأخير في باريس — هو والد مالحة . فعاشور ومالحة اذن اخوة من أب واحد وان اختلفت أمهما . هل فهمت ؟

— فهمت .

— خلاصة القصة اذن هي ان شعبان تزوج بامرأة فولدت له بنتا هي مالحة ، وماتت أم مالحة فتزوج شعبان امرأة ثالثة وأنجت له صبيا اسمه عاشور . وكانت أم عاشور قاسية على ربيبها مالحة .. وبقيت القصة معروفة ، ويمكن لك أن تتصورها : زوجة لا تشفق ولا ترحم .. ضرب .. بؤس وشقاء .. بنت مهملة تقضي النهار كله في الزقاق أو في الحقول وراء الماعز والأغنام .. بنت تعاشر الصبيان ، متمردة ، وتنمو بسرعة ، وتتخاصم مع

الأولاد وتعمل أظافرها الحادة في وجوه أترابها من البنات وتشبع الرجال والنساء سبا وشتما ... كانت بلية ومصيبة كبرى على بيت آيت العربي . وذات يوم أدركت الزوجة أن ربيبتها لم تعد عذراء . ولعل الرعاة هم الذين قاموا بذلك العمل الشنيع .. يا لها من مصيبة على العائلة ! الحل الوحيد هو قتلها خفية ، ولكن والدها شعبان لم يعد يستطيع أن يخضعها لارادته . وحينما كانت صبية كان هو وزوجته يشبعانها ضربا وتعذيبا . أما الآن فقد كشرت عن أنيابها وصارت تتحداهما وتهدهما بالفضيحة . ولم يجد أبناء العم مجالا للتدخل لأن والدها لا يزال على قيد الحياة ، غير أننا كنا راغبين في التخلص منها في أقرب وقت .

وحينما تقدم أحد أبناء آيت واضو ليخطفها كنا نعرف جميعا من هو ذلك الشخص كما كنا نعرف أنه سيأخذها معه الى مكان بعيد عن ايفيل نزمان . وتنفسنا الصعداء ... فقد وجدنا فرصة للتخلص منها الى الأبد ، ولم يعارض أحد لأننا وجدنا أنفسنا أمام حلين : فاما أن تصبح عاهرة ، أو مسيحية ، فاخترنا الحل الثاني ولم يعد أحد يذكرها منذ أن تزوجت .

— نسيتموها ولكنها هي لم تنس أن لها أقارب هنا ...

— للأسف الشديد .

يبدو أننا نحن أبناء آيت العربي لا نريد أن نعرف شيئا عن الحياة التي عاشتها في قرية آيت واضو . وكل واحد منا يستطيع أن يتصور بأنها حياة ليست مشرفة للعائلة وأنه من المستحسن أن

تبقى سرا مجهولا في اينجيل نزمان ... أما أنا شخصا فأنني أحاول دائما أن أتخلص من الافكار المسبقة ، ولذلك يهمني أن أعرف المزيد من المعلومات عنها لعلني أجد لننه مألحة عذرا لسلوكها السيء .. ومن يدري فربما سأعثر لها على خصال حميدة . وأنا لا أشك مطلقا أن مألحة امرأة متمسكة بمبادئها ، وإن كانت مبادئ خاصة بها ، ولذلك فأنا أحبها كثيرا . ومن المؤسف أن طريقتنا في الكشف عن ماضيها لا تساعد على معرفة أنماط الحياة في آيت واضو معرفة دقيقة . وكلما فتحت لها باب الموضوع فإنها تنهزب من الجواب وتقول بأن ذلك الماضي أصبح معروفا لدى الجميع وما من حاجة للكشف عن وقائعه وأحداثه مرة أخرى .. ولشدة غموضها كنت أحيانا لا أفهم قصدها ، فإذا سألتها أراها تتضاحك وتغير الموضوع أو تتظاهر بأنها لم تفهم السؤال فتجيب على أسئلة أخرى لا تهمني .

ومن جملة ما عرفته منها أن ذهبية كانت تلميذة في مدرسة الراهبات . ولكن مألحة أبت أن تطلعني على مزيد من التفاصيل ، وسألتها : هل تنصرت ذهبية ؟ وهل سميت باسم مسيحي ؟ فأجابتنني :

— أنت ، ولا شك ، تعلم بأنها لم تنصرت .

وأدركت أن الالتاح في هذا الموضوع لا يجدي فتيلة . وكل ما أعرفه أن مألحة وذهبية تحافظان على السر وتريدان أن ينسى الناس ذلك الماضي ، ولكن هيهات ، لأن الناس في اينجيل نزمان لا ينسون .

يخيل لي أحيانا أن مألحة تعتقد بأنني الضالة المنشودة من أجل إعادة المياه الى مجاريها : فأنا مسلم ، ولكنني مع ذلك ابن امرأة أوربية ، وبما أن أمي مسيحية بالولادة ، فليس من المعقول أن نجد مانعا في مسألة الزواج . هذا هو رأي نته مألحة . أما أمي فما كانت أبدا تلح علي في موضوع الزواج ، لأن ذلك ليس من طبعها .. على أنني الآن أصبحت وحيدا في هذه الحياة .. وربما وقع في روع مألحة أن المسألة صارت هينة وأن مساعيها ستكلل حتما بالنجاح . وبالفعل ، فقد بدأت الأقاويل تنتشر ، وأخذ الناس يترقبون النتيجة . والمسألة واضحة كل الوضوح : ان مألحة الأرملة تستعد لتقوم مقام المرحومة أمي ، وتسعى لكي أتزوج من ذهبية ، وسكون سعاداء وسننجب كثيرا من الاطفال

أما أنا فلم أجد من سبيل أمام هذه الخطة سوى أن أظهار بالغباوة . لو شئت أن أتكر لأصلي لاستجبت للأغراء .. لا لكي أنشيء أسرة وأنجب أطفالا ، وان كنت في قرارة نفسي أرغب في ذلك .. بل لكي أتمتع بالحياة الزوجية وأعيش حياة هائلة مع امرأة هي لي وحدي . وعندما أفكر قليلا أجد أن الزواج ليس شرا . وكثيرا ما غيبت المتزوجين الذين وجدوا السعادة في زواجهم . وأنا لا أتصور المتزوجين الا سعاداء لأن العلاقات اذا ساءت بين الزوج والزوجة فلا يبقى هناك للزواج من معنى . والناس اذ يرون مظاهر السعادة على وجوه المتزوجين يرغبون في تقليدهم ويبعدون عن أذهانهم جميع المشاكل التي يمكن أن

تنشأ بعد الزواج ، من سوء تفاهم وملل وتضاييق من الحالة الزوجية وتحسر على ما فات ، ولا يملك الانسان حينئذ الا أن يقول :

« تزوج فلان ، فلماذا لا أتزوج أنا أيضا ؟ » وما دام الأمر كذلك ، فإني أساءل بدوري :

« لماذا لا أتزوج من ذهبية ؟ »

انها فتاة بيضاء ناصعة البياض ، زرقاء العينين عميقة النظرة رشيقة القوام فكانها زهرة غضة نبتت في الظل ولم تمسها أشعة الشمس . انها فتاة لا يريد لها أحد لأنها ليست من قريتنا ولأن هذه المسكينة نشأت على دين المسيح . أما الذين يتلهفون عليها بنظراتهم حين تمر أمامهم .. فانهم يريدون أن يبقوها معهم لمدة يوم أو ليلة ، ولكن لا الى الأبد . أما ذهبية فهي تريد شخصا يبقيا معه الى الأبد ، ولا يعني هذا أنها ترضى بأول رجل يتقدم ليخطبها ، فهي فتاة عاقلة ، بينما أنا مثال للحماقة والطيش ..

لا أفكر أن المساعي الاولى للتقرب منها كانت من جانبي ، والشيء الذي جذبني اليها عيناها : انها من العيون التي تسخر الابواب والعقول .. ومنذ بداية التعارف سمعتها تهمس في أذني بنظراتها :

« لملك تراني بريئة ساذجة ، فلا تتخدع بذلك لأنني لست مغفلة .. أريد أن أحب وخلقته للحب ونفسي متعطشة للحب .. أرجوك يا عيروش أن تفهم حقيقة أمري وأن لا تحرمني من

وجهك الملائكي .. وأنا أتذكر ملاكا يشبهك ورأيتك على لوحة
في كنيسة آيت واضو .. وبدلته رمادية وحول رأسه هالة كأنها
عمامة . وله أجنحة غريبة ما عرفت لها مثيلا .. رأيتك يحلق
فوق الرؤوس ، ورفع المؤمنون أبصارهم وأخذوا ينظرون اليه
خاشعين ، فأمال رأسه اليهم كأنه أراد أن يتخلص من هالته
وأجنحته وأن ينزل من ملكوت السماء ليكون بينهم بشرا سويا ..
وارسم على وجهه الجد والوقار وشيء من الحزن والكتابة
ورفت على شفتيه ابتسامة تأنس لها النفس . وحينما رأيتك
يا عميروش قلت في نفسي : ها هو ملاكي ، لقد نزل الى الأرض
ولحق بي حيث أقيم في اينيل زمان » .

لابد أن أعترف أنا أيضا أنني غيرت نظرتي الى ذهبية ..
فهي لم تعد صبية صغيرة ولم أعد أعتبرها صبية ، وكنا لا تتبادل
الكلام الا لاما ، وكنت أحيانا اذا خرجت من البيت أراها على
عتبة الدار وأصادفها في الزقاق فتتنظر الي وأنظر اليها وأمضي في
سبيلي ولا يتجاوز الامر هذا الحد أبدا . وكانت في بعض
الاحيان تهس تحية مختلصة فيتورد وجهها حياء ، وأرد عليها
بنفس الطريقة ... وذات مساء اغتاظت مني . فقد تقابلنا في الزقاق
لوحدا ولربما صدرت مني اشارة غير عادية ، ولكن بدون أي
قصد معين ، فقالت لي بصوت أجش وقد تغيرت ملامح وجهها :

— ماذا تريد ؟

— أنا ؟ .. لا شيء ..

— لا تحسب أنني كغيري من البنات .. هل سمعت ؟

— طيب ... سمعت .

وانهزمت مخدولا . غير انها ظلت لمدة أسبوع تلاحقني .
كانت تترقبني حيشما أسير، وتوقفني في الطريق وتقول لي بصوت
يتميز غيظا :

— ماذا كنت تريد ؟ .. يا الله .. قل .

فأنظر إليها متجهما وأنصرف في حال سبيلي بدون أن
أجيب ... الا أنها شوشت عقلي الى درجة أنني كنت أترقب
بخوف شديد متى أرى أمها قادمة لتشتكي الى أمي . وقلت في
نفسي ان علاقتي معها قد انتهت ، غير أنني كنت مخطئا اذ أن أمها
لم تسمع من الامر شيئا . ماذا كانت تريد مني اذن ؟ مفاهمة ؟ ..

وبدأت أفقد السيطرة على أعصابي وقررت ان أغتسم أول
فرصة لأتفاهم معها بكل صراحة . وذات ليلة من الليالي القمرية
وجدت نفسي أمامها وجها لوجه أمام باب دارنا ، وكنت عائدا من
النادي . وبينما أنا أمد يدي لأدفع الباب اذا بي أراها قد خرجت
من حيث لا أدري كأنها جنية . واثابني غيظ شديد فأخذتها بين
ذراعي بعنف وضممتها حتى كدت أخنق أنفاسها وحاولت أن
ألثم ثغرها ، غير أنها استطاعت أن تفلت من قبضتي . فصفعتني
وتوارت عن الانظار .. أهذه هي المفاهمة التي كانت تريدها مني ؟
هذه الحادثة لم تقع الا من مدة قصيرة . وما كادت بضعة أيام
تسضي على ذلك حتى مرضت أمي .

أما الآن وقد أودعناها التراب وصار الأسي ينفلا جوانحي ،
 لم يبق لي الا أن أنشبت بذهبية . ان خيالها لا يفتأ يرتسم أمام
 عيني مبتسما تارة وعابسا تارة أخرى ، ويحاول أن يحجب عني
 وجه أمي الرزين .. ان طعم شفيتها اللتين لم أستطع أن ألتصمها
 لا يزال يرف على شفتي ، وكلما عادت بي الذكرى الى تلك
 اللحظة أحس على خدي بالحرارة التي سرت فيه بعدما صفعنتني .

أتذكر الآن أنها لم تقل لي أبدا انني أشبه ملاكا ، بل أنه
 مألحة هي التي قالت لأمي في الايام الاولى من رجوعي من فرنسا
 منذ ستة أشهر تقريبا :

— ذهبية معها الحق يا مدام ، فبالفعل توجد صورة في كنيسة
 آيت واضح وتمثل ملاكا يشبه عميروش . اسألني ذهبية فهي
 التي لاحظت ذلك ..

وأخذت أنه مألحة تصف اللوحة بكثير من التفاصيل : بينما
 كانت أمي تبسم ..

اليوم الخامس : 24 يناير : من الخميسات

خرجت من دار ننه مألحة منذ لحظات ، ولا أحس الآن بالرغبة في النوم لأنه لا بد أن أسجل كل شيء قبل أن تنطفيء حرارة مشاعري . مسكينة أنت يا ذهبية ... لعلك تعتقدين أنني سأراك الليلة في أحلامي وسأكون معك في أحلامك أنت أيضا . أما أنا فلن يكحل النوم أجفاني الا اذا وقمت من التعب والاعياء على الحصيرة أمام صندوقتي وأوراقتي . ولا يخفى عليك يا عزيزتي أن تلك الاحلام الجميلة ستتحول في مثل هذه الحالة الى كابوس مخيف .

استقبلتني ننه مألحة وذهبية استقبالا حارا ، ولم أخبئ عنهما سروري بذلك ، أولا على سبيل المجاملة ، وثانيا لأن الترحيب كان بالفعل حارا .. ننه مألحة امرأة طيبة كريمة وان كانت مغرورة بنفسها وحمقاء بعض الشيء ، وهي مستعدة للتضحية بكل شيء حتى تبرهن لضيفها بأنها تحبه ، وتحبه كثيرا ، فلا يسع الضيف أمام تلك العواطف الفياضة الا أن يتأثر . أما ذهبية فقد أدركت أن الشيء الذي يهمها مني ليس هو الكلام ، بل هو الاقبال على الاكل والطعام ، لذلك أكلت كثيرا حتى شبعت .

وقد سرهما ذلك أيما سرور خاصة حينما قلت لهما بأن الطعام أعجبني . وقدم لي الاكل في صحن كبير. مزين بأزهار حمراء . وتناولت غرفيتين كبيرتين من الكسكسي الابيض . وكانت ننه مألحة دائبة الحركة في الحجرة الصغيرة ، فهي تارة تخرج الى الباحة لتأتي بالمرق أو الماء أو بأحد مواعين الطبخ أو بقطعة من الخشب ، وتارة أخرى تنشغل من حولنا لكيلا ينقصنا شيء . وجلست ذهبية بالقرب من الكانون ولزمت مكانها ذاك ، وقد أدارت لي ظهرها . وحينما ذهبت أمها الى باحة الدار التفتت الي قليلا وناولتني منشفة كانت قد وضعتها على ركبتيها . الا أنني لم أغتنم فرصة أفرادنا فوضعت المنشفة بعجبي وقلت لها شكرا بالفرنسية وتحاشيت العبارة التقليدية المعقدة الطويلة .. وقصدي من ذلك أيضا أن أمارحها وأن أشمرها بأنني أريد أن أسمعها تتحدث بالفرنسية . وانتظرت الى أن رجعت أمها فطلبت منها أن يأكلا معي من نفس الصحن :

- لن أنزعج أبدا اذا أكلتما معي .. بالعكس سأكون مسرورا .
- لا يا عميروش ، نحن معنا وقت واسع وسنأكل فيسا بعد .
- وأنت يا ذهبية ، ألا تريدين ؟ لا تسمعي كلام أمك ، وسأكون مسرورا اذا أخذت حريتك معي .

— لا تسارحها بهذه الطريقة يا عميروش . فهي التي أعدت الكسكسي وكيفيها أن تؤكد لها أن الطعام أعجبك ...

وتطلعت ذهبية الي وجها لوجه وهي تبسم ابتسامة جريئة ،
ثم قلت لي بلهجة فرنسية لا أستطيع وصفها :

— خذ حذرك يا ابن العم ، فقد وضعت لك السحر في الطعام .

واحمر وجهي من الدهشة وصرت أقول : « غريب .. غريب .. »
وأنا أبحث عبثا عن جواب ينم عن روح الفكاهة أو على الأقل
عن كلمة مناسبة ، غير أن ذهبية صدمت عني بوجهها وأخذت
تذكي النار في الموقد ، بينما كانت منه مألحة تضحك من حيرتي
وارتباكِي ..

— ألا تعرف يا عامر انها تجيد الفرنسية ؟ لا تعاكسها اذن
لأنها لا تحب من يعاكسها .

أما أنا فعلى العكس تماما أحب ذلك لأننا عندئذ سنتفاهم
بكل صراحة ، وهذا موضوع سنبحث فيه فيما بعد ، ولو نتاح
لي الفرصة لحدثت ذهبية بالفرنسية أو بالامازيغية ، وان كنت
أفضل الفرنسية .. أريد أن أحدثها طويلا .. ليل نهار ، وأن أشر
لها أفكارِي وأن أتبادل معها الرأي . وما من شك أن ذلك في
منفعة لنا جميعا ، ولو فعلنا ذلك لما عذبت نفسي بالتفكير في كل
هذه الامور التي يفيض بها قلبي ويضج بها رأسي ولا أجد وسيلة
للتعبير عنها سوى بالافضاء بما أحس ، وبلاستماع الى كلامها ،
ولا شك أننا سنتفاهم في آخر الامر ، لو نتاح لنا الفرصة .

ها أنا ذا قد وضعت أمامي هذه الاوراق ، وأجدني قد نسيت
المهم وضيعت كل ما يجول في ذهني من أفكار ، وأصبحت

عاجزا عن تنفيس غضبي ، لأن القلم لا يطاوعني .. يا الهي ،
ما أعجزني عن التعبير !

ولو شئت أن أعبر عن اللحظات السعيدة التي قضيتها مع ذهبية
وعن الذكريات التي خلقتها في نفسي لما وجدت أية صعوبة ،
ولكن هذا ليس هو الموضوع ، لأن تلك اللحظات أصبحت
شغلي الشاغل . انا في هذه الدنيا نعيش كالحيوانات ونموت
كما تموت البهائم ... الحياة قاسية ، وليس لنا من سلاح الا
البكاء بدموع العاجزين المحقورين .. هذا هو الموضوع الذي
ينبغي أن أتحدث عنه ، لا عن تلك القصة الغرامية التافهة التي يقع
فيها جميع الناس بصورة محتومة . ويا ليتني أستطيع أن أتحكم
في عواقلي وأسيطر عليها حتى أتسكن من التعبير عن أفكاري !
ولكن عقلي لا يتسخر عن شيء ، فسا أبلدني وما أبلد ذهبية !

أحس برغبة شديدة لقضاء هذه الليلة معها ... ومن يدري
فلمها هي أيضا رغبة في ذلك ؟ ولكن أليس من العيب أن أفكر في
هذه الأمور ؟ ألا يجدر بي أن أبحث عن شيء آخر لقضاء الوقت ؟

من جملة ما لاحظته أن الشاي قدم لي في كوب كبير مشقوق .
وليس له يد أمسكه منها ، وأن المعلقة من فضة ، ولكنها عتيقة
لأن قعها قد اصفر تماما .. والصحن كذلك عتيق وسميك جدا ،
ومن النوع الذي لم يعد يستعمل . ولعل مالهعة عندها ثلاثة أو
أربعة منها ، وقد لاحظت في الحين أنها أخرجت أحسن ما لديها من
المواعين تكريما لي . غير أنني لم أكتثر لذلك ، بل شعرت بحزن

عميق : فلا شيء يبعث في نفسي الحزن كالإنسان الذي يستتر
فقر حاله لا عن حياء ، بل لانه مغرور ولا يريد أن يعرف أحد أنه
يعيش في البؤس والشقاء . وقد تكلفت ننه مألحة أكثر مما
تطيق وأرادت أن تدهشني وقدمت لي المنشقة ، الا أنني استغنيت
عنها . وقدمت لي أيضا الشوكة .. لألتقط بها قطعة صغيرة جدا
من اللحم . أما الفواكه ، فهي عبارة عن برتقالة واحدة ... مسكينة
أنت يا ذهبية ... تمنيت لو أنك أعفيت أمك من كل هذه
السخافات ، فما أنا ممن يعبأ بالمظاهر الزائفة . وحينما أتذكر الآن
ذلك أشعر بالعطف والشفقة عليهما لأنهما عرفتا أن هناك أمورا
كثيرة ناقصة في الدار فحاولتا تداركها ولكن بدون جدوى . وأنا
في الواقع لا أتأثر بهذه المظاهر بل أراها من الأشياء التي تدعو الى
السخرية ، ولعلهما ظننا أنني أزعج من الجلوس على الأرض
لتناول الطعام بسبب السروال الأفرنجي ، غير أنني عودت نفسي
منذ أن عدت من فرنسا على جلسة ملائمة ، فأمد رجلي على
الحصيرة وأقرب الصحن من جنبي الأيمن وآكل بهذه الطريقة في
راحة تامة ، فما كان ينبغي اذن أن ييسط الزرية العتيقة مطوية
على ثمانية لاجلس عليها ، وأن يضعها فوقها وسادة لأستند عليها .
وبما أنه لا توجد مائدة، لذلك كان صحن الكسكسي محطوطا فوق
القصة الخشبية الكبرى المقلوبة على الأرض ، بحيث أن الصحن
وضع بين رجلي المنفرجتين على جانبي القصة المدورة . وبينما
أنا أوطن نفسي على الصبر في هذه الوضعية غير المريحة ، اذا
بمألحة تقول :

— هل أنت مرتاح هكذا ؟

— نعم ... وفي الواقع ان جميع وسائل الراحة عندكم موفرة ،
فهذا كرسي ، وتلك مائدة ، الى غير ذلك من الأشياء الأخرى ...
فشكرا على ما صنعت يا ننه مألحة . ولكن ينقص النبيذ ...

— أي والله...ولكن ما كنت أحسب أنك تشرب الخمر . معك حق
على كل حال ، وأنا غير مغتافلة من طابك هذا . فالنبيذ هو الذي
جعل وجوه الفرنسيين حمرًا لأنه يقوي الدم .

وبعد تناول الطعام دعنتي ننه مألحة لغسل يدي . يا لها من
امراة مدهشة ! انها لم تنس شيئًا . وهكذا غسلت يدي من نفس
الابريق الذي كنت قد شربت منه . وما كان علي الا أن أغير
جلستي لأجد نفسي قريبًا من الباب ، وهناك توجد المغسلة ، وهي
متصلة بقناة صغيرة تمر تحت العتبة لتصريف مياه الدار . ومددت
يدي فألقت فيها مألحة صابونة ثم تركت الماء يسيل من الابريق .
وأخذت أحك يدي بقوة بينما هي تصب الماء من الاناء الذي
أمسكت به من يده حتى يبقى مائلًا . وبما أنه لا يوجد طست
فقد استعوض عنه بصحن من الفخار لتجميع الماء المصبن .
وأردت أن أزيح الصحن ، غير أن مألحة زعمت أن القناة مسدودة
وشعرت بحرج كبير حينما رأيت الماء الذي يسيل من يدي متعكرا
جدا ويكاد يكون أسود اللون . ولحسن الحظ كانت ذهبية قد
صدت وجهها ، ولكن أعتقد انها لاحظت ذلك فشمرت هي أيضا
بالحرج . وأخيرا مسحت يدي بالمنشفة لأتني لم أستعملها وقت

الاكل ، وحينئذ قالت لي ننه مألحة وقد أشرق وجهها : « صحة لك » فأحسست بالرغبة في أن أعبر لها عن شكري على ما كلفتها من آتاع :

وقبل أن أنصرف ، اقتربت من الحائط وتفحصت صورتين قد بهت لونهما قليلا وكنت قد رأيتهما حينما كنت جالسا ... واندعشت لما رأيته . فالصورة مؤثرة حقا وهي تشل ذهبية . وقد ألصقتها على الجدار بدبوسين صدئتين . وتوجد بجانبها صورة امرأة شابة ولعلها مقصورة من إحدى المجلات المصورة التي حصلت عليها بطريقة ما . وتطلعت اليهما وإذا الملامح اللطيفة المرتسمة على الوجهين المصفرين من الدخان إذا بها واحدة . والابتسامة التي ترف على شفثيها واحدة . والنظرة المندعشة التي تلمع في عيونها واحدة أيضا . ان الشبه بينهما يلفت الانتباه ، فكل منهما لطيفة للغاية . وبينما أنا أتطلع الى الصورتين اذا بذهبية وأما تقتربان وتقفان من ورائي .

لم ألق عليهما أي سؤال وانما نظرت طويلا الى ذهبية ومططت شفثي كمن يريد أن يصفر من شدة الاعجاب . الا أن الصغير لم يسمع له صوت ، وخيل لي حينذاك أن وجهها احمر من الخجل كما احمر وجهي ، وسعت به مألحة تهس من خلفي :

— الفرنسية بشعرها المجعد .. كم هي مليحة .

وبدون أن أدري أجبتها :

— ذهبية أيضا مليحة .

ثم انصرفت مضطربا بعض الشيء عارفا أن هذه الكلمة ستسرهما لأنها لم تتوقعا من عيروش الخجول أن تصدر عنه تلك العبارة من الاعجاب .

أما الآن فما أنا قد عدت الى أوراقى لأكتب قصة حياتى ، أى أنى سأحدث عن الماضى بشكل خاص ، ذلك الماضى الذى اشمازت منه نفسى الى درجة أنى فقدت كل أمل فى المستقبل . وأنا أتساءل أحيانا : هل سأجد السعادة مع ذهبية ؟ وهل أنا قادر على أن أضمن لها السعادة ؟ انى أشك فى ذلك ، وكل ما فى الأمر اذن أن نفسى قد ارتاحت لقربها وانشغلت بالتفكير فيها واشتاقت لوصالها . وأنا على يقين بأنها هي أيضا مشتاقة لذلك الوصال .

ولكن الى متى سأتقيد معها بالاعتبارات السخيفة ؟

أخاف ان لم أكف عن السهر المتواصل ، أن أفقد عقلى . ولو كنت أقرأ فى النهار ما أكتبه فى ليالى السهاد لكان من المؤكد أن أصاب بالجنون .

يظن البعض أن عيروش لم يعد يعرف للراحة طعما لأنه غير راض عن نصيبه من هذه الحياة ، فيترفقون به ويرثون لحاله ، خاصة وأن أباه مات عنه قبل أن يعرفه ، وها هي ذى أمه قد توفيت هي الأخرى ... لا يا ناس ، أتمم مخطئون . لست ساخطا على نصيبى من هذه الحياة بل على أصلي لأنه كان من الممكن أن لا أولد فى هذا البلد المغضوب عليه . ولو أنى ولدت فى فرنسا

وقضيت حياتي هناك وعشت كما يعيش أكثر الناس لما أنكرت من أمري شيئا حين. أبلغ الخامسة والعشرين من العمر . سأكون رجلا في وسط الملايين من الناس ، وسأعرف السعادة أو الشقاء ، ولكن المهم أنني سأكون انسانا كغيري من البشر . أنا ساخط على أمي التي جعلت مني أحد أفراد هذه القرية حتى صرت متعلقا بهذا الوطن ، بينما كانت تستطيع لو شاءت أن تغادر البلاد وأن تربيني في فرنسا وأن تسلمني لمركز رعاية الأطفال أو تفعل بي ما يخطر لها بالبال .

مضى شطر كبير من الليل. وأنا لا أزال أهذي كالمجنون ومع ذلك فلست أبالغ. في كلامي : لو انني خيرت لما كنت في هذه الساعة ما أنا عليه . لا أدري لماذا أنا من أبناء القبائل ، ولماذا كتب علينا أن نكون نحن المعذيين في الارض لا غيرنا من الناس .. لعل أجدادنا هم الذين أرادوا لنا الشقاء . ولئن كانوا أشقياء فذلك أمر طبيعي في زمانهم . أما اليوم فلا أجد لذلك مبررا . ولا يسفنا الا أن ندعو لهم بالويل والثبور على ما خلفوه لنا من تعاسة . ولا شك أنهم يستهزئون منا عندما يشاهدون ما نحن عليه من محنة وشقاء .

أنا ساخط على نفسي ، لأنه كان فيه مجال للاختيار بالنسبة لقضيتي . كان هناك انسان يستطيع أن يختار نيابة عني . ولكنه لم يفعل . ولكن ما فات مات ، ولم أعد أستطيع أن أتكرر لأصلي ، بل أنا لا أرضى عنه بديلا مهما كلف الأمر . وعندما

أفكر في الموضوع أريد أن أقف أمام الناس وأن أقول لهم :
« لست أقل منكم قدرا ولا أدنى منكم منزلة يا ناس ، ولعلكم
لا تفرون بذلك ، ولكن سيأتي يوم تعرفون فيه من أنا » .

هذا الكلام بطبيعة الحال لا يعني من الأمر شيئا ، لأنني
سأظل كما كنت : بالأسا شقيا . وقد كنت في وقت من الأوقات
أؤمن بأفكار جعلتني صاحب عزيمة قوية ودفعتني الى الطموح
حتى صرت أؤمل أن أحقق لنفسى السعادة . ومن يدري ، فلعلني
كنت سأحقق تلك الامنية الغالية لو تربيت في مكان آخر ،
ولم تكن أمي فرلسية ، ولم تكن جدتي هي كمومة .. أما الآن ، فكلما
عدت الى الماضي أشعر بالأسف والحسرة ويبدو لي المستقبل
أكثر سوادا من ظلمات الليل وأراه مغطى بستار غليظ وبألوف
من السجوف السميقة التي ليس من ورائها سوى السراب .

أصارك يا أماء بأنني كنت محروما .. محروما من كل
ما لذ وطاب ، من الثياب الجميلة ، ومن حنان الأبوة . وقد
بقي لي من ذلك في نفسى فراغ هائل لا أستطيع أن أملاه . ومن
سيمعوز لي الآمال التي لم تتحقق والمطامح الصغيرة التي لم أبع
بها لأحد والاحلام الساذجة التي كنت أخبئها في قلبي ؟

هذه الأمور لم تكن تخفى على أمي . الا أنها لم تعرفها أي
اهتمام ولم تفعل شيئا لمساعدتي . انها لم توفر لي من نعيم الحياة
سوى تلك المعيشة الصعبة التي يعيشها الأطفال عندنا . أما
الطعام فهو الكسكسي والخبز ، وأما الأيام فنقضها في النادي

والمدرسة ، في المخاضة والسب وجمع أعقاب السجائر والتسكع
في الحقول مع الصبيان ، وليس لنا من رقيب على ما تفعل . فاذا
أخطأ أحدا ترى الكبار حينئذ يشبعونه ضربا . لقد اضطربت
منذ الصبا أن أدبر شؤوني لوحدي ، فاذا أصبت بمرض فليس
لي من حيلة سوى أن أنتظر الشفاء بدون أية معالجة ، وأن أتحمل
الداء كأنه عيب من العيوب البدنية . وأخذت أنتظر بكل ما أوتيت
من صبر متى أصبح قويا .

حينما كنت صبيا تنكرت لتقاليدنا وتمردت على أهاليينا وقيمنا
الاخلاقية ، الى أن كبرت فصرت أقدر هذه الامور حق قدرها .
وأخيرا وجدت نفسي مضطرا لأن أتعلق بهذه القطعة الصغيرة
المنسية من الارض ، الى أن أدركت ذات يوم أنها لا تستحق أن
يتعلق بها الانسان

أليس من المعجزة اذن أن أَرْضَى بالمعيشة التي عاشها آباي في
ايغيل زمان وأن أنشأ كما ينشأ أبناء تلك القرية ؟

انه شيء سخيف حقا أن يمضي الانسان زهرة أيامه هنا . وها
أنا الآن أحس برأسي ثقيلًا من النعاس حتى صرت أهذي
كالمجنون .

اليوم السادس : 25 يناير من الخمسينات

حينما فتحت الباب في هذا الصباح وجدت الأرض مغطاة بالثلج ، وأدركت أنه ظل يتساقط شظايا كبيرة من الليل لأن الطبقة التي تراكت سميكة . ولم أفطن له عندما أخذ يتساقط في الليل، إلا أن البرد أيقظني من النوم .. أحس بوجع شديد في ظهري ، ولا بد لي من الاعتراف بواقع خالي ذات يوم : فقد تملكنتي نوبة من السعال لمدة ربع ساعة بعدما دخلت أول سيجارة ، وما من شك إذن أن صدري مريض ، فأنا أحس به قد تمزق ... وعندما سمعتني ننه مألحة أسعل هرعت الى دارنا لتشعل الكانون وقال لي :

— ابق في فراشك يا ولدي وخذ حريتك معنا . وقد جئت لتدفئ الدار . أما القهوة فسا حضرها لك عما قليل . وعندما آتيت كانت ذهبية تعدها .

من جملة الأمور التي اتفقت عليها مع مألحة هي إيقاد النار واعداد القهوة والقيام بشؤون المنزل ، وكأني بها تريد أن تحيطني برعايتها . وهذا موقف لا أحبه لأنني لست — خلافا لما تتوهم —

« ولدها الصغير » بل أنا الكبير وأنت الصغيرة يا مالحه ، ولكنني للأسف محتاج لمثل هذه الرعاية لكي أجد من يحميني من الثلج والبرد والافكار السوداء .

خرجت لأتفرج على الأرض المكسوة بالثلج .. سأمتع نفسي بمنظرها طوال النهار .. الدار حزينة وكأنها ملفوفة في أكفان بيضاء .. ويخيم عليها جو من الوحشة والكآبة . وأغلقت الباب ومررت في طريقي على ذهبية فسلمت عليها وتركت عندها المفتاح ، الا أنني لم أستطع أن أراها لأن الدار مظلمة ولأن الدخان أعمى بصري .

الناس عندنا يكرهون الثلج : وهذا ما جعلني أحبه لأنني أعترف له بفضل كبير ، وهو أنه يخبيء مرة في السنة بشاعة إيجيل زمان ويستترها عن أعين الناظرين لمدة أيام . فالحفر والأحجار الناتئة تختفي في الازقة ، وسقوف المنازل تلبس حلة بهية وتتخذ أشكالاً هندسية منتظمة . وتكتسي لونا أبيض ناصع البياض وصفاء لا تكدره يد انسان .

أحب الثلج الذي لم تطأه الأقدام ... وهذا ما دعاني للخروج في هذا الصباح . وصادفت في طريقي الى المقهى بعض الصحاب فاستقبلوني بوجوه عابسة بينما كنت أهم أن أمارحهم ، فقال لي أحدهم :

— لعلك في الطريق الى المقبرة . نحن نرافقك ..

— ولم الذهاب الى المقبرة ؟

— أنسيت أمك ؟ ..

أي والله ... بالفعل نسيت ، فباقيت الى حد الآن بيناء قبرها ، ومن الضروري أن نعمل في ازالة الثلج المتراكم فوق القبر حتى لا تتسرب المياه الى الداخل . وبدأت علي علامات الارتباك ، ولكن أصحابي ظنوا أنني في حيرة من أمري اذ لا أملك لوازم البناء : لا صفيحة من القصدير ولا قطعة من القلن ولا بعض القصب لكي يوضع فوقها الطوب . فقالوا بصوت واحد :

— كن مرتاح البال ..

وهكذا عرض علي كل واحد منهم ما لديه من اللوازم ، وأخيرا اتفقنا على القصدير. ونزلنا الى تازروت لتنحية الثلج عن قبر أمي . لم يكن الثلج صلبا فأزحناه بأيدينا من غير أن تبلل ، ولم تتسرب المياه الى الداخل .

ثم أشرقت أشعة شاحبة على المقبرة فأشاعت فيها جوا من البهجة ، ولمت القبور كأنها المرايا الجديدة وتلألأ الضياء فوق جبال جرجرة الشامخة ، الا أن الثلج لم يسقط في الأراضي المنخفضة فظهر نهر السباعو كأنه محمر الجوانب ومتعكر اللون ، ورأينا السهول حزينة بعد أن مرت عليها ليلة من لبرد وخيم عليها جو من الكآبة. وسمعنا الأطلاق، ونحن في المقبرة،

يتصايحون من السرور ويتراشقون في الطريق عند مدخل القرية بكرات من الثلج ، ووصلتنا أصوات النساء وقد هبطن مواكب الى العين وهن يحذرْنَ الاطفال في شيء من الجِد والهزل معا حتى لا يكسروا جِرارهن . وأخذ أصحابي يترامون بالثلج ولكن سرعان ما كفوا عن ذلك ، ثم حثنا الخطى للرجوع الى الطريق على أمل أن نصادف سرب الفتيات من حيننا ، وقد لبست كل واحدة منهن تريكو وجوارب من الصوف وأحذية ، ورأينا وجوها وسيمة وخدودا ماردة من شدة البرد . وتقابلنا في الطريق فتبادلنا الابتسامات ووقعت عيناى على عيني ذهبية من النظرة الاولى ، وهذا ما كنت أريده ، فاحسر وجهي ووجهها معا لأن البرد قارس ولأننا مسروران من أن نلتقي خارج الدار في هذا المكان المغطى بالثلج الناصع البياض . ولم يفتن أصحابي لما جرى بيننا لأن النظرة كانت خافتة ولأن الابتسامة التي تبادلناها لم تدم الا لحظة وجيزة . ولما مرت الفتيات التفتن إلينا وقان لنا من بعيد :

— امنعوا الاطفال من رمينا بالثلج .

ولم يوجهن إلينا الكلام الا على سبيل المودة لأن الاطفال كانوا حينذاك قد ابتعدوا عنهن . وتكلمن بصوت واحد ، غير أنني استطعت أن أميز صوت ذهبية ، وتلك طريقة لطيفة لتوجيه التحية لي . وما كدنا نسمع كلام انفتيات حتى هجمنا على عصابة الاطفال فاستقبلونا بوابل من كرات الثلج ورددنا عليهم بالمثل .

وحينما اتجهنا الى المقهى فكرت في نفسي بأنتي سأتناول طعام الغداء على الساعة الثانية عشرة في دارها وسيكون لي مطلق الحرية في النظر الى وجهها الوسيم والتحدث معها حول مختلف الشؤون بمحضر أمها . وملأنتي هذه الفكرة بالفرح والسرور ، وأنا قانع بهذا ولا أطمع لأن أختلي بها وجهها لوجه ، ويكفيني منها إنها تكن لي الحب ، غير أنني لا حظت بأنها هي أيضا تخشى من عواقب تلك الخلوة التي تتسناها معا لأنها قد تفسد حبنا وربما تجعله يتطور الى مالا تحسد عقابه ...

وفجأة ساءت الأحوال الجوية في حوالي منتصف النهار وأظلمت قاعة المقهى حتى اننا توقفنا عن اللعب بالورق ، وأوقد القهواجي مصباح البنول أمام المجسر وطلبنا من الناس الواقفين أمام باب المقهى أن يدخلوا ويجلسوا حتى يفسحوا لنا المجال للتفرج . وكما أن الطقس تغير فكذلك تغير الجو داخل المقهى : فالذين كانوا يتكلمون جهرا خفضوا أصواتهم ، والذين دخلوا أخذوا يلقون تحياتهم في همسة لا تبين ، وينفضون برايسهم قبل الجلوس في حركة عصبية سريعة . وخيل للحاضرين ان الكتابة قد خيمت على المقهى ، الا أن أمزجتهم هي التي تكدرت نتيجة لعصف الرياح . لقد سيطر على النفوس غيظ لا يعرفون له سببا وأخذ يتسرب اليهم كلسا أحسوا بالبرد ينفذ اليهم رغم ما لبسوه من ثياب . ورأينا الثلج يتساقط حبيبات متراصة أمام العتبة فيتراكم على الأرض ، الا أن تلك الحبيبات لا ترى بالعين لأنها مستورة بالضباب الذي هبط من السماء . وسمعتني الشيخ

العجوز بشير أتكلم . فشق طريقه الي في وسط الناس وقال لي
وقد وقف من ورائي :

— يا ابن عامر ، هل فكرت في تغطية القبر ؟

وانشغلت عنه فقلت :

— نعم ، نعم ... أنا أوزع عليكم الورق .

— يا ابن عامر ، الله يرحم أمك .. أراك تلعب الورق .

— واحد ، اثنان ، ثلاثة ... سجل لي علامة يا صاحبي .

— اسمع لي يا عيروش ، انظر الى حالتي .. حالتي حالة الفأر .

— الفأر ؟ وما باله ؟

— يشكو من الجوع والبرد .

— يا قهواجي . هات قهوة ساخنة للشيخ بشير .

— الله يحفظك ويرعاك ... هل تعيرني سنعك ؟

وانشغلت عنه مرة أخرى ...

— اقطع وأعطني الورق .

— بارك الله فيك على القهوة ، وهل لديك برنوس قديم ؟ ..

سيشفع لك في الآخرة .

— يا مغفل ... أنسيت أن أمي هي التي ماتت لا أبي ؟ ..
كيف تطلب مني برنوسا ؟ هل تريد فستانا عتيقا ؟
— بارك الله فيك .. سأعطيه لبنتي . لقد عادت من الجزائر .

فقلت له بخشونة :

— وأنت بدورك لماذا لا تعطيني بنتك ؟

وقمقه رفاقي ضاحكين لهذه النكتة وطلبوا قهوة ثانية للشيخ
بشير . وفي تلك اللحظة بالضبط أحسست بأعصابي تتوتر
وأخذت أتململ في مكاني من الغيظ وشعرت بالرغبة في العض
والضرب والصراخ كالمجنون ... ومن حسن الحظ أن مقران
لم يكن موجودا في المقهى والا لأمسكت بتلابيه . غير أنني م
لبشت أن تمالكت نفسي فرميت الورق وقمت للانصراف بينما
كان رفاقي ينظرون الي في دهشة واستغراب ... وسخطت على
تقلبات الطقس وأسرعت الخطى في الثلج وأنا أسمع ريح الشمال
تئن في أذني .. وميزت في أليها صوت الشيخ بشير كأنه نعاق
الغراب ... وأدركت أن أملي في قضاء يوم ممتع قد خاب وألني
أفسدت على نفسي مشاريع النهار . وسأقضي الليل ساهرا لأسجل
بعض الانطباعات السخيفة .

وذهبت الى منزل ننه مألحة مباشرة ، ولكن لم أجدها في الدار
وعرفت حينئذ أنني وقعت في ورطة لأنني سأجد ذهبية لوحدها
تترقب مجيئي بالقرب من الموقد . وكانت الريح لا تزال تعصف

والثلج لا يزال يتساقط والمنازل المجاورة قد خيم عليها صمت
كثيب كما لو نزلت بها كارثة من كوارث الدهر فأهلكت ما فيها
ومن فيها ... وبدون أن أدري خيل الي. أنني دخلت في مغارة
تتلاطم فيها الأمواج وتعصف فيها الرياح ، ولعل السبب في هذه
التغيلات يعود الى ما نالني من التعب في السهر أو الى الحالة
النفسية التي استولت علي بعد زيارتي للمقبرة ، أو الى ما شعرت
به من الغضب المزوج بشيء من القلق بعد ما تبدل الطقس ...
أو الى هذه الأسباب جميعا : واحترت في أمري فما كان مني الا
أن أخذت أبكي قبل أن أتأكد هل ذهبية وحدها في الدار أم هي
مع أمها ؟.. ورأيت من خلال الدموع ، الدهشة التي ارتسمت
على وجهها ، ولعلها دهشة ممزوجة بخيبة الأمل ، وشعرت في
الحين بالخزي ، وأدركت أنها لن تنظر الي بعد اليوم بعين التقدير
لأنها لاشك فكرت في نفسها :

— يا له من غبي ، أهكذا يترك مثل هذه الفرصة تفوته ؟

غير أنني لم أكف عن البكاء .. انها الدموع الأولى التي ذرفت
عيني منذ أربعة أيام ، وقد بقيت تلك الدموع حبيسة أمام أمني
المحتضرة وأمام جثمانها البارد ، الى أن انهمرت من عيني بدون
سبب معقول ، ولعلها وجدت منفذا فأخذت تنهمر بغزارة كما لو
أن القطرة الأولى مربوطة بسائر القطرات الأخرى بخيط خفي لا
يرى ، وأنه لابد لهذا الخيط من أن ينفلت كله حاملا معه كل
ما احتبس من الدموع . وبكيت حتى ارتويت واذا بالغيط يخف
عني وبالكآبة تزول .

حينما دخلت وجدت ذهبية جالسة ، فاستدارت نحوي
وأخذت تنظر الي وتذكي النار وذهنها مشغول . رأيتها في
مكانها هناك وقد زمت شفيتها فبدا ثغرها صغيرا . أما أنا
فوقفت خلف أحد مصراعي الباب بالقرب من الصور المضرة ،
وكان المصراع الثاني من الباب مغلقا بسبب عصف الرياح ،
ولزمت الصمت ثم قالت لي :

— ستخفف الدموع من كربك .. ما كان ينبغي أن تذهب
اليوم الى المقبرة .

فأجبتها بعد أن مسحت عيني :

— أين أمك ؟

— ذهبت الى العين . ستجد صعوبة في الرجوع بسبب الثلج .
ولكن ، لا عليك ، فسأسرع للقاءها .. يجب عليك الآن أن
تتناول شيئا من الطعام . أما نحن فقد أكلنا . ظنت أمي أنها
ستعود من العين بسرعة لكي تقدم لك الطعام بنفسها . ولعلها
لا زالت تنتظر هناك الى أن ينقطع الثلج ..
— انتظري اذن الى أن تصل أمك .

ووضعت الطنجرة على النار في صمت وأشارت لي أن أتقدم
للجلوس بالقرب من الكائون فقلت لها :
— تلك الصورة .. أريدها منك .

— نعم سأعطيها لك .. ولكن عندما تذهب الى فرنسا .

— لن أذهب الى فرنسا .

— بلى ، ستذهب الى باريس بعد الشتاء ولا ينبغي أن تبقى هنا .

— وفي هذه الحالة سذهب معا .

— اذا شئت سأرافقك .

— أنت متأكدة من كلامك ...؟

لا أدري كيف خطر ببالي أن اعرض عليها هذا الأمر ، ولم أكن في الواقع أنوي سوى أن أمزح معها وأن أطلب منها المستحيل حتى تقابلني هي بالرفض فأغتنم فرصة ذلك الرفض لكي أستفزها . وتصرفت معها كأنني طفل صغير يتمثل للشفاء من مرض خطير ويريد أن يستغل مرضه ليطلب من والديه المستحيل ، وأردت أنا أيضا أن أستفيد من حالتي فمثلت أمامها ذلك الدور ... الا أنني وجدتها مستعدة لكل شيء ، وعرفت منذ اللحظة الأولى أنني سأقترب منها لأمسكها بين ذراعي ولأضمها الى صدري بكل قواي وسأتوصل لا محالة الى لثم ثغرها ، غير أنني أردت أن أطيل مدة الانتظار وأن لا أصل الى مبتغاي الا بعد وقت طويل .

وأحسست برجلي مثلجتين من البرد فانحنيت لأفك سيور حذاءي حتى أدنو من النار وأجلس متكئا على المخذة بالقرب من الكانون ونويت أن أمسكها بين ذراعي في تلك اللحظة ، ولا أظنها ستسانع .

وفي تلك اللحظة تساما دفعت نته مألحة الباب ودخلت وهي تلهث فكادت توقعني على الأرض ، ونظرت اليها فاذا بها قد

حملت جرتها المغطاة بالثلج على ظهرها ووضعت على رأسها قلنسوة
منزوعة من معطف عتيق . وكانت مبلولة بالماء تماما . وأسرت
ذهبية لتحمل عنها الجرة . وانقطعت أنا عن فك سيور حذائي ،
بعدما عزمت أن أنصرف في الحين وأن أعود الى داري لأذكي
النار كيلا تنطفيء ، وأحسست برغبة شديدة في أن أتدفأ لأنني
شعرت بفضة في حلقي تكاد تخنق أنفاسي . وأدركت انه مألحة
قصدي فقالت لي :

— ماذا أراك تفعل ؟ لماذا تنصرف الآن ؟ ابق معنا واخلف
عك الحذاء ... هل تناول الطعام يا بنتي ؟

— لا ... وكما تزين فقد وصل من لحظة وجيزة والطنجرة على
كل حال مخطوطة فوق النار .

— لا لزوم لتسخين الطعام .. أنا رائح دفني نفسك يا نه
مألحة وناديني بعد حين . ساكون في داري عما قليل .

والآن بعد ما ذكرت أحداث هذه الصبيحة بجميع تفاصيلها
آن الألوان لاستأنف قصتي من النقطة التي وقفت عندها البارحة .
وفي الحقيقة ما كان ينبغي أن أطيل الحديث عن الحاضر لأنني
لا أهتم الا بتسجيل أحداث الماضي . وعذري في ذلك أنني ربما
كنت متمسكا بننه مألحة وحريضا على صداقة أصحابي ، مما
سيجعلني في آخر الأمر أرضخ للواقع وأعيش الحياة التي قدرت
لي في اينغل-زيمان . لقد تحتم علي أن أعيش هذه الحياة الشبيهة
بالنبته المريضة العميقة الجذور ، وأن لا أستبدل بها غيرها ،

ومع ذلك فمهما يقع من أمر لا بد لي من أن أصرح بكل شيء ،
وليحدث بعد ذلك ما يحدث .

ثم ان هذه الفكرة أصبحت شغلي الشاغل منذ زمن بعيد .
وأنا أتذكر تماما اليوم الذي شعرت فيه لأول مرة بأنني أملك
زمام أمري ، أي أنني صرت أتحكم كما أشاء في نفسي وفي
حياتي . أتذكر كيف كنا حينذاك أطفالا صغارا نتسلق الأشجار ،
ونصعد الى قممها لنأخذ منها أعشاش الطيور ، وكنت أشطر من
القرد في تسلق الأشجار . وفجأة خطرت بيالي هذه الفكرة ،
خطرت بيالي وأنا واقف فوق أعلى شجرة الدردار على غصن
من أغصانها مشرفا على الوادي ، بينما أخذت ثلاثة طيور بيضاء
من الطيور الجارحة تحلق فوق رأسي بحثا عن فريسة . واعترتني
نشوة من الحماس قصصت بأعلى صوتي :

— انظر الي يا مقران ، انني سأقفز من هذا المكان ، نعم
سأقفز .

ورفعت يدي عدة مرات واستنشقت الهواء بعيق كمن يريد
بالفعل أن يقفز غير مكترث بما عسى أن يحدث . بعد ذلك ،
وشعرت بنفسي خفيفا سعيدا ومستعدا للذهاب الى بلد ساحر
اكتشفته فجأة فأخذ يجذبني اليه بقوة لا تقهر . ولكم كان الأمر
سهلا يومئذ لو أنني ألقيت بنفسي من أعلى الشجرة ... أما
الآن ...

أما الآن فأنا أعرف أن الأفراج ، وجنة النعيم ، والسعادة
موجودة في هذه الدنيا ، وأن الأتراح ، وجحيم البؤس والشقاء

موجودة هي كذلك في هذه الدنيا ، وأن المسألة بالنسبة لكل
إنسان مسألة نصيب ، فاما النعيم أو الجحيم ...

لن أنسى أبدا يوم فتحنا قبر جدي قاسي لنضع فيه جثمان
أمي ، وكنت أنا المشرف على هذه العملية ، فأزحنا أولا الأحجار
الفوقائية ثم أخذنا نحفر الى أن كشفنا عن الأحجار السفلى تحت
متر مكعب على الأقل من التراب . وعندما رفعنا الأحجار التي
تغطي الجذث أحسست بقلبي يخفق من التأثر ولكن لم أشعر
بالخوف ، وقلت في نفسي :

— ها هو جدي نائم في رسمه مستريح البال كأنه دودة القز
في عشها . وقد أودع في هذا المكان منذ أربعين سنة . أترام
يبعث حيا ليفلت من قبره ويطير كالفراشة ؟

كشفنا عن تلك الأحجار فخرج رفاقي من الحفرة ووقفوا
بجنبني على حافتها وراح أحد الشيوخ من أبناء العم يرفع الحجارة
الأولى وانطلق لسانه بالدعاء : « بسم الله والصلاة والسلام على
رسول الله » ونحن ننظر في قلق ما عسى أن يحدث وتتبع كل
حركة من حركاته لكي نرى ما ينطوي عليه جوف القبر .

وأظن أن حالتنا النفسية كانت متشابهة وأنا تأثرنا للمنظر
تأثرا كبيرا ... وأزاح الأخجار واحدة بعد الأخرى ، وعددها
أربعة ، وأخذ يناولنا كل واحدة منها على حدة فمسك بها باليدين
معا ونضعها فوق الركام من التراب . وكلما فعلنا ذلك تلقى نظرة
الى الداخل ، غير أننا لم نندهش لما رأيناه .

رأينا الهيكل العظمي كأنه لعبة من اللعب العتيقة المفككة
الأوصال أو كأنه فريسة من الفرائس التي تتركها الذئاب في
الغلاء... الجمجمة مستندة على القفا ، ومحاجر العيون فاعرة ،
والفك الأسفل قد انفصل عن الجمجمة وانطبق على العنق ،
والقفص الصدري انهارت قوائمه ، وما تبقى من الأضلاع انهار
على جانبي العمود الفقري . أما الحوض وعظم الفخذ والساق
فقد سلمت من البلى . والتقطنا العظام بمنتهى العناية حتى نفرغ
الحفرة تماما ونفسح المكان لجثمان أمني . وتناولت بين يدي
جمجمة جدي فظهرت لي كبيرة الحجم قاسية صلبة ، ولم أتجاسر
أمام الناس أن أضع عليها شفتي ، غير أنني تأثرت جدا فلامستها
برفق وحنان وتمنيت لو أنني أستطيع أن آخذها معي وأن أحتفظ
بها عندي في الدار لتكون دائما ماثلة أمام عيني كتماثيل الجودود
وعظماء التاريخ... ولكن هذا لا يجوز ومصيرها أن تعود ثانية
الى القبر . وقد وضعناها في كيس من نفس قماش الأكفان لأن
العادة تقضي عندنا أن نضع في كيس كل عظام الميت الأول ثم
نعيدها الى القبر بالقرب من رأس الميت الجديد . وأخذت أفكر
في نفسي وأنا أمسك بين يدي تلك الجمجمة :

— سيأتي دوري ذات يوم وسأنتهي الى نفس المصير ، وعند
ذاك أستريح . ولكن قبل أن يحين ذلك الوقت كم من آلام
سأذوقها وكم من دموع ستذرفها عينايا ؟ ولن أتألم ولن أبكي
كالجبان ؟ .. آه .. ليتني صرت كهذه الجمجمة لأنها حرة طليقة
ولا تحفل بالدنيا وما فيها ومن فيها ولا تحس بشيء ولا تكثر
لشيء أبدا .

اليوم السابع : 26 يناير من الحمسينات

في هذه الليلة سأطفيء المصباح مبكرا ، وسأظل ساهرا وحدي في الظلام بالقرب من المدفأة التي يتوقد فيها الجمر ، لأن الطقس بارد . لقد تراكم الثلج الذي لم ينقطع طيلة الليلة ، وحينما فتحت الباب في الصباح رأيت كل شيء من حولي قد اكتسى حلة بيضاء كما لو أن قريتنا ملفوفة في القطن . وظل الثلج يتساقط ، الا انه تناقص في الشدة فلا تكاد تراه العين في الضباب ، بل لا يكاد يميز الانسان على بعد خطوات منه معالم الاشياء وأطراف الكائنات . واعتراني حزن لا أعرف له كنهها وشعرت به ينفذ الى أعماق نفسي مع زمهرير البرد الشديد ، وأحبست بجسمي ضعيفا خائر القوى ، عاجزا عن مقاومة ذلك الجو المكفهر الذي استقبلني بمجرد أن فتحت عيني ، وكأنه ينبعث من أشياء لا أستطيع ادراكها : أو من مخلوقات تريد بي شرا ، أو من قوم يضرون لي الحق . . . وأول ما لاحظته أن الباب الخارجي مفتوح ، وكنت قد أغلقتة بنفسى عشية البارحة . وقد تراكم الثلج بين مصراعي الباب حتى نصف ارتفاعه ، وتطلعت الى ما بين الباب الخارجي والدار ، فلم أجد أي أثر ولم أر

سوى الثلج ، وقد انبسط كأنه فراش وثير . لم أجد أي أثر
لوقع أقدام . ولا شك أن الباب قد فتح ليلا ، ولعل الشخص
الذي فتحه دخل الى باحة الدار ودنا من قفل الباب وألقى من
ثقبه نظرة الى الداخل . ومن يدري فلربما كنت حينذاك جالسا
أمام صندوقي لأسجل هذه اليوميات السخيفة ..

أنا لا أنوي بأحد شرا ولذلك أنا متأكد أنه هو ، ولو كانت
أمي لا تزال على قيد الحياة لقلت :
« ومن عساه يكون ؟ انه بالطبع مفران .. » .

لقد رأيت بعيني آثار نعاله المصنوعة من المطاط ، رأيتها
مرتسة فوق التربة المبلولة أمام سقيفة الدار . أي والله .. لقد
أجترأ هذا الشخص علي ولا بد من أن آخذ حذري . وصادفته
في المقهى منذ حين واقفا بالقرب من المنضدة ، فركزت بصري على
أحذيته العتيقة وعلمت من أصحابي أنه كان يسترق النظر الي
كالجبان . وسرعان ما شرب كأس الشاي وخرج من المقهى على
عجل . واقترب مني الصانع وربت على كتفي قائلاً :
— أراك تخوف الزبائن يا بطل .

وتضاحك الحاضرون لهذه الكلمة . أما أنا فلا أخفي أنني
وقعت في ارتباك ، لأن هذه الكلمة ستنقل اليه في الحين ، وأكره
شيء لدي أن يشغل الناس بنا ... صحيح أنني أحتقره وأنه
يضر لي الحقد الدفين ، ولكن هذا الأمر ييني وبينه ، فما بالهم

يتدخلون فيما لا يعنيههم ؟ وأنا بودي أن لا أنشغل به لأنه يساوي
الصفير عندي. ولم أقم له أبدا أي وزن . وبما أنه يعرف أنني
أقوى منه ، فقد سؤلت له نفسه أن يستعمل هذه الطريقة
الخشيسة وأن يخلف من ورائه آثارا تدل على مروره ليلا بالدار
حتى يرهبني ويجعلني أعتقد بأنه شخص خطير . وهذه عادة قديمة
درج عليها كل من ينتمي الى بيت آيت سليمان . فهم جبنا ،
ونحن نعرفهم من عهد بعيد ، ومنهم من يتعاطى السرقة ليلا ومنهم
شهود الزور ومنهم الجواسيس ... وما من أحد منهم الا وتجد
متصفا باحدى هذه الصفات الذميمة ، وليس مقران سوى
أحدهم .

عندما كنا صغارا ظل هذا الشخص الحقيق مدة طويلة يبعث
في نفسي الرعب ، الى أن استطعت ذات يوم أن أتغلب عليه كما
تغلبت على غيره من الأطفال ... ولكن كنت أهينه فيما بعد ،
ومنذ أن دخلنا المدرسة الابتدائية أخذ يكرهني ، وأصر على
كراهيته تلك الى حد اليوم وامتلا قلبه بالحقد ، فقد العاجزين ..
وليس في ذلك ما يدعو الى الدهشة لأنني وسيم الوجه بينما هو
قصير القامة ونحيل ، وأنا متفتح مع الناس بينما هو خبيث
السريرة ومنطو على نفسه ، وأنا دائما أعد بين الأوائل في حين أنه
بليد ومتخلف في دراسته ، وأنا متمرد على التقاليد أما هو فما
عرفته الا متعصبا يتقيد بالنطقوس الدينية ويزور أضرحة الأولياء
ويحترم شيوخ المرابطين على غرار ما يفعل جميع أقاربه . وأنا

على يقين أنه في قرارة نفسه لا يعتبرني مسلما وأنه شطب اسمي من قائمة المؤمنين بالله ، ولولا تعصبه لمرف ان وطننا واحد وأن إلهنا واحد ، ولكن لما رأيت الأمر كذلك تنازلت له عن حقني ، فليهنأ بحده بالدين والدنيا . وعندما ألقنا الخلية الشيوعية رفض أن ينضم إلينا لأن الشيوعيين في نظره مسيحيون . وأخوه هو الذي وشى بنا أنى القائد مما جعل السلطات تكافئه على وشاياته بتعيينه ناطورا وكاتبا للمركز البلدي في إيغيل نزمان . انهم قوم من أسفل عباد الله ، فكيف أخاف من أمثال هؤلاء الناس أو من مقران بالذات ؟ بل أنا في بعض الأحيان أشعر بالشفقة عليه : ولكن ما العسل معه اذا كان قلبه يتقطر بالبغضاء ؟ وعلى سبيل المثال : لما عدت من فرنسا منذ ستة اشهر ، ورجعت منها جديدا اذا صح التعبير . أتيق الملابس . مشرق الوجه ، كاد هذا الشخص أن يموت من الحسد . والدافع له الى هذا السلوك هو أن هذا الحيوان تزوج ... تزوج بفتاة هي من أجمل البنات في القرية ، وهذه الفتاة أتيح لي عدة مرات أن أراها وأن أتعرض لها في الطريق فأعجبت بها حتى انها أصبحت تبادلي الاعجاب . وأنا لا أستطيع أن أصف النظرة الشزراء المحملة بالغضب والبغضاء والحقن التي رماني بها عندما صادفته لأول مرة في الطريق برفقة زوجته ، وقلت في نفسي :

— لقد وجدت اليك منفذا يا هذا . وسأجنن عقلك .

من الناس من يقول بأنني لا أقيم أي اعتبار للقيم والمبادئ ... ولكن ما هو ذنبي ؟ وهل هناك عيب اذا استطعت أن ألت

نظر هذه الفتاة الجبيلة ؟ وهل أنا مسؤول إذا أحس هو بطعنة في قلبه عندما لاحظ ذلك ؟ انه لا يفتأ يراقبها كالكلب المسعور منذ أن وصلت الى القرية . وذات يوم ثارت ثائرتة . وقصتي معه معروفة : فقد تناقلها الشبان وانحازت الى جانبي البنات وأخذ الناس ينظرون الي كأحد أبطال القصص الغرامية .

كانت ذات يوم ماشية في طريقها الى الحقل لوحدها تماما ، فسرت وراءها بعض الوقت لا عن سوء نية ، وكل ما في الأمر أنني أردت أن أغازلها بدون احراج لها . وبعد قليل لاحظت أنها تباطأت في مشيتها ، وعند ذاك أردت أن ألحق بها . وفجأة رأيت مقران واقفا بيني وبينها كأنه خرج من جوف الأرض . وبقينا لحظة واقفين وكل واحد على بعد خطوات من الآخر ، الا أننا لم نتبادل أية كلمة .

وتركتهما ينصرفان ثم واصلت بدوري طريقي الى مقبرة تازرروت ، غير أن الأمور لم تقف عند هذا الحد بالنسبة لزوجته ، فبعد عودته الى الدار أشبعها في الليل ضربا وتعنيفا حتى أفسد وجهها ، وعندما لاح الفجر فرت المسكينة الى دار أهلها .

مما لاشك فيه أن مقران لم يكشف أبدا لأي إنسان عن السبب الذي دعاه لمعاملة زوجته بتلك القسوة ولماذا طردها من الدار . وإذا كانت القصة قد وصلت الى مسامع الناس في الحين فذلك لأن هذه الفتاة لم تخبيء شيئا من القضية . وكذلك فعل أهلها ولعلمهم أرادوا بذلك أن ينتقموا منه .

لست حريصا على أن أحظى بهذه الفتاة خاصة أنه لن يطلق سراحها أبدا لأن التقاليد تعطي له الحق في إبقائها معلقة في ذمته .
وإذا قدر لهما أن يعيشا بقية العمر في تعاسة فأنا لست مسؤولا عن ذلك . وعلى كل حال فليطسن بأمني لن أخطفها منه أبدا ، خاصة في الوقت الراهن .

أظنه مغرما بها .. لذلك فكثيرا ما سخرنا منه بعبارات فيها تورية وتلميح . فيتظاهر بأنه لم يفهمها . ولعله يقول في نفسه بأنها تحاول أن تخونه بل ربما خاتته بالفعل ، ولكن ، من الواضح أنه يعتبرني أنا ، عيروش . بين الشبان المنافسين أخطرهم . وأنا على يقين أن ذكر اسمي في داره ممنوع منا باتا . ولقد حاولت مرارا من جهتي أن أخفف من شدة العداوة بيني وبينه حتى أبعث فيه الثقة ، وأدخل في نفسه الاطمئنان . غير أنه قابلني في كل مرة بالصدود . ليذهب الى الجحيم اذن . وليظن بي ما يشاء من الظنون ، فلن أنزعج بالمرّة . ولا بد أن أستريح من شره نهائيا ، وغدا سأصفي معه الحساب .

ولكن ما الفائدة من اهاتته مرة أخرى ؟ لن أفعل ذلك ، بل سأكتفي اذا قابلته أن أقول له بأمني لا أخاف منه . ولكي أبرهن له أنني لا أخشاه ، فلن أغلق الباب بعد اليوم . خلاص .. لن أغلقه . وأنا متأكد أنه عندما يلاحظ ذلك سيغير رأيه في الموضوع . وسيعود الى رشده . وأما أنا فسأنام مرتاح البال .

اليوم الثامن : 27 يناير من الخمسينات

رقدت البارحة في حوالي منتصف الليل . انتظرت مقران ،
الا أنه لم يأت ... أعتقد أنه لن يكلف نفسه مشقة المجيء ،
وإذا كانت نيته هي أن يقتلني فسي فعل ذلك في أي مكان آخر وفي
أي وقت من الاوقات . وفي هذا الصباح قلت لرفاقي - وهو
حاضر معنا - انني لن أغلق بعد اليوم الباب لأن هذا الباب
اللعين أخذ في المدة الاخيرة يفتح لوحده . وسمعتي مقران فلم
يعلق على كلامي بشيء .

هذا يوم كتيب كسائر الأيام الأخرى .. لم يسقط الثلج في
الليلة الماضية ، غير أن المطر بدأ ينهمر في الصباح الباكر . وقد
استيقظت في حوالي الساعة وأشعلت الكانون وأعددت القهوة
ثم خرجت على عجل تاركا الباب مفتوحا حتى تتمكن منه مالهة
وذبية من الدخول . وأمضيت النهار كله خارج الدار ، وحينما
عدت أحضرت لي ذببية طعام البكسكي ، وكانت قد رأيتني هي
وأما وأنا أدخل الى الدار ، أو بالأحرى سمعتا وقع خطواتي ،
لأن الجو كان مظلما . وها هي ذي تبعث لي ابنتها بعد أن قضيت
النهار كله خارج الدار :

— مبناء الخير يا دادا (1) عامر ... أحضرت لك طعام العشاء .
كنت في بيت سعدي فيما أظن .. انه لشيء مؤسف ما حدث لهؤلاء
الاخوات .

— نعم ، كنت في منزلهن وأظن أنني سأعود لحضور المائتم
كبقيّة رفاقي ...

— وأنا أيضا لم أكل شيئا ، لأنني أحس بمغص في معدتي .
أما أنت فينبغي أن تأكل ، وخاصة أنك لم تتناول شيئا ما عدا
قهوة الصباح . أنا متيقنة أنك لم تأكل شيئا طول النهار ، وأتيت
الآن لأرتب لك البيت .

— صحيح ما تقولين ولكن أكلت خارج الدار مع أصحابي ،
أكلنا سمكا وخبزا ...

— وشربتم خمرًا .

— وكيف عرفت ذلك ؟ أتريدن أن تتأكدي ؟ اقتربي مني ..

— رفعت غطاء صندوقك هذا فوجدته مليئا بالأوراق ..
أتراك تكتب يومياتك ليلا ؟

— يا لك من متطفلة ... وهل قرأت شيئا منها ؟ طيب ، لن
أنسى بعد اليوم أن أغلق الصندوق .

— لا ... ما قرأت شيئا لأنني لا أجيد القراءة . وأنا أيضا
لن أنام هذه الليلة ، وعندما تعود من المائتم وقت الفجر سأسمع
خطواتك ... لا أعرف كيف أقضي الوقت يا دادا عامر .

1 — دادا : كلمة يخاطب بها الصغار الكبار من الرجال ، احتراماً لهم ، (انظر
كذلك الحاشية في ص 9) . (المترجم) .

قللت ذلك ثم انسلت من الدار . ولما ناولتني صحن الطعام تلامست أصابعنا ، وأظن المسألة مقصودة من طرفها ، ولكن لم يتعد الأمر هذا الحد .. انه شيء مؤسف بطبيعة الحال .. مؤسف أن تضيق الفرصة مرة أخرى . أظنها حمقاء ... لو كنت محلها .. فيا ليتها اقتربت مني لكي تسند رأسها على صدري ، ولعلنا بذلك ننسى الهموم والأحزان .. اذن لضممتها بين ذراعي في صمت ، داعم العينين ، متهيج النفس بالرغبة والتأثر ، واذن لبكينا معا ... ولكنها لا تعرف ، لأنها حمقاء .

لماذا هذا الحزن كله ؟ وهل الذنب ذنبنا اذا كانت رحمة قد انتحرت ؟ ماتت وانتهى الأمر .. سنسهر عليها الليلة ، وغدا ندفنها كما دفنا أمي في مقبرة تازروت منذ ثمانية أيام خلت . أما الدافع لها على الانتحار فهو أمر لا يقره ذوو العقول النيرة ، وأنا على كل حال لست منهم ... الله يرحمها . ما كان ينبغي على ذهبية أن تهرب مني . وما شأننا نحن في انتحار تلك المرأة ؟ وهي لم تصل الى مرغوبها الا بعد مشقة لأنها ما فتئت منذ سنتين تحاول أن تضع حدا لحياتها التعسة . ولكن بدون جدوى . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على أن الموت لا ينقاد لمشينة الانسان . أما في هذه المرة فقد نجحت محاولتها ، فهنيئا لك على ما فعلت يا رحمة ولتنعمي بالراحة الأبدية ، فقد دفعت ثمنها غاليا .

لم أعر هذه المرأة أي اهتمام في السابق . ولا أعرف عنها الا القليل . انها امرأة عانس مؤمنة : ساذجة العقل ، وأغلب

الظن أنها لم تعرف الحب طول حياتها ، وعاشت في ايغيل نزمان تحت سمائه الزرقاء في ذلك الأفق الضيق المحدود من جميع الجهات بالجمال الشاهقة المكسوة بأشجار الزيتون .. عاشت في تلك البقعة المحدودة الرقعة الشبيهة بالوعاء المتسع في أعلاه المتضيق في أسفله ، في أعماق الوادي ، حيث ينساب الجدول الوحيد الذي تعرفه بالاسم فقط ، لأنها لم تعبره أبدا لكي ترى ما يجري على الربوة المواجهة للقرية . تلك هي رحمة : امرأة كغيرها من نساء بلادي لا أكثر ولا أقل .

ورد في القرآن الكريم انه : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » . على أن رحمة حينما انتحرت لا أحسبها قتلت نساء ايغيل نزمان جميعا . وقد جعلني صنعها أنظر اليهن نظرة جديدة لا تخلو من شيء من الاحترام . صرت أقول في نفسي كلما صادفت احداهن في الطريق : هذه امرأة أخرى يمكن أن تصنع ما صنعت رحمة ...

ولقد تحسبها غيبة أو متعنتة أو ميالة للجد أو الهزل ، ولكن لا يعلم الا الله ما تخفي وراء تلك المظاهر . ألم تكن رحمة بالأمن القريب امرأة كغيرها من النساء ؟ لقد عاشت كما تعيش هذه المرأة ، وكانت أحسن من تلك ، وأسعد من البعض الآخر منهن ، وما ماتت نساء ايغيل نزمان بموتها . غير أن كل واحدة منهن تستطيع اذا شاءت أن تستريح من أتعاب هذه الحياة ، ورحمة هي التي فتحت لهن الطريق ..

كان من الممكن أن تعيش عشر سنين أو عشرين سنة ، غير أنها رفضت ذلك وقالت لي أختها بأنها كانت تستعد لهذا الأمر منذ سنتين ، وأنها لم تستطع أن تمنعها من تنفيذ فكرتها ، وأن تظل باستمرار متيقظة ومتنبهة لحركاتها وسكناتها طيلة أيام وشهور .

من الصعب أن يعرف الانسان كم تبلغ أخت رحمة من العمر وأظن أنها أصغر من المرحومة .. وكيف يعرف الانسان عمرها ووجهها التمس شاحب كأنه ورقة من الأوراق الذابلة ؟ كل ما فيها عتيق وأصبح رثا باليا لا من حيث اللباس فحسب ، بل من حيث البدن أيضا . ولا يمكن لك أن تعرف ما اذا كانت نظيفة أو وسخة ، فهي كالمعدن الذي علاه الصدا ، فلا يغير من حالته الصابون ولا الوسخ المتراكم عليه .

عندما أخذت تحدثني ، شعرت بالألم والحزن ، وخطرت ببالي أمور كثيرة نسيت أكثرها فيما بعد ، ومن جملتها أن حياتنا البائسة الشقية تتجسم في هذه المرأة . فقد كان من الممكن لولا ظروف حياتنا أن تكون جميلة ، شابة ميالة للبهجة والسرور ، مشيرة للاعجاب ، وكان من الممكن أيضا أن يحبها الناس وأن تعيش معه سعيدة . وعوضا عن كل هذه الصفات فهي خالية من كل ما يستهوي النظر ويرغب الناس فيها ، وكأني بها تقول لمن ينظر إليها :

— عما تبحث ؟ عن معنى الحياة وسرها ؟ من العتب اذن أن
تطيل البحث فما عليك الا أن تنظر الي .. فلن أخبيء عنك
شيئا . ولكن لا تنخدع بغيري .. فمن أراد أن يعيش في هذه
الحياة عليه أن يدخل معركة الصراع من أجل البقاء حتى تصبح
يداه خشنيتين . وعليه أن يمشي حافي القدمين الى أن تصبح
أقدامه قاسية كالجلد السميك . وأن يصبر على الجوع الى أن
تتوتر قسما ت وجهه وتبرز عروقه ويصبح منظره مخيفاً ..
وليكدح من أجل لقمة العيش الى أن تحين ساعته الأخيرة ،
ولكن لا ينبغي أن يتعجل تلك الساعة وليتركها تحين من تلقاء
نفسها ، لأن الحياة تستحق أن يعيشها الانسان مهما كانت
قاسية .

هذه فيما أعتقد هي الافكار التي تدور في خلد هذه المرأة ،
وكلما استمعت اليها تتكلم أشعر ألها تاتهمني بفمها الشره ،
وتزدرني بدون شفقة وتمص دما ئي كأنها أخطبوط ، فأصبح
عصاة متمزج بافرازاتها وأذوب فيها فأعيد الى وجهها الشاحب
تورده وأبعث في عينيها الكبيرتين الجامدتين بريق الأمل .

تملكني هذا الشعور الغريب فلم أتخلص منه الا بعد أن
أغمضت عيني وفركنها بيدي فرأيت أمامي تلك المرأة البائسة
التواضعة المـ... تسلمة لشئبة القدر ... ويبدو لي أنها مستسلية
اليه عن وعي وفي شيء من الأنفة والاعتزاز بالنفس ، وأظنها
تستحق التقدير والاعجاب لأنها أدت واجبا كبيرا لا يخاو من

السمو والنبل ، وهو أنها جابهت الموت وقاومته وتمسكت بالحياة كأشد ما يكون التمسك .

وبهذا الاعتبار فإن أختها رحمة هي التي أخطأت لأنها لم تقم بواجبها ، وعذرهما الوحيد هو أنها مجنونة . وأنا على يقين أن الانسان لا ينتجر الا اذا كان مجنونا .. وما أنا بمجنون ولله الحمد .

ذهبية معها حق : الأحسن أن أغادر هذا البلد اللعين ... لم يعد يهمني أن يتشفى أولاد آيت العربي ومقران وأمثاله حينما يتخلصون مني . سأبيع الدار والحقل وسأرحل عن هذا المكان ، ولا بد لي أيضا من أن أنسى ذهبية وأما الحمقاء ، ولن أجد في ذلك أية مشقة . سأتححر من كل قيد لأنسي على كل حال لا أرضى بالقيود ولا يجدر بي أن أتكلم في شؤوني على هؤلاء الناس . واذا سألتني شخص من أنت ؟ فسأجيبه : أنا السان . أو قال لي : من أين أتيت ؟ فسأرد عليه : وفيهم يهكم أن تعرف ذلك ؟ أما أبناء البلاد فسأتهرب منهم وأتجنب لقاءهم لأنهم تافهون أينما كانوا .

ها هي ذي قد مرت ستة أشهر على وصولي ، والربيع أصبح على الأبواب .. فمن الطبيعي اذن أن تهتز في نفسي الأوتار الخفية التي تدعونا للرحيل . ومهما تظاهرت بالصبر فأنني في الواقع أفكر في الرحيل كما يفكر فيه جميع الشبان . ومن العبث أن أماطل ، بل يجدر بي أن أقطع البحر في الحين من

غير أن أنتظر أحدا ، وإلا فأنتي لن أفلت من اينيل نزمان ...
وإذا حدث ذلك فسلام على المشاريع ، لأنها ستتبخر هباء كما
تبخرت من قبل .

ليس لي من الصبر ما يساعدني على التعبير بطريقة مرتبة عن
كل ما يجيش في نفسي من الخواطر .. مسكينة أنت يا أمي ، فقد
جعلت مني رجلا فاشلا .. أنا ساخط على ذلك المعلم الذي
أدخل في نفسك الوهم وجعلك تعتقدين بأنني ذكي ، وأستطيع
أن أواصل دراستي . والا فما علاقتي أنا بالمدرسة الثانوية ؟
لقد طردت منها بسبب سوء السلوك والعصيان ومطالعة الجرائد
المحظورة وغير ذلك من الأسباب . ثم صرت على رأس خلية
شيوعية في اينيل نزمان . ودام الأمر عدة سنوات . هل تتذكرين ؟
عدة سنوات كنت خلالها أعيش على حساب الغير وأشرح
للناس أفكارني عن الانسانية المعذبة .. جميع الشبان ملتفون
حولي . لكم كان ذلك العهد جميلا : نقضي الوقت في مطالعة
الجرائد والمنشورات ، والسهر في الحقول ، والمجادلة ، وشرح
المبادئ ، ووضع الخطط .. ونمني المنخرطين الألماني العذاب ،
وننتقل بهم الى عالم أفضل حيث يصبحون رجالا بأنهم معنى
الكلمة ، وتجد مواهبهم الكامنة مجالا للتفتح . ولكن واحسرتاه
على ذلك الزمان الذي انقضى ولن يعود ، لأن الجاسوس العميل
وشى بنا للسلطات بسبب الشعب الذي نقوم به واضطراب
الحالة ، وعلى اثر تلك الوشاية نفت السلطات اثنين منا الى
الصحراء ، وتفرق شملنا كسرب من العصافير . أما أنا فقد غضب

علي الحاكم الفرنسي غضبا شديدا ، ولكن شفع لي عنده أن أُمي
فرنسية فنجوت من النفي الى مدينة بشار رغم سوابقي في
المدرسة الثانوية . وارتفعت أُمي لهذا الأمر فلم تر بدا من
أن تبعث بي الى فرنسا ، وبذلك انهارت أحلامها نهائيا . كان
همها الوحيد منذ أن كنت صغيرا هو أن أحصل على وظيفة أو
حرفة من الحرف أمارسها هنا حتى لا أضطر كغيري من أبناء
قومي للتغرب الى فرنسا ، ولطالما سمعتها تقول بأن واجب
الآباء هو تهيئة المستقبل لأبنائهم ، فاذا عرفوا الطريقة المثلى
فإن أملهم يتحقق . وتضيف بأن الآباء يقومون بالتضحيات في
سبيل أبنائهم ويرشدونهم للخير والصلاح . ثم تختتم كلامها
قائلة بأن الآباء لا تنجح مساعيهم الا اذا كان الأولاد أنفسهم
صالحين ، وبئس مصير الفاسدين منهم ، الذين لا يريدون أن
يشمروا عن ساعد الجد ، فأولئك لابد من أن يرحلوا الى
فرنسا ويتغربوا فيها ، وهناك ستواجههم الحقائق المرة .

وبما أنني كنت مطاردة من طرف السلطات فإن الرحيل الى
فرنسا هو أحسن الحلول .. أضف الى هذا أن الجرائد التي
كنت أقرأها تنسب دائما بصداقة الشعب الفرنسي الذي
يمد يد الإخاء والصداقة الى الشعب الجزائري « الكادح » حسب
تعبيرها . ان الناس في القرية يتحدثون عن فلان أو فلان
ممن ذهب الى فرنسا فأثرى فيها ثراء كبيرا وأصبح يتعامل
بالملايين ويملك في باريس أو مدينة ليل البنايات والمقاهي والمطاعم
والمحلات التجارية . وفي مثل هذه الحالة كيف لا نرحل أفواجا

نحو الترف والهناء ؟ وكيف لا تترك المجال مفتوحا للعنلاء لكي يعيشوا في الأرض فسادا ويدلوا بأصواتهم في الانتخابات لصالح الحكومة .. ؟

وآين أنت الآن يا سعيد ؟ مضى شطر كبير من الليل يا صديقي وأنا الآن قابع وحدي أمام صندوقي ، فهلا تطلعت من ورائي لكي تقرأ هذه الأسطر ؟ كن مؤنسي في هذه الليلة كما استأنست بطيف أمي لأتني لا أخاف من الأموات ... سأحدث عنك يا صديقي ، عنك وعني .

سامحني يا سعيد ان أنا فرطت فيك ، فلم تبرح خيالي أبدا ، وقد فكرت فيك عندما كنت منذ حين أستمع لحديث البنت سعدي ، وقررت أن أكتب قصتك في هذه الليلة وأن أتحدث عن سفرتنا التي كانت بالنسبة اليك هي السفارة الاولى والأخيرة .. ولكنني الآن محطم ولا أقوى على الكتابة ، فإلى الغد اذن لأتني أريد أن أكون مرتاح الذهن حين أتحدث عنك ، ومن الأفضل أن أنتظر .

ترى كم الساعة الآن ؟ لا يهم .. سأقضي بقية الليل هناك مع الاخوان الساهرين في دار المرحومة ، وقد وعدت ذهية أن أشعرها بحممة خفيفة حينما أمر على بيتها لتعرف بأبني عدت من المأتم .

الى الغد اذن يا سعيد ..

اليوم التاسع : 28 يناير من الخمسينات

غادرنا ايفيل نرمان على الساعة الخامسة صباحا ، في يوم من أيام شهر أبريل بطبيعة الحال .. القرية لا تزال نائمة والنادي يسود فيه الصمت العميق .. ومررنا على النادي بخطوات ثابتة هي خطوات الرجل المبكر الذي يذهب ليكسب قوت يومه .. سيارة النقل في الانتظار على بعد كيلو متر من الدار ، في القرية المجاورة ، وستقلع على الساعة الخامسة والنصف . وشعرت بلوعة الفراق وشدة الحزن ، وأحسست على خدي قريبا من الأذن بمنطقة لا تزال مبللة ولعل دموع أمي هي التي بللتها .

ومسحتها بيدي بحركة سريعة ، ولكن ربما كنت متوهما ، لأن الدموع سرعان ماتتجف .. وطلبت من أمي بالحاح أن لاتخرج من الدار ، وقلت لها بأنني رجل وأنه لا يجدر بها أن تكون كغيرها من النساء الحق ..

... أعاهدك يا أمي أن أكون رجلا بأنهم معنى الكلمة ، وأنت أيضا ستبرهنين أنك أفضل منهن جميعا . وأطلب منك أن تعلمي والدة سعيد الصبر ، فهي لا تكاد تسلو على فراق ابنها .

وبعد أن تجاوزنا النادي أوقفني سعيد قائلا :

— يا صاحبي ، زوجتي لم تقبلني عند الوداع . هل هذا أمر طبيعي ؟ .. رأيتها تدخل الى غرفتها رائحة ، ناعمة ، كأنها صورة مريم العذراء ، لكي تذرف دموعها وتبكي وحدها . انها لم ترد أن تشارك أُمي وأخواتي في النخب : ليتها تعرف كم يعز علي فراقها .. ولا يخفى عليها أن كل من يذهب الى فرنسا لابد من أن يعاشر النساء .. وأما من ناحيتها فأنا مرتاح البال : ستكون عليها حراسة شديدة .

فقلت له :

— كاني بهذه الصبية الحماء قد سحرت عقلك .. ألا يجدر بك أن تفكر في أمك المسكينة ؟

— وأنت يا ولد الرومية ، ألم يكن يجدر بك أن تبكي على أمك التي تركتها وحدها ؟ أما بالنسبة لتلك الصبية الحماء ، فأنا أراهنك أن لها من المخ أكثر مما تتصور . هل تدري بأنها أعطتني ألفي فرنك ؟ انه مبلغ لا يستهان به كمصروف للجيب . وقالت لي بأن أمها هي التي أعطته إياها . على كل فأنا لم أقبل هذا المبلغ في الحين ، وكان بإمكانها أن تحتفظ به وأن تستعمله كمصروف في فترة غيابي . وحينما مدت الي الدراهم شعرت أنه لا يجدر بي أن أرفض ، وعلمت أنها قررت ذلك من أيام عديدة . وقضينا ليلة سعيدة ولم يتطرق أحد منا ولو عن طريق التلميح لما كان يشغل بالها . على أنها كانت تسأل بين الحين والآخر :

— ترى هل سوف تنساني .. ؟

— ما بالك تقولين هذا الكلام ؟

— دعنا من هذا . ولكن أحب أن تعرف منذ الآن بأنه اذا
أقلقنتي أخواتك فسأترك الدار وستجدني لدى عودتك في بيت
أمي .

— كل شيء الا هذا ، هل سمعت ؟ ابعتي لى رسالة وأخبريني
عن كل ما يقلقك .. أخوك الصغير يحسن الكتابة ، أليس
كذلك ؟

وتركنا كثيرا من المسائل معلقة وامتنعت عن توصيتها بأي
شيء على وجه الخصوص ، ولم أعط لها أوامر معينة وإنما
اكتفيت في تلك اللحظات الأخيرة بإبداء بعض الآراء والنصائح
لها . والله يعلم ماذا سيكون مصيرها من بعدي . ولكن هذا أمر
لا بد منه .

— طيب ، طيب .. ولكن ماذا يفيد الحزن والأسى ؟ عجل
يا أخي سعيد .. سيكون الزحام شديدا على السيارة ،
لأن كثيرا من الناس مسافرون اليوم .

ورأينا الشيخ دحمان قد أقبل من خلفنا ، فبدا لنا طيفه كتلة
ضخمة ثقيلة ، وكان يسحب ولده الصغير الذي أخذ يبكي ،
وهذا الولد هو أصغر أبنائه . ورأينا أيضا العم محمدا الذي
كانت عيناه الكرويتان كعيني الكباش الوديع ، يشع منهما بريق

عجيب ، كأنهما ترفضان هذا الفراق ، وكأنهما تريدان الهروب
من وجهه الكئيب ، للبقاء في الدار ، برفقة زوجته وابنه الوحيد
الذي رزق به بعد سنين من اليأس .

كنا اذن خمسة من أهالي إينجيل نزمان نحت الخيط في العتبات
الخفيفة من الفجر ، بعدما اختفى القمر . وجدنا الحافلة
في الانتظار ، فارغة من الركاب ، الا أننا نعرف أنها ستسافر
بعد قليل وستكس فيها المسافرون على طول المسير الى المدينة ،
وستوقف في أسفل قرية آقني ثم تاويريت ثم تاقسوت ثم انغزوة
وأخيرا تيزي . ستهب من جميع القرى نفس الساذج البشري
من المتزين ونفس الاشباح التي تبدو في الصباح الكئيب
سوداء غير واضحة الملامح .. ستهب منها نفس الوجوه النحيلة
ذات الشفاه المتدلية والعيون المحرومة من النوم . وسيتبل كل
واحد بنفس الحقيبة التي سودها الدخان ، ونفس الرزمة من
القماش الغليظ المحزومة بالخيط . وما لبثنا ان تكدسنا في
السيارة . واختلطت أنفاسنا وامتزجت أحلامنا وراح كل واحد منا
يفكر في صت . وهكذا هبط الموكب الحزين .. لا أنذكر
بالضبط اسم القرية التي توقفت الحافلة فجأة فيها ليركب عدد
من الرجال ، وقد رافقهم كثير من النساء الباكيات . ولا يزال
ذلك المشهد مرتسما في ذهني الى الآن .. أحدث وسأل
الحافلة فيهم نوعا من الدهشة والحيرة فلم يتحرك أحد من
مكانه ، وبينما هم على تلك الحالة من الوجوم ، اذا بعجوز ذات
ملامح تنم عن الشدة ، ووجه شاحب كأنه الرخام الاصفر . اذا

بها قدنوا من الحافلة وقد أمسكت صبيا صغيرا من كتفه ودفعته الى الباب وهي ترمينا بنظرة مليئة بالحقه ، ثم صرخت في وجهه :

— هيا .. اركب ، عجل أنت واركب . أما رأيت أن الحافلة مكدسة بالركاب ؟

وما كاد الناس يسمعون قولها حتى اقتحموا الحافلة وازدحموا على بابها للدخول ، ولم يبق سوى النساء والصبيان والشيخوخ الذين أخذوا ينظرون إلينا مودعين حينما أقلعت الحافلة . ان المشهد كئيب ، وثياب النساء كامدة الالوان ، والوجوه نعسانة مكدودة : ولا أثر للابتسام عليها . تصوروا لوحة تشل الشيخوخة والتعب والاستسلام والشقاء .. تصوروا جنبا الى جنب عيوننا انطفاً بريقها وأخرى تنهمر منها الدموع وأخرى يتطاير منها الشرر ويلسع فيها الأمل أو الغضب . تصوروا رأس العجوز المرعب ، تلك العجوز التي ما جاءت الا لتدعو للجميع بالشر كأنها غراب منحوس . ذلك هو المنظر الذي لن أنساه أبدا .. وقال لي سعيد :

— أرايتها ؟ ستكون منحوسة علينا . الله يلفظ بنا . فأجبت :

— هذا الصبي ولدها فلا مجال للخوف اذن .

— صحيح والله ، ولكن يا ليتها بقيت في الدار ! فيا لحماقة هؤلاء النساء ! ما الفائدة من مرافقة الرجال الى الحافلة ؟ نساء اينيل نزمان أعقل منهن .

— طيب . ولكن لا تنس أننا أقلعنا وقت الفجر . أما الآن فقد طلع النهار . ومن الطبيعي أن تخرج النساء معهم لوداعهم .

لا أدري لماذا يخطر دائما ببالي هذا المشهد كلما أردت أن أتأسف على أبناء بلادنا أو أترحم عليهم . فهناك في البعيد ، أتمثل جبال جرجرة كتلة متراسة ثابتة الأركان .. قسها المكسوة بالثلوج . المحفوفة بالضباب . تختفي هناك في عنان السماء . انها أسوار منيعة تفصلنا عن الدنيا وما فيها .. وحول تلك القمم ترتفع الهضاب المغطاة بالأشجار القصيرة الدكناء . وأحول بصري فأرى من تحت الأعشاب القليلة تربة فاحلة وأرضا شاحبة بيضاء أو صفراء حسب تركيبها : من الرمل أو الشيست .. أرضا يعيش فيها رجال نحيفو الأبدان وتكثر فيها الذئاب والعنزات العجفاء . وعندما أرى النساء والفتيات والنسيان والشيوخ والعجائز قد وقفوا بجانب الطريق لتوديع المسافرين يخيل لي أنهم يقولون لنا :

« لا تظنوا أننا أغبياء . بل نحن عارفون .. نحن نعرف أنكم تغادرون بلاد الجوع وتذهبون الى جنة الدنيا . ولكنكم ستظلون في تلك الجنة غرباء وستضطرون للمودة الى جحيم بلادكم . وحينما تحطون الرحال هناك ستفكرون فينا في بداية الأمر ،

ولكن اذا قدر لكم أن تكونوا سعداء فسوف تنسونا بكل تأكيد .

أرحلوا عن هذه البلاد اذا شئتم فنجن . نعبطكم على ماتفعلون . ولكن لن يكون مصيركم هناك سوى الكفاح المزير ومعيشة الضنك والتعاسة .. كونوا على يقين أننا نحن - المعذبون في الأرض - نحتقركم لأنكم أنتم أيضا ستكونون في تلك الأرض معذيين ، وان كنتم تحاولون عبثا أن تهربوا من مصيركم المحتوم » .

وما لبثنا أن سمعنا العجوز تصرخ في وجه ذلك الطفل الصغير ، مكشرة عن أياها :

— هيا ، اركب وخذ مكانك في الحافلة وارحل عنا ، ولتحمل معك حقدي كله لأولئك القوم السعداء الذين سيحتبرونك أنت - ولدي الوحيد - كالكلب بينهم ... ولتعرف أنني سأضمر لك الحقد الدفين اذا فكرت ذات يوم في التخلي عني . لا تغتر بالسعادة اذا قدر لك أن تكون سعيدا هناك ، لأن سعادتك لا توجد الا في هذه البلاد وفي كوخك الحقيقير بالقرب من أمك التي ليس لها أحد سواك ولا تعباً بأحد في هذه الدنيا . اذهب أنت ومن معك . ارحلوا عنا كلكم أيها الجبناء ولتصحبكم لعنتي .

وقررت أنا وسعيد أن لا نخلتط بغيرنا من المسافرين . وليس في ذلك من عيب ، فنحن على كل حال أحرار في أن نفعل ما نشاء لأننا

لا نريد أن نكون من ضحايا التمييز العنصري ، فلسنا ممن يتحمل
الجو السائد في الدرجة الرابعة ، ولسنا ممن يصبر على الاحتقار
والزحام والاهانة ، وهو أقل ما يسكن أن ينالنا من ضرر هناك ..
أردنا أن تصان كرامتنا مثلما تصان أمتعتنا وأن نرتب أمورنا
حتى نصل الى مرسيليا سالمين من كل إيذاء . وإذا كان دحمان
وابنه يرضيان بالمذلة ، وإذا كان محمد لا يستغزه الاحتقار ،
فتلك عادتهم ولا يرون فيها من بأس . وهكذا افترقنا عنهم في
مدينة الجزائر ، فأخذنا التذاكر في سفينة صغيرة تابعة لشركة
غير مشهورة وأبحرنا عند الساعة السادسة مساء ، وكان ذلك
من خمس سنوات خلت تقريبا . وما كدنا نصل حتى بعثنا الى
الأهل والأصدقاء بطاقات بريدية ووصفنا فيها السفرة بأنها رائعة .

ظهرت الجزائر من على متن السفينة مخفوفة بالضباب . .
البحر أزرق داكن ، وفوق تلك الزرقة الدكناء رأينا في الأفق
البعيد لونا فاتحا يكاد يكون مخضرا ، وفوقها أيضا أبصرنا رقعة
يتناقص لونها الوردي تدريجيا الى أن يختلط بزرقة السماء
الفاتحة . . ضياء النهار لا يزال مشرقا من جهة البحر بينما أخذت
الشواطئ الجزائرية تختفي شيئا فشيئا في الظلام .. البحر
هاديء ولا يكاد يحس له الركاب سوى بهزة خفيفة تنبعث من
أمواج البحر الأزرق الداكن ، كأنهم على زريبة واسعة الأطراف من
القطيفة ، تحركها بنعومة يد خفية . وأخذت الباخرة ترسم على
صفحة الماء ثلما عريضا متلالئا كالقضة لا يكاد يتشكل حتى

يختفي كأنه الحلم الشارد .. الركاب على ظهر السفينة متراصون
أكداساً، يتفرجون على المناظر في صمت : فمنهم الخائف
الوجل ، ومنهم القوي الثابت العزيمة ، وكل واحد منهم يحاول
أن يتفهم الموقف الجديد وأن يطمئن نفسه بأنه لا داعي للخوف
من هذه الرحلة التي قد تخفي مع ذلك بعض المفاجآت .

ثم تسدنا على كراسينا الطويلة وقضينا الوقت ما بين حديث
وصمت . هل تتذكر يا سعيد ماذا كان موضوع أحاديثنا ؟ أما
أنا فلم يبق في ذهني من تلك السفرة سوى ذكري هاوية سحيقة
مظلمة كأنها خندق عميق مترامي الأطراف تهب فيه لسمات
عليلة . ولم أعد أتذكر سوى هدهدة البحر المنتظمة مع هدير
المحركات وأنين الأمواج التي تتهالك على حافة السفينة ثم تنبعث
من جديد كأنه ما تكون .. وما زلت أيضاً أتذكر الوجوم الذي
سيطر على نفسي من القلق والحيرة .

طلع النهار في اليوم التالي ساطعاً فمتعنا بصرنا بمنظر البحر
وقد أشرقت عليه الشمس في كبد السماء الزرقاء .. الأمواج
الفضيعة تزغي وتزبد ثم تخمد ، ثم تزغي وتزبد مرة أخرى . كأنها
في لمعانها أضواء مدينة تشاهد من مكان بعيد . بلادنا الآن قد
اختفت تماماً ، غير أن الإنسان إذا سرح ببصره في الأفق يستطيع
أن يتصور هناك في البعيد البعيد أرض الأجداد وقد لفها الظلام
ودبت فيها ألوف من الأضواء المشعة .

ونجانا الله من كل مرض في السفرة ووصلنا بالسلامة الى تلك الأرض المجهولة ، أرض الأحلام ، بعد اجتياز منطقة مكتنفة بالضباب والأهوال والمياه الدكناء . وبالفعل فقد كانت على حد تعبيرنا في البطاقات البريدية سفرة رائعة .

ولم تمض أربعة أيام على وصولنا حتى دفن سعيد في مقبرة بوييني ، وشيعه الى مقره الأخير أبناء بلاده من اينغل نزمان . وما من شك ان سبب وفاته هو الزائدة الدودية التي أصيب بنوبة منها في اليوم الثاني . وقد نقلته سيارة أجرة الى مستشفى بروسي ، ولكنه مات بعد اجراء العملية الجراحية . وذهبت لأرى جثمانه في النعش ، ثم شاركت في تشييع جنازته . وأنا من هذه الناحية قمت بواجبي ، والاخوان الذين جاءوا الى المقبرة الاسلامية على ذلك شهود .

وهكذا وجدتي وحدي في باريس مع اولاد العم والأصدقاء وجميع أبناء اينغل نزمان الكثيرين الموجودين هناك . وبطبيعة الحال ما لبثت على مر الايام أن نسيت سعيدا ، وصرت أعتبر الحزن عليه أمرا سخيفا . وذات يوم عدت الى البلاد عارفا تمام المعرفة أنه لن يحاسبني أحد ولن يتجاسر ليقول لي :

« أين تركت أخاك ؟ وماذا فعلت به ؟ لولاك ما كان . ليسافر الى فرنسا منذ أربع سنوات خلت . في تلك الصبيحة المشؤومة ، وعند الساعة الخامسة من يوم من أيام شهر أبريل ... أجب على هذا السؤال يا عميروش : أين تركت ولدي ؟ »

غير أن المرأة التي كان من الممكن أن تسألني هذا السؤال
توفيت قبيل رجوعي . أما بناتها فقد قابلنني بابتسامة ليس فيها
أثر للضغينة والحقد ، بل اعترفن لي بالفضل على الاقتراح الذي
أبديته بالنسبة لجثمان أخيهن . ولكن لا أعتقد أنا شخصيا أن
ذلك الاقتراح قد أجدى نفعا . وكنا - نحن جماعة من مثلي أبناء
البلاد - قد تقابلنا في « مقهى ومطعم الكسكسي اللذيذ » لاتخاذ
قرار ، فاقنعتهم بأنه لا ينبغي أن يرسل الجثمان الى أرض الوطن ،
بل يجب أن يدفن في باريس . وكنت متأكدا حينذاك أنني أجنبهم
مشاكل عويصة وأن أم سعيد لن تتحمل هذه الفاجعة الأليمة ،
وأن الواجب يقضي أن نخبيء عنها خبر وفاة ابنها . ولكن لم
يخطر لي بالبال أن السر سيظل مكتوما وأن البنات سيحرصن
ذلك الحرص الشديد على كتمانها ، وأن أم سعيد - نته
تأسعديث - ستموت من غير أن تعرف بأن ولدها قد سبقها .
وارجو يا أخي سعيد أن لا تؤاخذني على ذلك الاقتراح .

لم تنظر أمي بعين الرضى الى تصرفات الأرملة الشابة ، وأنا
أيضا غير راض عنها .. ولعلنا ظلمناها ، ولكننا نعتقد أن وفاة
زوجها سعيد لم يؤثر فيها الا تأثيرا بسيطا ، والا فلماذا صار أهلها
بمجرد رجوعي من فرنسا يتوددون الى أمي ويتقربون مني ؟ وما
هو الغرض من ذلك ؟

ولو شئت وطاوعت أمي ، لما وجدت أية صعوبة في الزواج
من أرملة المرحوم سعيد الذي كان من أعز أصدقائي وأخلصهم
.. ولكن هذه الصبية الحسنة قد انتهى أمرها : فلن تتزوج مني

ولا من غيري . لن تتزوج في اينيل نزمان على كل حال لأنه لا يرغب فيها أحد . والاجدر بها أن تصبر على المصيبة التي حلت بها وأن تكون أكثر وفاء للمرحوم : فللناس آذان والسنة وعيون وإذا حكموا على شخص فليس حكمهم من قبيل العبث .

ثم ان هذه البنت التي توفي زوجها بعد أشهر قليلة من عقد الزواج تعتبر في نظر الجميع منحوسة . وما من شك أنه لمن يرغب فيها أحد أبدا . انها هي أيضا تستحق الرحمة . وكيف لا وهي الصبية الصغيرة المدللة المنطلقة في تصرفاتها ، الخفيفة الروح . تلك الصبية التي كتب عليها بعد اليوم أن تدبل تدريجيا وأن تذوي كالخرقة البالية ، وأن تقضي بقية أيامها محرومة من بهجة الحياة ، لأنه لا بد ، مهما كانت الأحوال من أن تعيش ، وأن تعيش حتى اللحظة الأخيرة .

اليوم العاشر : 29 يناير من الخمسينات

لن أعيد قراءة ما كتبتة البارحة .. سأتركه الى وقت آخر ..
لقد قضيت يوما ممتعا ، ولعل الامر كان كذلك بالنسبة لسائر
الناس ، فقد أشرقت الشمس منذ الثامنة صباحا ، وأخذ البخار
يتصاعد من السقوف التي تراكم فوقها الجليد ، وصارت جوانب
المدائن تلمع كأنها المرايا ، واستحال الوحل في الازقة الى ذرات
ناعمة من الغبار وأصبحت المزبلة التي ترمى فيها القاذورات في
مدخل القرية مكانا دافئا مليئا بالسجاد الذي سوف يستخدم
في البستنة . ورأيت النساء في طريق العودة من العين ، وقد
لسعن هواء الصباح البارد وتبللت جوارهن وأرجلهن بالماء
وتوردت وجوههن وانطلقت السننهن في أحاديث بهيجة مرحة .

أما الصبايا الحسان ، فقد لبسن عباءات لا تكشف من البدن
سوى الاطراف ، فكأنهن الازهار الناعمة المتفتحة في خفر
وحياء .

ولمحت ذهبية حين مرت ، فسرت وراءها بدون أن أدري ،
الى أن بلغنا الزقاق : ولم يكن فيه أحد سوانا ، والتفتت مبتسمة

قبل أن تدخل الى الدار . وهكذا قنعت منها بالابتسامة ، ولكن نفسي لا تزال متشوقة الى أكثر من ذلك .

ثم انصرفت الى داري ودفعت الباب ودخلت وجلست على الصندوق وأخذت أنتظر مجيئها . وحينا دخلت بادرني بالقول :

— هل كنت تعرف أنني سأجيء ؟

— نعم كنت عارفا ..

واحسر وجهها وغضت بصرها وربما احسر وجهي أنا أيضا . ولم أستطع أن أصرف بصري عن وجهها الرائع . ولا أدري كيف قلت لها :

— اقتربي .. اقتربي مني يا ذهبية .

ودنت مني وهي لا تزال حمراء كالورد . رزينة المحيا . فياضة بالنعومة والجمال . رأيتها تدنو مني بطيئة في مشيتها كأنها طير التَّم ، وقدها التمايل ينم عن القوة والضعف في آن واحد .. دنت مني حتى لامستني واحتكت ركبتي بركبتي . وهي صامئة هادئة مستعدة لأن تسند رأسها على ذراعي كأنها أجمل زنبقة . ثم فتحت ذراعي لأستقبل تلك الزنبقة ولأتلقي تلك الهدية الرائعة في ذلك الصباح الباكر من شهر يناير الذي أشرقت فيه الشمس بعد يأس ، وبددت أشعتها البهيجة ما استقر في النفوس من حزن وكآبة .. فتحت ذراعي لأحتضنها . غير

أنني اكتفيت بملامستها ووضعت إحدى يدي على صدرها ،واليد الأخرى على كتفها حتى لا ترتاع مني ، ولكيلا تنقضي تلك اللحظات السعيدة بسرعة . وبقينا كذلك بعض الوقت لا نبدي حراكا ويدي تداعب نهدها الذي أحسست به صغيرا بارزا دافئا . ولكم كانت يدي التي أكتب بها الآن هذه اليوميات تحترق شوقا لمداعبته . وأخذت تنحني فوقي بوجهها شيئا فشيئا فقممت من مكاني وأمسكت الوجه الرائع الوقور بين يدي ووضعت شفتي في تردد على خدها فأطبقت عليه بقبلة خجولة .

ثم أخذت أتكلم كالجنون مرة ، وكالإنسان العاقل مرة أخرى . سأعيد حرفيا ما قلته لها لأن تلك اللحظات لن أنساها أبدا . كنا واقفين متعائنين .. وغضت بصرها حياء بينما أخذت بعيني ألتهمها وأداعبها وأحتضنها وأرتوي منها ، ثم قلت لها :

— لا تخافي يا ذهبية .

— أنا عارفة ...

— أصبح أحبك ؟ تعبينني ؟ قللي : اني أحبك .

—

— احلفي .

— أقسم لك بالله .

— الى الابد ؟

— الى الابد .

وبدون ان ندري جسنا على الحصيرة جنبا الى جنب ،
وعندئذ شعرت بالرغبة في البكاء ، وأعتقد أنها هي أيضا شعرت
بنفس الرغبة ، ولكنها زمت شفيتها . ومرت علينا فترة عصبية
من التوتر .

— ستكونين صديقتي وفتاتي وأعز من نفسي .. ليس لي أحد
سواك .. ستكونين لي أنا وحدي لأنني لا أرغب في أحد سواك .

وابتست وهي تميل برأسها على كتفي . وانحلت محرماتها
فكشفت عن شعر غير مضمفور .. شعر مرسل كأنه الحرير ،
يتدلى ثقيلًا الى خصرها .. وهو أسود اللون فاتحه ، أجعد مثل
شعري ، ولكنه منسبدل في نعومة ولطف . وأخذت منه ملء
اليد فائثال بين أصابعي كأنه خيوط من الحرير . وبدت في تلك
التسريحة الطويلة الغريبة كالغزالة الشاردة . ثم التفتت الي
فعلقت عيناى بعينيها النجلاوين اللتين ارتسمت عليهما الدهشة ،
وأبصرت فيهما من اللطف والمحبة ما لا أستطيع وصفه . وكأنني
بتلك العيون الزرقاء المزوجة بالسواد ، والمعبرة عن أعماق
نفسها ، تحاول أن تنطبع بصورتي وأن تنفذ الى أعماق قلبي ..
وهمست في أذنها :

— تعالي يا عزيزتي .

وفتحت ذراعي فاقتربت مني وعانقتني وأسندت رأسها على كتفي ، ثم أحسبت بها قد اتكأت علي بجسدها كله ، وتلاحقت أنفاسها قريبا من أذني فضممتها الى صدري .. وأغضت عينيها ، الا أن أهدابها الطويلة أخذت ترمش قليلا ، ثم اصفر وجهها ودارت بها الارض فغابت عن الوعي ، ووضعتها بحذر فوق الحصيرة ، ثم أخذت أبكي للمرة الثانية من بعد وفاة والدتي .

انه تصرف صياني ، وما أنا اذ أستسلم لنوبات البكاء الا صبي صغير . ولم البكاء ما دامت فهبية « معينة » لي وحدي منذ بضعة أشهر ؟ وهل هناك ما يدعو الى الغرابة فيما تبادلناه من عبارات ؟ وعلى كل حال فقد حصلت اليوم على نتيجة ، وهي التاكيد بأنني أحبها وأنها تحبني . ولكن ما الفائدة من ذلك ؟

لو عرفت انه مالهجة ما جرى بيننا لقلت لي : « ما فيه بأس يا عيروش .. خذها فقد أعطيتها لك . انها ما خلقت الا لك ، وكنت أعرف انها لم تخلق الا لك ، وكنت دائما أنتظر هذه اللحظة » .

ولكنني كنت سأجيبها : يا لك من غبية حمقاء يا انه مالهجة . فأنت لم تفهميني ولم تفهمي ذهبية .. لم تفهمي شيئا ، ولعلك تتساءلين ماذا سأفعل بعد ما حصل ؟ وهل تظنين بأنني أعرف ؟ لا أعتقدني أن القضية بسيطة بمثل هذه الدرجة ، بل سأنظر في المسألة مع

ذهبية نفسها ، سأنظر فيها من جميع الوجوه .. سأصارحها بكل شيء وسأشرح لها كل شيء حتى لا ألومني فيما بعد وحتى نزيل كل ما قد يؤدي الى سوء تفاهم . ينبغي لها أن نوائقي على طول الخط . فهذا هو الحب الحقيقي وهذه هي الاخوة والمودة .. أليس كذلك ؟

سأقول لها : « لا ينبغي يا عزيزتي أن تكون بيانا محبة ومودة لكي تعيش سعادة . بل على العكس : يسكن لهذه المحبة أن تجعلنا أشقياء . أليست الارملة الشابة التي توفي عنها سعيد جديرة بالرتاء ؟ انظري من حولك قليلا .. ماذا جرى لأولئك المتزوجين الذين كانوا يتوقعون النعيم المقيم والسعادة الدائمة بعد زواجهم ؟ ماتوا كلهم ، ولم يبق في ايقل زمان الا نساء أرامل يبحثن اليوم عن زوج آخر ، أو نساء مطلقات قد استسلمن لليأس .. لم يخلقوا من بعدهم الا اطفالا تمساء . ومنهم من قضى نحبه في باريس ودفن فيها . وترك من بعده متاعا قليلا .. هذا هو الواقع المرير . ولا شيء سواه .. اتريدين مني أن اقضي حياتي في الحل والترحال ما بين فرنسا والجزائر ؟ اتريدين أن يكون لك عدد كبير من الاولاد وان تشغلي بتربيتهم ريثما أعود من سفري المشؤوم كأنني الطائر المهاجر المنحوس ؟ الا تعتقدين أننا كالطيور المهاجرة المنحوسة ؟ أنا متأكد أنك تعتقدين ذلك . لقد كتب لنا الشقاء والعذاب مدى الحياة ، وحينما يأتي الربيع وتنزل أسرابا بتلك الأرض المتحضرة التي نؤمها طلبا للرزق ، فانا نعتبر أنفسنا كأصحاب الجحيم حين تتاح لهم زيارة

الجنة التي أعدها الله لعباده الصالحين . ويسمح سكان هذه الجنة لنا بالاقامة بينهم ، غير أننا لا نعد منهم ، اذ ليس لأمثالنا نصيب من السعادة والطمأنينة في جنتهم تلك . وحينئذ نصطنع لأنفسنا نوعا من السعادة الرخيصة ونمطا من الحياة يناسب نظامنا المحدودة ، ولا يخطر لنا أبدا بالبال أمام تلك المحلات التجارية الكبرى والشوارع الفسيحة والسيارات التي لا تعد ولا تحصى والمعروضات الرفيعة والمناضد المعبأة بالخيرات والبنائات الرائعة .. لا يخطر لنا أبدا بالبال أمام تلك الارزاق وذلك الجمال وتلك الحضارة وأمام تلك المشاهد التي لا تراها العين الا في الجنة الموعودة .. لا يخطر ببالنا أبدا أننا محرومون في هذه الدنيا ، بل ننسى أننا ، في القرن العشرين ، لا نزال نعيش في الدرك الاسفل من الحياة .

اننا أحيانا نفكر في أنفسنا ونقول : ما من شك أبدا أن كل هذه الاشياء رائعة .. ولكنها ليست لنا ، ولن يبقى لنا من متاع في هذه الدنيا سوى انجيل زلمان وحقوقه الجرداء وأكواخه الحقيرة وأزقته الضيقة ، ثم لا يلبث كل واحد منا أن ينهمك في جمع الدريهمات لعله يتمكن من شراء حقل جاره القاحل وتبديل الكوخ القديم بكوخ أحسن منه ، والفوز بفتاة ذات أعطاف بارزة .. فتاة ربما ستنجب له وارثا أو عددا من الورثة الذين سيكونون من بعده خير خلف لخير سلف .. على أن تكون تلك الفتاة عذراء — مثلما آمل أن تكوني يا ذهبية — وأن تكون من ذوات الصون والعفاف .

السيارات الرائعة تتلاحق واحدة بعد الأخرى في شوارع رائعة ، والحياة العصرية في كبريات المدن معروضة أمامنا كأنها شريط سينمائي ، ولكننا لا نحفل بها ، بل نواصل غنلنا بجد وثبات من أجل تحقيق أحلامنا . ويعلم الله أننا لا نصل دائما الى الغاية المنشودة . وحينما نعود الى بلادنا ، نعود اليها وكأننا ما رأينا ولا تعلمنا شيئا في تلك الديار ، ونغمس كغيرنا في حياة القرية فننجب أطقالا وننقسم الحقول الجرداء ونبنى مزيدا من الاكواخ عندما يتكاثر عدد أفراد الاسرة .

وأنت يا ذهبية ما خلقت الا لي ، فليس لدي اذن مانع في مسألة الزواج . ولكنني مع ذلك أتمنى أن يكون لك جهاز كسائر العروسات كما أتمنى أن ننام على سرير لا على الحصيرة وأن أوفر لك في البيت مائدة وبعض الكراسي وأن تكون حياتك كحياة بنات الشعب البسيطة وأن توجد في الدار صنبرة تملك بالماء وأن تتوفر لديك صحون بيضاء بل مجموعة كاملة من الصحون ، وأن أجعلها دائما مملوءة بما تشتهي النفس من المأكولات .. واني لأسئال هل أستطيع أن أضمن لك كل هذه اللوازم ؟ هل أستطيع أن أبعد عنك شبح الجوع والبرد وأن أعالجك بالادوية وأن أجعل أولادنا سعداء في هذه الحياة ؟ أم اننا سنقطع النسل حتى لا يكونوا أشقياء ؟ أتريدين أن تقع في ورطة وأن ندخل في تلك المغامرة السخيفة التي تجعلنا ندور في حلقة مفرغة ، وأن نقضي بقية أيامنا في هذه البلاد التي لم يعرف فيها آباؤنا وأجدادنا طوال حياتهم سوى الجوع والحرمان ؟

افك يا عزيزتي ستبدلين بسرعة وتصبحين قبيحة الصورة كغيرك من النساء . أما أنا فمأصبح كغيري من الناني ، شرس الطباع متعكر المزاج ، وسوف أعاملك معاملة قاسية . وفي آخر المطاف ، عندما تنقضي حياتنا كما تنقضي مدة الحكم على المجرم ، ستخلف من بعدنا أطفالا صغارا فندفع بهم الى الشقاء والعذاب .

الله يشهد يا ذهية أنني أحبك ، والدليل على ذلك أن صورتك لم تهرج خيالي منذ أن أشرق الصبح . وحينما أتمدد على الفراش لأنام في هذه الليلة ، سأطفيء المصباح وسأفتح ذراعي لكي أضلك الى صدري ، وربما سيزورني طيفك في المنام . ولكنني أتسنى أن يكون هذا الحلم الجليل هو الاخير وأن يجدي الناس عندما يستيقظون جامدا كالخشب ، وأن تصبحي أنت أيضا جثة هامدة بالقرب من أمك . ولا شك أن رفاقي لن يقصروا في دفننا جنبا الى جنب .

قررت أن أذهب الى فرنسا لوحدي وأن أضيع فيها الى الابد . وبذلك يستريح الناس مني ، فيقولون في بداية الامر :

— وهل هذا مستغرب منه ؟ أليس هو وللة الرومية ؟

وشيئا فشيئا ينساني الناس وتطوي صفحة من تاريخ بيت آيت العربي ، تلك العائلة التي كان قاسي ، زوج جدتي كمومة ، أبرز رجالها . ولن أخالط في فرنسا أبناء البلاد من ايفيل نرمان أو من غيرها من قرى منطقة القبائل بدون استثناء ، لأنهم من

« البيكو » على حد تعبير الفرنسيين . وأنا أتمساءل أحيانا من سيعطف على أمثالنا من الناس ؟ اننا نحن أبناء شمال أفريقيا نخبب دائما الثقة التي يضعها فينا من يظن بنا خيرا ويهتم بأمرنا . ولا يملك هؤلاء الا أن يصدوا عنا آسفين مشمزين ليتحدثوا عنا بالسوء ، وعندئذ تدفعهم طيبة قلوبهم الى أن يحذروا منا غيرهم من الناس الطيبين فيقولون لهم بأنهم جربوا فينا الخير فما أجدى ولا نفع في شيء . ولا شك أنهم سيجدون آذانا صاغية ، فلا يكون من الناس في آخر الامر الا أن يتساءلوا لماذا لا تزال المدن الفرنسية الطيبة تستقبل في أحيائها أمثالنا من الناس المنحطين ؟ لماذا لا يبقون في ديارهم عوض أن يأتوا الى بلاد يسودها النظام ، لينشروا فيها الفساد ؟

أما بالنسبة لهذا السؤال الاخير فان أي واحد من أبناء شمال أفريقيا يستطيع أن يرد على الفرنسيين بجواب مفحم ، وأن يبرر موقفه مرفوع الرأس . وأنا . وان كنت لا أنوي أن أدافع عن قضيتهم ، الا أنه اذا كان لا بد من شرح حالتنا ، فأنا أقول بأن مثلنا مثل الأمراض الزهرية . فالزهري يصيب المناطق السفلى الخفية القذرة من البدن ، فهو يتستر عن أعين الناس ولا يزول الا بعدما يصبح الانسان جثة هامدة . وما بلاد القبائل الا جثة نخرها الداء حتى لم يبق منها سوى العظام النخرة . فكيف لا نفر منها اذن ؟ وكيف لا نتجه الى تلك المدن الفرنسية الطيبة لكي نستقر فيها وننقل اليها ذلك الداء الويل ؟

لا أزال أتذكر ما نصحني به الشيخ دحمان الذي رافقنا
عند مغادرتنا القرية :

— اسمع يا ولدي : اذا أردت أن تنجح في فرنسا فكن دائما
جريئا وشجاعا . كنت أنا أبيع الخردة ، وكلما فكرت في أمري
أقول : هذه الخردة لا يسكن بيعها للناس الا اذا تجردت من
الحياء . وينبغي أن لا أنسى أنني في فرنسا لا في بلاد القبائل ،
ويجب علي اذن أن لا أقيم أي وزن للمبادئ ..

فأجبتة :

— وهل تسرق اذا اقتضى الامر ؟

— نعم يا ولدي ، لا بد في فرنسا من السرقة والكذب
والشكوى واثارة عطف الناس . أما الحياء ، فاني أحذرك من
أن تستحي .

— وماذا تفعل لو أهانك شخص وشتمك وقال لك : «يا ييكو»

القدر ؟

— اتحمل ذلك كله وأصبر عليه لكي أحصل على لقمة العيش
.. أما الكرامة .. فشيء أحتفظ به في نفسي الى أن أعود الى
بلادي .

— ألا تשמئ نفسك اذا كان اناس لا يثقون بك ويحتقرونك
ويلحقون بك الالهانة تلو الأخرى ويهضمون حقك ؟ ألا ترى

أنهم لا يعاملونك إلا بما تستحق ، وأن تجارتك معهم
خسارة ؟

— فهمت قصدك يا عميروش .. وأنا أنصحك ما دامت هذه
هي أفكارك أن لا تتعاطى البيع والشراء . فأنت لا تليق إلا
للشغل في المصانع .. ولا شك أن الشغل في المصانع له حسناته ، إلا
أن التجارة فيها ربح أوفر يا ولدي . أضف الى ذلك أنني بلغت من
العمر حدا لا يسمح لي بالشغل في المصانع . ولطالما اشتغلت فيها في
عهد الشباب ! وعلى كل حال ، فالتجارة لا تخلو من محاسن
شريطة أن لا يكون الانسان خجولا ، وأن لا يجد حرجا من
التعرض للناس في الطريق لبيع لهم ما لديه من سلع ..

على أنني لم آخذ بهذه النصيحة ، ولم أتجرد من الحياء في
سفرتي الأولى ، ولا أنوي أن أتجرد منه اليوم . وقد قسرت
أن أعود الى فرنسا بصورة نهائية . وهذه هي طبيعتي وهذا هو
مزاجي . فلا تستغرب بعد هذا اذا عرفت بأني رجعت من
فرنسا خلوي الوطاب ، فارغ الجيب ، ومن حسن الحظ أن الذين
تأبى نفوسهم أن يتجردوا من الحياء أخذ عددهم يتكاثر . ونحن
اليوم متمسكون بكرامتنا أشد التمسك .

غير أن الشيوخ يسخرون منا ، ولعلمهم على صواب .. أنهم
على صواب ، لأننا لا نلبث أن نتجرد من الحياء في آخر الامر ،
اذ لا يمضي الا وقت قصير حتى نشمئز من وضعيتنا ، فتتبدل
عقولنا ، وتتبع طريق الفساد ، وتتخاصم فيما بيننا ، ونساق
جميعا الى مركز الشرطة حيث نال النصيب الاوفر من السب

والشتم .. هل أفادتنا الثقافة اذن ، نحن أبناء هذا الجيل الشقي .
المعذب ؟ لا أعتقد ذلك ، لأننا نحن أيضا نحني رؤوسنا على
مضض .

وكل هذا النمل تتحملة لأننا سلكننا نفس السبيل الذي سلكه
الاولون ، فصرنا مثلهم نهاجر الى فرنسا ، طلبا للرزق ، وشأنا
حينما نساغر اليها كشأن طيور الزرزور التي تأتي الى بلادنا في
الشتاء أسرابا ، أو كالفلول المنهزمة من جيش فقد قلئده العسكري
في أرض العربة .

ولقد يقول البعض : لماذا تلوم أبناء قومك وتظلمهم ، وتعزز
رأي أولئك الذين دأبوا على الطعن فينا وتشويه سمعتنا في
الخارج ؟ وأنا أستطيع أن أرد عليهم :

— يجدر بنا أن لا نبالغ أيها السادة . فكلكم تعرفون بأنه
يوجد في ايغيل زمان شخص يشغل منصب كاتب في المركز
البلدي ويتقاضى شهريا مبلغا قدره عشرة آلاف فرنك ، وهو
يمارس عمله هذا من عدة سنوات خلت ، كما أنه يعني في أوقات
فراغه بأشجار الزيتون وتربية المواشي ... انه راض كل الرضى
عن حالته المادية وما عليكم الا أن تسألوه لتتأكدوا من ذلك ..
ثم انه شخص مجرب بأثم معنى الكلمة ، وما من بقعة في باريس
الا ويعرفها . وقد اشتغل سائق سيارة أجرة وحارسا في مرأب
بشارع بيجال وحصل على مال وافر من الطبقة الرفيعة ، ما بين
فنانين وانجليز وأمريكان من رواد الملاهي .. وحينما يحدثكم عن

كل ما شاهد في حياته لا تملكون الا أن تحملقوا فيه مشدوهين
كأنكم أمام شخص يقص عليكم قصة من ألف ليلة وليلة . وكم
أتمنى أن أقول لهذا الشخص :

— ماذا عاد بك الى هذا البلد المشؤوم اذن ؟ لماذا تتشبث
بسكتبك القدر كأنك مسمر عليه ، ولماذا تتعلق بمنصبك الحقير ؟
لاشك انك تبالغ في كلامك .

ولعله سيرد علي :

— صحيح أنني أبالغ في كلامي ... ولكنك تعرف جيدا أن كل
شيء بيد الانسان ما عدا المستقبل فهو بيد الله . أما الماضي فهو
ملك لكل واحد منا لكي يتصرف فيه كما يشاء . ولعلك لا تريد
أن أتحدث عن تجاربي الماضية . فلتعلم اذن أنني ذقت الحياة
حلوها ومرها وأصبح الشبان يحسدوني على الذكريات التي
احتفظت بها ولا يمكن لأي انسان أن يحرمني منها .

وكنت سأجيبه :

— طيب يا سيدي .. ولكنك على كل حال موظف حقير لأنك
تعودت على أخذ الرشوة من الناس . ولاشك أن العجائز والمغفلين
قد ذاقوا منك الأمرين .

وهكذا فان هذا السيد قنعت نفسه بعشرة آلاف فرنك شهريا
وتخلي عن جنة الدنيا (فرنسا) وعاد ليقيم في جحيم بلادنا ..
ومن يدري ، فلربما تعودنا على هذا الجحيم ، وأصبحنا في حالة

من الحيرة حتى صرنا لا نعرف كيف نخرج منها . أما أنا فسأدبر طريقة ... سوف أرحل عن هذه البلاد ، وأنسى كل من فيها وما فيها . أقسم بالله أنني عنك يا بلادي راحل ..

ولست أنا وحدي من يرى هذا الرأي . فكثير من أبناء اغيل نزمان قرروا أن لا يعودوا اليها أبدا . ولكنني مع ذلك أتساءل : ماذا يرغبهم في البقاء في فرنسا ؟ ربما كان السبب هو أنهم فيها أحرار ... على أن مصيرهم في باريس هو كمصير الفريق في نهر السين : فإذا طفت جثة أحد أبناء البلاد ، وظهرت على سطح الماء ، فإن الاخوان يجمعون التبرعات فيسأون بينهم ويرسلون الجثة الى أرض الوطن . وكذلك الامر بالنسبة الى باريس : فهي تطرد منها العرقى الفاشلين . ولا تستغرب بعد هذا إذا رأيت ذات يوم شخصا يعود الى القرية ، فلا يعرفه من أهاليها الا الشيوخ . انه يعود ليطالب بمكانه في الكوخ وفي النادي وفي المقبرة . ولقد يتذمر الناس بعض الشيء من قدومه ، ثم يفسحون له مكانا بينهم .. انني لا أشعر نحو أمثال هؤلاء الناس بأي عطف ، ولو كان لديهم أدنى كرامة لما عادوا الى البلاد أبدا .

ما من شك اذن أنهم وقعوا في حيرة من أمرهم . والرأي عندي أن بلادنا ، اما أنها تلائمهم ، فليعيشوا فيها اذن ، لأنها على كل حال أرض الوطن ... واما أنها تجثسهم من المشاق ما لا يطيقون فليرحلوا عنها اذن ، وليهجروها الى الأبد .

اتذكر الآن أنني ، حينما كنت منخرطا في الحزب ، كنت مولعا بمناقشة هذه المسائل مع رفاقي . وكنت دائما أشرح المشكلة

بصراحة تامة ، وأحدد موقعي بكل دقة ، ولا أترجح عنه مهما كانت الحجج . فاذا حاولوا أن يقنعوني بأن هذا الموقف يجعلني أدور في حلقة مفرغة ، كنت أرد عليهم بأنها على كل حال حلقة مغلقة كروية بأنهم معنى الكلمة ، وأن المشكلة العويصة بالنسبة لكل واحد منا هو أن نحدث فيها ثغرة لكي نخرج منها . ولا أزال الى جد الآن مصرا على نفس الأفكار ، ولا أزال أيضا أعتقد بأننا سجناء عاداتنا وتقاليدنا ، وأن الجهل قد أعمى بصائرنا وأن بعض الأشرار من الناس يستغلون هذا الوضع لغايتهم الخاصة .

أما بالنسبة الي فالأمر هين لأنني قررت أن أفر من هذا السجن .. بلى ، سوف أرحل عن هذه الجبال التي تسد الأفق أمامي .. وليبق فيها من يشاء .

اليوم الحادي عشر : 30 يناير من الخمسينات

كنت أعتقد منذ أسبوع ، بعد أن تم دفن أمي وبعد أن عذمت على كتابة هذه اليوميات ، أنني سأجد أشياء تستحق أن يقال . ويشهد الله أنني في حياتي كلها لم أفكر في مصيري مثلما فكرت فيه خلال هذا الاسبوع . وأنا لا أدري كيف سينتهي هذا الأمر ، وإنما أقول في نفسي كل مساء « خلاص ... لن ينقضي هذا اليوم حتى أعرف نفسي على حقيقتها ، ولن أترك شيئا منها خفيا » غير أنني في كل مرة أنام على أوراقتي وأخر صريع الكرى مكروب الفؤاد . فأين الحقيقة يا الهي ، وأين الحل ؟ كل ما أعرفه عن نفسي أنني لا أزال هنا في إيغيل نزمان حرا في أن أتصرف في أمري كما أشاء ، ولا يزال أمامي مستقبل أستطيع أن أنظمه كما أريد ... غير أنني أستطيع في نفس الوقت أن أضع له حدا . وبالإضافة الى ذلك فأنا متجرد من كل شيء .. من الدين ، ومن المباديء ، ومن المال . فماذا أفعل ؟ أنا محتار .. الشيء المؤكد هو أنني لن أبقى هنا ، لأن نفسي قد اشمأزت من كل شيء . سوف أجد الراحة في مكان آخر ، وربما سوف تدركني الشيخوخة في ديار العربة ... وربما سوف أجمع نصيبا من المال ،

وان كنت أشك في ذلك ... وذات يوم ، سوف يوافيني الاجل
هناك ، في ديار الغربية ، وهو على أية حال . نفس المصير المحتوم
الذي ينتظرنى لو أبقي هنا .

ولكن ، لا اخالني سأقدم على هذا العمل . لقد علمتنا التجربة
بأن دروب الحياة كلها دروب وعرة . فلماذا اذن أختار الطريق
السهل الذي يؤدي الى الهاوية ؟ ألم يكن يجدر بك يا عميروش
أن تختار المرتقى الصعب . فيتصبب جبينك بالعرق ، وتتسارع
أنفاسك اللأهثة من التعب ؟ ان الرجل الحق لا ينزل الى الهاوية
خائفا وجلا . بله يرمي بنفسه فيها دون تردد . وما عليك اذن
الا أن تختار : فاما أن تصعد الى العلياء ، واما أن ترمي بنفسك
الى الهاوية .. غير أنني . منذ البارحة . لم أعد أشعر بالرغبة في
أن ألقى بنفسي الى التهلكة . كما قررت أن لا أستسلم لليأس :
فقد استحوذت ذهبية على عقلي . ولم تبرح مسورتها خيالي ولا
لحظة واحدة . وكنت قد رأيتها في المنام ، وشبه لي في ذلك الحلم
الطويل المضطرب أنني أعيش واياها منذ عهد الطفولة ، وأنتي
لا أشعر معها لا بالسعادة ولا بالشقاء . وكانت تسأل لي تارة
في صورة أمي ، وتارة في صورة جدتي كمومة . وتارة أخرى في
صورة رفيق لي من رفاق المدرسة ، من انقطعت عي أخباره
تماما .. ثم حاولت أن احتضنها بين ذراعي ، ولكنها أفلتت مني
متضحكة ... وآخر صورة احتفظت بها من الحلم . صورتها وهي
وهي تجتاز عتبة الدار لتصرف . وما لبث الحلم أن أصبح
حقيقة ، لأنني توجهت الى دارها بمجرد أن استيقظت من النوم .

ومن حسن الحظ أن نه مألحة كانت قد ذهبت الى العين . ولكن لشدة تأثير الحلم في نفسي ، أخذت أتحدث معها في أمور عادية ، وبلهجة باردة ، مما سبب لها خيبة الامل ، لأنها ربما كانت تتوقع أن أفاتحها في أمور خطيرة .

وعلى اثر ذلك نظرت اليها مبتسما ، ومددت اليها الفنجان بعد أن شربت القهوة ، فاقتربت لتتناوله من يدي ، وعندئذ أحطت خصرها بذراعي ولثمت ثغرها ، فما كان منها الا أن صاحت صيحة خفيفة وابتعدت عني مترنحة لتجلس في استرخاء بالقرب من الكانون .

وقابلتها مرة أخرى في وقت الغداء عندما أتيت الى دار أهلها لتناول الطعام . ولا شك أن أبناء العم سوف تنطلق ألستهم باختلاف الأقاويل لأتني لم أعد أخرج مع نه مألحة وابنتها . سيقولون عني ما لم يتجاسروا على قوله فيما يتصل بأمي ، وهو أنني جلبت العار للعائلة كلها . ولكن أتحداهم ... ألا يعرفون أنه لا يمكن لمن كان مثلي ، رجلا أعزب ، أن يرتب فراشه لوحده وأن يوقد النار ويكنس البيت ؟ وماذا في الامر من عيب اذا كانت امرأة من الأقارب تعنى بشؤون داري ؟ وما الفرق بين أن تكون هذه المرأة هي عمتي أو بنت عمي ؟

ما عليهم الا أن يسدوا أفواههم ، وأن يغمضوا عيونهم ... أما نحن فسوف نعمل بنصيحة نه مألحة ... سوف نسد

آذاننا كما فعلت هي في شبابها عندما كانت لا تكثرت بأي انسان
في تصرفاتها .

أنا أعتقد أن ذهبية نقية طاهرة ، وأنها تحبني ، وقد وجدت
اليوم كأنها القطة الوفية اللطيفة . وكانت في كل المرات التي خلا
لنا فيها الجو تغريني بمعانقتها ، فإذا عانقتها أراها تغمض عينيها
وتقول لي وهي على وشك أن تستسلم :
— اتركني ... أنا لا أريد ..

غير أن الشيء الذي لا تريده في الواقع هو أن أتركها .
— هل تشعرين معي بالثقة والاطمئنان يا عزيزتي ؟
— كل الثقة ، وكل الاطمئنان .
— ألت اذن غلطانة ... لأنني لست معصوما ، ويمكن
أن أرتكب معك غلطة فادحة .
— أنا لا أخاف منك .

انها لا تزال صبية ، فعمرها لا يتجاوز الخامسة عشرة، وأنا
أحبها فلا يجوز أن أكون معها سافلا ديثا . وعندما عادت أمها
من الحقل في هذا المساء ظلت منشرة معي ، غير أنها أبدت
أمام أمها شيئا من التحفظ حتى لا يخامرها أدنى شك حول
علاقتنا . ولو أنها عرفت ما يجري بيننا لما وجدت أي حرج في
أن تتباهى بذلك أمام الناس وأن تورطني في مشكلة حتى
تحمليني على القبول :

— سأكون له بمثابة أمه ولن أشرط عليه أي صداق ولن
نقيم أية حفلة . انه رجل لا كالرجال ، وأمثاله من الشبان الفقراء
يتزوجون بدون حفلات ولا رسميات ، وبنتي وعميروش فقيران ،
ولكنهما غنيان بالجمال ، وزواجهما سيثير الحسد في قلوب
الكثير من الناس .

لا أظن أن ذهبية تضمر في باطنها أي شيء ... وهي فتاة
كبيرة بالنسبة لعمرها وعاقلة ، غير أنها لا تكلف نفسها أية
مشقة في التفكير . ومن واجبي اذن أن أفكر في مصيرها ما دمت
قادرا على ذلك . وقد انشغلت بها طول النهار وسوف أنشغل
بها غدا . وأنا متأكد — وان كانت هي لم تصارحني بذلك —
أنا متأكد أن نه مألحة ستصرف غدا الى أشغالها في العين ثم
في الحقل ، الا اذا ساءت أحوال الطقس . غير أنني على يقين
بأنها لن تسوء ، لأن الطقس لا بد من أن يتواطأ معنا .

أنا الآن لوحدي ، والليل قد لف الوجود ، والظلام دامس
في الخارج وشاحب في الداخل . أحس بغياهب الظلام قد
تسربت الى نفسي ، ومع ذلك فلا بد من أن أثبتن معالم الطريق
بكل وضوح وأن أتخذ قرارا .. أعني أنه لا بد من أن أتحمل
مسؤوليتي .

لقد وجدت نفسي كغيري من الناس ، أمام دروب وعرة . وما
نحن في الواقع الا قوم فقراء في بلاد فقيرة جدا . واني
لأتساءل : هل كتب علينا بالفعل أن نكون أشقياء في هذه الحياة؟

لماذا كانت جميع الدروب التي أراها أمامي هي دروب الشقاء ؟
 لنفرض أنني استصحبته ذهبية الى فرنسا وتزوجت بها وصرت
 أتعاون معها لنحقق لأنفسنا شيئا من السعادة ... فهل هذا
 يا الهي ممكن ؟ وكيف السبيل اليه ؟.. أنا مختار ...

قد يظن البعض ان التفكير في مصير أبناء بلادي هو الذي
 ينقص علي الحياة ويحرمني من النوم ... بل على العكس ،
 لا يهني أمرهم أبدا . وكل ما هنالك أن لي بينهم أصدقاء ،
 فليس من المستغرب اذن أن أتعرض لذكر أحدهم ... وأنا في
 الحقيقة لا أتكلم الا عن نفسي ، واعتقد أن كل واحد منا
 لا يجوز أن يتكلم الا عن نفسه ، وربما سينتج عن ذلك
 أن حالة الجميع سوف تتحسن الى حد بعيد .

وأنا ، كلما فكرت في أمري . أقول « لا بد لي من الرحيل مع
 ذهبية ... ولا بد أن أنقض الفبار عني وأن أذهب الى حيث تتوفر
 الامكانيات ولا تخيب الآمال » . وليس الرحيل بالأمر الصعب ،
 اذا كنت مستعدا للنسيان .. فما علي اذن الا أن أنسى
 بأثني من أبناء منطقة القبائل ، وأثني من أبناء الجزائر ...
 وسوف أوصي جميع رفاقي بأن ينسوا أصلهم وفصلهم ،
 وسوف أقول لهم : « اذا أوصاك أحد أن تتمسك بأصلك
 وفصلك ، فاعلم أنه عدوك ، لأنه يريد أن تكون في هذه الدنيا
 من الخاسرين . واذا كان هذا الشخص يتنعم بالسعادة والهناء ،
 فلانه يستغلك ويتنعم على حسابك ... واذا رحلنا عن هذه

البلاد ، فسوف تسوء حالة من كان يستغلنا ويتعمم بمرق جيننا ، ولكن حالتنا سوف تتحسن »

ان الزيارات متبادلة بين الجزائر وفرنسا : اذ ما فتى الفرنسيون يزورون بلادنا منذ ما يقرب من قرن ، ونحن نزور بلادهم منذ نصف قرن ... انه تبادل أخوي ، والدليل على ذلك أنني مرتبط بنسب الى كل من الجزائر وفرنسا . وهذا ما كنت دائما أقوله للرفاق من يطالع الجريدتين : « الجزائر المستقلة » و « التآخي بين الاجناس » . وكمر مرة شرحت لهم كيف غزا الفرنسيون بلادنا ، وكيف وزعت عليهم السلطة الحاكمة الأسلحة والمعدات والمواشي والاراضي والمنازل . وكيف استقروا في بلادنا أسادا ، محفوفين بالرعاية . وأخذوا يستثمرون الاراضي لصالحهم حتى أصبحوا يشعرون بأنهم في وطنهم . أما عرب المنطقة التي يقيمون فيها ، فليسوا في نظرهم سوى جماعة من « الانديجين » كما يسمونهم ، أي حيوانات متوحشة غدارة ، لابد من الاحتراس منها ، ولا بد أيضا من تطويعها بالعصا .. ان « الرسالة التحضيرية » لم تكن مجرد شعار ، بل أرادوا ان يطبقوه قولا وعملا .

واليوم ، كلما أتى أحدهم من فرنسا الى بلادنا ، فإنه لا يشعر أنه مهاجر غريب ، بل يأتي ليستوطن فيها ، ولا يلبث أن يصبح من الاغنياء لأنه يجد كل التسهيلات . فالماوظف يترقى في منصبه بطريقة سريعة . وان كان الناس لا يستغربون هذه السرعة ، لأنها أصبحت معتادة ... وكذلك شأن التجار ورجال الصناعة

والمقاولون .. فانهم يحصلون على أرباح خيالية ، ومع ذلك فلا يحمدون الله على حالتهم . وبما أن هؤلاء محل ثقة ، فإن الحكومة تقلدهم المسؤولية ، ولذلك تجد بينهم من يمثل الأهالي ويتحدث باسمهم ، ويدافع عن « مصلحتنا » ومصلحتهم في نفس الوقت . وهذا الأمر يذكرني بشخص من عندنا يتاجر في الزرابي ، وهو صاحب نوادر وفكاهات . وقد جرب الأيام وذاق حلوها ومرها . وأحب شيء إليه أن يتشفى من المتشردين الفرنسيين البؤساء ، فإذا صادف أحدا منهم نائما على مقعد من مقاعد الساحات العامة في باريس ، فانه يهزه ويوقظه من النوم ، ويدخل معه في الحديث ، بلا خوف ولا وجل ، فيقول له :

— قم يا غافل ، كفاك نوما ...

— أهذا أنت ؟ ماذا من جديد ؟

— لا شيء ... سوى أنني أبيع الخردة كمعادي .. أتريد مني نصيحة ؟ أنا لا أمزح معك .. إذا كنت هنا تمناني البؤس والشقاء ، فأنا أدلك على مكان تستطيع أن تصبح فيه شيخ بلدية .

— !!..

— نعم يا صديقي . عليك أن تذهب الى الجزائر وستصبح شيخ بلدية في الانتخابات القادمة ، والله قادر على كل شيء ... صدقني ما أقول واعمل بنصيحتي . اذهب الى الجزائر يا صديقي .

أما أنا ، فأفضل من الفرنسيين من ولد في الجزائر وولد آباؤه أيضا في الجزائر . فلا جدال أن هؤلاء « اخواننا في الوطن » . ولقد يقول البعض انهم يتمتعون بامتيازات ... ولكنهم اخوة لنا في الوطن على كل حال . وأنا أشعر نحوهم بالعطف والمودة لأنهم لا يخشون من أحد عندما يعتزون بأصلهم ، فيقولون للفرنسيين الموجودين في فرنسا :

— أتدرون من هم الجزائريون ؟ نحن الجزائريون ... والجزائر هي نحن .. انظروا ماذا أنجزنا من أعمال واشكروا نعمتنا عليكم يا سادة فرنسا ، ولا يسمح أحد منكم لنفسه بانتقادنا .

ولكن الشيء المؤسف أنهم يخاطبوننا بكلام آخر ، فاذا قلنا لهم اننا نحن كذلك جزائريون ، اذا بهم يردون علينا :

— أتمم جزائريون ..؟ طيب. ولكن ، ماذا تتصورون أتمم يا جماعة « الأنديجين » ؟ هل تعتقدون أننا سواسية ؟ فلتعلموا اذن أننا فرنسيون ... عودوا الى أماكنكم الوضيعة واعرفوا قدركم وقدرنا .. أو تريدون أن ترموا بنا الى البحر ، أيها الغدارون ، التكارون للخير .. ؟ أنقذينا. يا فرنسا من شر هؤلاء .

ان « اخواننا في الوطن » يعرفون من أين تؤكل الكتف ، ونحن لا نؤاخذهم على ما يفعلون لأنهم وقعوا على مائدة دسمة فكيف لا يأكلون ؟ هذا الأمر لم يعد يحتاج الى نقاش ، والمسألة واضحة فيما أرى : فهؤلاء المهاجرون الذين قدموا الى الجزائر ، أصبحنا نحن أهل البلاد نغبطهم على نعمتهم ، لأنهم

يحتلون أعلى المناصب ، بل جميع المناصب ، وليس منهم أحد
الا وتجدده قد أثرى وجمع مالا وافرا بعد سنوات قليلة . أما نحن
أهل البلاد ، فلم يبق لنا شيء في بلادنا . وما بقي لنا اذن الا
أن نذهب بدورنا الى بلادهم ... ولكن لا لنحتل المناصب ،
ولا لنجمع الثروات ، بل لكي نحصل على رغيف العيش ، سواء
عن طريق العمل الشريف ، أو التسول ، أو السرقة . وهذه هي
الصفقة الخاسرة التي يريدوننا أن نرضى بها . والحقيقة أن بلادنا
ليست أكثر فقرا من بقية البلدان الاخرى ... ولكن ، قل لي
بربك لمن هي بلادنا ؟ أهى لنا ونحن نسوت فيها من
الجوع ؟ كلا ...

سوف أقضي نهار الغد مع ذهبية ، ولعلني بذلك أقع في الفخ
المفضوح الذي نصبته لي ننه مألحة . واذا ما حدث هذا الامر
فلن أتأسف على كل حال لأنني أحبها ... ولا شك أنها سوف
ترافقني الى حيث أشاء . سأذهب معها الى البلدان المتحضرة
لنطالب فيها بمكاننا تحت الشمس . سنعيش ونناضل .. وساكون
وفيا مخلصا لها لأنها أُملي الوحيد في الحياة .

سوف أستقر في حي من أحياء مدينة كبرى . ولن يكون هذا
الحي في سان دنيس ولا في كوربفوا ، ولن تكون هذه المدينة
الكبرى هي باريس ولا مرسليليا ولا ليل . بل سأختار المدينة
التي ترحب بي وتعتبرني كأحد أبنائها . وحتى لو قدر لي أن
أستقر في احدى تلك المدن ، فسوف أدخلها بقلب طاهر ،

وعينين تشع فيهما البراءة ، ولذلك فسوف أراها في ثوب جديد ،
وسوف أحبها .

كوني يا أماء واثقة أن أهاني تلك البلاد لن يرجمني أحد منهم
بالحجارة ... فيا ليتني ما تربيت ولا نشأت مع هؤلاء الأجلاف
الغلاظ المقيمين في الجبال .. ولعلك الآن تعذريني على موقعي
منهم .

ولكن ، ها أنا ذا انفعل مرة أخرى ، وأتخذ في الكلام لهجة
ليست من طباعي ، ولعلني متأثر بالظلمات الحالكة وبالصقيع
الذي أخذ ينزل في هذه الليلة الباردة الهادئة . والصمت الرهيب
يحدق بي كأنني أعيش لوحدي في مكان بارد برد الصقيع ،
وبالقرب مني هذا الموقد الذي بدأ يخدم ، فلا أحرك ساكناً
لأؤجج ناره . وأنا هنا لوحدي في هذه الدار ، وما من أحد
يفكر معي في كل هذه الأمور وفي مصير اخواني .. غير أنني
أحس بغضب لا أدرك له سبباً ، يجتاحني من جميع النواحي ،
وينزل من السقف ، وينفذ من خلال الجدران ، ويصعد من
جوف الأرض ، ويملا الدار كأنه ضباب ، ويدخل إلى بدني
من خلال المسامات ويخنق أنفاسي . يا ليتني كسائر الناس ،
فلا أتدخل فيما لا يعنيني ولا أقول لأحد : يجب عليك أن تفعل
كذا أو كذا وأن تفرق بين الأخيار والاشرار ... فلماذا
أكلف نفسي كل هذا العناء ما دام الأمر لا يتعلق إلا بي ؟

أريد منك يا ذهبية أن تكوني على علم بأنني أحبك ...
واعتقد أنك تبادليني الحب بمثله ، وهذا منك يكفي ليجعلني
سعيدا .

أريد أن تكوني على علم بأنني قضيت فصل الشتاء في
باريس عدة مرات فعدت منها مريضا مكدودا ... وكنت من
يومين فقط أقول في نفسي فرحا مسرورا :

« اقتربت ساعتني الاخيرة ... سوف أرتاح من كل شيء ،
وما بقي لي الا أن أسلم أمري لله » . ولكن ، أنا الآن متأكد
أنني لست مريضا ولا أريد أن أموت ، بل قد عاودني الامل في
أن أكون قويا موفور الصحة والشباب ، وأن تمتد بنا الحياة
طويلا ... ولعلك تدركين لماذا كنت أمانع ولماذا كنت دائما
أشعر بوحشة ثقيلة ...

أنا لا أغبط المتنعمين بالسعادة في هذه الحياة ، ولا أحسدكم
على الخيرات التي رزقوا بها ... وان هي في الواقع الا ثمرات
جهودهم ، فليهنأوا بها غانمين . ولعلمهم ورثوا تلك النعمة من
آبائهم وأجدادهم الذين عرفوا المشاق والآلام وما قتلوا لمدة
أجيال يكدون ويعملون ويقاومون الفقر فيتغلبون عليه أحيانا
وينقلبهم أحيانا أخرى ... ان هذا الأمر لا يخفى علي ، فمن
الطبيعي اذن أن يدافعوا اليوم عن مصالحهم وأن لا يتكرموا
علينا بذلك النصيب من السعادة التي أخذنا نحن أيضا نطالب
بها ... هذا الأمر لا يخفى علي .. أنا لا أريد أن أبريء أبناء قومي

من العيوب ، فنحن في ذلك كغيرنا من الناس . ولكن الشيء الذي لا أقبله هو القول بأننا في الجملة قوم لا يصلحون . فلماذا يا ترى لا نصالح؟ ان السبب في ذلك بسيط، وهو أننا قوم محرومون من الثقافة . وكما أن أراضينا البور لن تصلح الا اذا تعهدناها بالخدمة والحراثة ، فكذلك نحن لا نصالح الا اذا تثقفنا .

كثيرا ما يقال لنا : « أتمم أنايون ولا تهتمون الا بمصالحكم الخاصة ... وليس لديكم ولا ذرة من الكرم والاخلاص والنبل في العواطف » وعندما نسمع الناس ينكرون علينا ذلك نعتسف بالحقيقة وان كنا نشعر في قرارة أنفسنا بوجود قوة كامنة تريد أن تنطلق . ونحن اليوم ، وان كنا مغلوبين على أمرنا ، الا أننا نشعر بوجود تلك القوة . وعندما تتحرر تلك القوة وتندفع الى الامام ، فسوف تثير دهشة العالم ... وعندئذ سوف يعرف الناس في شيء من الذهول أننا - رغم ما فينا من عيوب - قادرون على أن نجعل أمم الارض تنظر الينا بعين الاحترام والتقدير .

ولكن ، ما بالي أتدخل مرة أخرى في هذه الأمور ؟ ومن أنا حتى أسمح لنفسي بذلك ؟ وبماذا أمتاز على أي انسان آخر ، عن أية امرأة جاهلة ، عن ننه مألحة في بساطتها وطيبة قلبها وصفاء نفسها ؟ هل أمتاز عليهم بالثقافة ؟ ولكن هل من المؤكد أن الثقافة هي الدواء الناجع ... والدواء الوحيد ؟ وزيادة على ذلك فأنا في أعماق نفسي لا أقيم أي وزن لجميع هذه الامور ... سأمضي في سبيلي مرتاح البال ، ولن أتأسف على شيء مما سأتركه ... أما بالنسبة لذهبية ، فأنا محتار ..

وأنت يا أمي ، كوني مطمئنة .. فقد آن الأوان أن أسلك معك
الطريق الى أعالي الجبل ، وسيكون طريقنا وعرا كغيره من الطرق
ولكنه طريق مجهول لا يعرفه أحد . وكلما مضينا فيه الى الامام
سنجده يتحول الى درب ضيق محفوف بالأحراش والنباتات
الكثيفة ، ولكن سنظل نسير على دربنا ولن ندعو أحدا لمرافقتنا
... وكل من سار على الدرب وصل ...

اليوم الثاني عشر : 31 يناير من الخمسينات

لم أرد أن أتعجل الأمور قبل الأوان ، لأنني على يقين أن كل شيء سيتم على أحسن ما يرام . وكنت هادئا كأنتي تخلصت من همومي وتجردت من غرائزي الدنيئة . ولم أشعر بأي تعب ولا بأي الزعاج .. وأظن أن الحالة التي كنت فيها هي حالة الانسان السعيد .

قلت لها وأنا أبتسم في غباوة :

— أمك راحت الى العين .. أليس كذلك ؟

— لا .. بل ذهبت الى الحقل لقطف الزيتون .

— تقصدين زيتون شيخ البلدية ، أليس كذلك ؟ انه شخص أكرهه .

— لا يهمني ذلك ... وعلى كل حال فقد أعطانا شغلا .

— انه رجل غني وليس كمثلنا من المساكين . ولعلك تعرفين كيف يكون القبائلي اذا رزقه الله بالمال .. انه أبخل الناس وأكثرهم سرقة . وزيادة على هذا فما قيمة المال في هذه البلاد ..؟ صفر ..

- أنا لا أجب الأغنياء ولا المال .
- وأنا يا عزيزتي هل تحبينني ؟
- نعم .
- ولماذا تحبينني من فضلك ؟
- لأنك لست غنيا .
- وهل أنت أيضا تراققين أمك لقطف لزيتون ؟ وهل تقابلين ابنه في الحقل ؟
- يا لك من غيور . فلتعرف اذن أنني أرافقها الى الحقل وألتقي هناك بالأب والابن وبجميع الناس .
- انه يساوي الصفر عندي . لقد كان في باريس مثل البنت ..
- أما هنا فقد صار يتجبر لأن عائلته تملك معصرة الزيت .. انه وضع ، ولا يستحق أن أتخاصم معه .
- دعنا منه .
- مدي يديك يا ذهبية لأضمهما بين يدي .. طيب .. والآن هل تعرفين لماذا أحبك ؟
- أنت أعرف مني بذلك . أما أنا فأحبك لأنك لست كبقية الآخرين .
- هذا ما يقوله جميع الناس يا غبية .
- لا أكثرث بما يقولون .. وأنا أيضا لست كغيري من البنات .
- لا تهربي مني ..

وأحطت خصرها بذراعي فائثنى رأسها على كتفي ، وبقينا كذلك لحظات بدون أن تتبادل أية كلمة . وكان الباب منفرجا وكانت الغرفة مظلمة قليلا ... فارتاحت نفسها لتلك الظلمة الخفيفة وأحسست على صدري بنهديها النافرين ، وشعرت بهما دافئتين فضممتها بقوة وعنف الى صدري ، وقلت في نفسي : « لقد نجحت الخطة وما علي الا أن أستمر على هذا المنوال وأن لا أترجع ، لأن الموقف حرج » .

لا أدري كم بقينا من الوقت على تلك الجالة والى أي حد وصلت معها في تلك المداعبات . وكنت أسمعها تردد بين الحين والآخر نفس النغمة :

— لا .. لا أريد .. اتركني ..

فأجيبها :

— ولكنني أريد .. هل سمعت ؟..

ثم تجهش بالبكاء .. فأعرض عنها ، ثم تأخذ في الحديث ، وأثناء ذلك نسمع أحد أبناء العم أو أحد الأعمام يمر بالقرب من الدار ، فيبلغ مسامعنا وقع خطواتهم أو سعالهم . ولاشك أيضا أنهم سوف يستنكرون سلوكنا . غير أنني لا أقيم لذلك أي اعتبار . ان مالهة قد خرجت لقطف الزيتون في حقول شيخ البلدية مقابل الخمس من الغلة .. أما أنا فلن أخرج من الدار ، بل سأقضي النهار مع ذهبية . وقلت لها :

— هل تعرفين بماذا تتميزين عن بقية البنات ؟ المسألة بسيطة جداً : فأنت أجمل منهن ...

— لا ، ليس هذا هو قصدي ، وانما أردت أن أقول بأنني لست كبقية البنات لأنني مسيحية ، واسمي هو مونيكا .

— أهذا هو الاسم الذي تعرفين به لدى المسيحيين ..؟ طيب ، سأناديك باسم مونيكا ابتداء من اليوم . والغريب أن هذا الاسم يعجبني . وماذا فيه من عيب ؟

— المشكلة هي أنني أحبك ، غير أنني لست جديرة بك . وينبغي أن تعرف بأنني تأملت كثيراً في صفري .. أزوجك .. لا تقاطعني ، اذ لا بد أن أصارحك بأنني جرحت في صباي جرحاً لا يمكن أن يندمل .

— ماذا تقصدين ؟ اشرحي لي .

— جاءتني المصيبة من والدي .. كان يتعاطى الخمر ، وكان في كل أسبوع يعود من السوق سكران لا يعي ، فيسب أمي ويسبني أنا أيضاً .. ويقول لي ..

— هل اعتدى على عفافك ؟ لماذا قلت بأنك لست جديرة بي ؟

— ما هذا الكلام ؟ هل أنت مجنون ؟ ليس هذا هو المقصود ، وانما قال لي بأنني لست ابنته ، فترامت عليه أمي ، وهي من شدة الغضب تريد أن تفقأ عينيه ، ولكنه ظل يصرخ ويردد :

« لست بنتي ، لا ، لا ، لا » .

— وفيهم يضر ذلك ؟ ان لم تكوني بنته فأنت على كل حال بنت غيره .

— لا ... بل أنا بنته هو ، ولكنه أراد أن يحطم قلبي الى الأبد .
والآن ، خلاص .. لن أفكر فيه ، كما لو أنني خرجت الى حيز الوجود لوحدي بدون أب .. والحمد لله .. عندي أم أحبها ، وان كنت أحبك أكثر مما أحبها ، ولا أدري لماذا .. كنت دائما أحلم باعطاء قلبي وروحي لشخص لا أعرفه من قبل ، شخص تجمعني به المصادفة على دروب الحياة . وها هو ذا قد تحقق الحلم من غير أن أسعى الى تحقيقه .. كان أبي غيورا جدا ، ولعله على حق في غيرته .. كان دائما مقطب الجبين ، محترسا من الناس ، ولا يتكلم بما يخيش في خاطره الا بعد أن يشرب ويسكر ، وكان لا يصلي أبدا لأنه يكره الآباء البيض ولا يثق بهم أبدا . ومع ذلك ...

فقاطعتها قائلا :

— هل أنت اذن بنت أحد الآباء البيض ؟ قولي الحقيقة ، فلن أنزعج اذا عرفت ذلك : من منهم تشبهين ؟

— لماذا تقول لي هذا ؟ وما لي أراك قاسيا ؟

— لست قاسيا ، ولكن لا أحب الآباء البيض والمعلمين والأطباء ... أنا لا أحبهم بالمرّة ، وأنا متضايق منهم .

— لماذا يا عزيزي أنت متضايق منهم ؟

وعندئذ ألقى الي نظرة تبعث على الشفقة فرأيت عينيها اللتين
عكرت صفاءهما الدموع ، واندفعت اليها لأحتضنها بين ذراعي
ولأواسيها .

ويشهد الله أنني كنت حينذاك مخلصا ومستعدا لاعطائها قلبي
وحياتي .. يشهد الله أنني شعرت بالسعادة وأخذت أفكر في ألوف
من المشاريع ... يشهد الله أن جميع الأمور التي كانت معقدة
اتضححت في ذهني ، فأدركت فجأة لماذا أنا لا أزال في ايغيل نزمان
ولماذا بقيت في هذه القرية وحيدا بدون أنيس .. أدركت أنني شاب
في الخامسة والعشرين من العمر ، أتمتع بالصحة والجمال وأنعم
بالمودة ... وقد عثرت على هذه الضالة المنشودة في اللحظة التي
انغلقت فيها جميع الأبواب أمامي ، واعتراني ملل من كل شيء
بل حتى من نفسي ... وها أنا ذا أرى الجدار الذي سد أمامي
الطريق قد اختفى بتأثير قوة سحرية ، وأن الأفق المغلق انكشف
فجأة ليطلعني على عالم مشرق رائع .

والآن ما العمل ؟ ها أنا جالس مرة أخرى أمام الصندوق ، ولكن
للسرة الأخيرة .. جالس أمام أوراقى لأسجل عليها بأنتي أرفض
الحياة وأتمررد عليها ، وأنتي لا أزال كما كنت في هذا الصباح ،
مفتوح العينين ، صافي الذهن تماما ... أنا أرفض كل شيء ما عدا
هذه القارورة الصغيرة من الأنيسات التي سأشربها حتى الثمالة ، وما
عدا هذا الأنبوب من أقراص الجردنال التي سأذيقها في العرق قبل
أن أتجرعه . ولاشك أن صديقي سي العربي سيندم على ما فعل

حين أرشدني الى هذه الوسيلة ، ولكنني أشكره من أعماق قلبي
لأنني جبان الى حد ما ، وأخاف كثيرا من الألم . ولعل الطبيب
سيندم هو أيضا على ما فعل حين وصف الجرذال كدواء لأمي
بدون احتياط . وعلى كل حال فلن يعرف من الأمر شيئا .

ومع ذلك فلست يائسا ، وكل ما في الأمر أنني أصبحت عديم
الاحساس . وانه لشيء غريب أن لا أحس لا بالرغبة ولا بالغضب
ولا بالحق ، كما لو أن روحي قد انفصلت عني ووقفت أمامي
تواجهني وتملي علي بعض الأفكار التافهة التي تسجلها بصورة
آلية على الورق يدي الطيبة ، تلك اليد التي ستمتد عما قليل الى
زجاجة العرق لتسكب منها بعض الكؤوس . وفي الحقيقة من
الأفضل أن لا أفكر الآن في شيء والأحسن أن ألزم الصمت .

جاء دوري لأقول لك يا ذهبية : « لا أريد ... اتركيني ... لا
أريد » . وقد انتهى بك الأمر الى القبول ، بل كنت دائما في قرارة
نفسك تريدن ، وأنا أعرف أنك تمانعين فقط ، وزيادة على هذا
فقد عرفت عنك في الحين ما كنت في السابق أجهله ، ولا تعتقدي
أنني ألومك على ما فعلت ، أو أشك في حبك ومودتك .. كلا ..
ولكن المشكلة هي أنني لست في حاجة لا الى الحب ولا الى المودة
.. لقد فات الأوان يا عزيزتي ، ولكم كنت في السابق أقول في
نفسي : « يا لها من فتاة طاهرة بريئة » والآن صرت أقول : « ماذا
بقي لي من تلك الفتاة التي كنت أعبدنها ؟ » .

قلت لي مرة :

— اذا ما هجرتني ذات يوم فسأرحل عن هذه القرية ...
سأختفي عن الأنظار ، وأعتبر نفسي كالميتة . وأنا أعرف بعض
الراهبات اللواتي يقمن برعاية الفتيات اليتيمات . سأذهب عندهن
لأمكنث هناك الى آخر العمر . وهذه الفكرة بدأت تراودني في
هذه الايام الأخيرة .

قلت لي ذلك فلم أرد عليك بشيء ، وأنا الآن أريد أن أسألك
يا عزيزتي ، متى بدأت هذه الفكرة تخطر ببالك ؟ لعلك تريدين
مني أن أجيب على سؤالك وأن أقول : « انها نادمة على ما فعلت
.. وهذه الفكرة بدأت تراودها منذ ذلك اليوم المشؤوم .. »

ينبغي ان تعرفي مرة أخرى أنك حرة .. حرة في ان تتصرفي
كما شئت بجسدك . وفي الحقيقة ما الفائدة من أن أعذب نفسي
بمختلف الافتراضات والالتهامات ، وأن أبحث عن ذلك الشخص
الذي قام معك بذلك العمل الشنيع ؟ ما الفائدة من أن أغفر
غلطتك وألصاها ؟ وهل تظنين أنه من الصعب علي أن أعرف
الحقيقة ؟ وعلى سبيل المثال ... أليس ذلك الشخص هو ابن شيخ
البلدية ؟ وعلى كل حال ، فسواء كان هو أو غيره أو قوم آخرون ،
فالمسألة واحدة .

طبعاً قد يكون من حقك أن تحاسبيني على ما أجاسبك عليه .
ولاشك أنك لو نظرت الى سلوكي لوجدت أموراً كثيرة تستحق
اللوم .. ولكن القضية ليست كما تتصورين . ولتعرفي أولاً أنني

لا أحاسبك على شيء . وزيادة على ذلك لا أري لزاما على نفسي أن أكون عاقلا، ومن ذوي الاخلاق الفاضلة... والواقع يا عزيزتي أنه لا توجد بيني وبينك أية مشكلة ، وكل ما في الامر أنك كنت معي لطيفة ، فشكرا لك على لطفك، وأتمنى لك كل سعادة ..

ولكن ما بالي قد غفلت عن أمري ؟ ها أنا ذا أسمع صرير الباب ... فهل أنت الطارق يا مقران ؟ لم أكن أتوقع مجيئك في هذه الليلة ، بل كدت أنساك تماما وأضرب عنك صفحا الى الأبد . ولكن، معك حق يا مقران وحسنا فعلت اذ أتيت لأنني الآن لابد من أن أتقطع عن التفكير وأنشغل بك وحدك .

سامحيني يا ذهبية ، فقد أدركت الآن كل شيء ... أدركت قصدك حين قلت لي منذ حين ، وأنت تجهشين بالبكاء :

— أراك تريد الانصراف .. خذ حذرك من مقران ... انه ينوي أن يقتلك .

ولكن هزرت كتفي غير مكترث ، وانصرفت وأنا أشعر بالاشمزاز .. كلما لك لا تزال ترن في أذني : « انه ينوي أن يقتلك » . ولكن ما الفائدة من هذا التحذير بعد ما اعتدى على عفافك ، فلما رآك غادية الى الجقل سار من ورائك وأخذك بالعصب والقوة . ولا شك أنك صارحت أمك بذلك ، غير أنكما معا احتفظتما بالسرفتي مكتوما . هذا ما أتصوره عن المسألة ، وأنا أستبعد أن تكون الأمور قد حدثت على شكل آخر ، فليس

من الممكن مثلا أن تكوني قد استسلمت له عن طواعية واختيار ، ومثل هذه الفكرة لا تخطر على البال أبدا . ولكنه على كل حال انتقم لنفسه منك يا ذهبية المسكينة ... والآن انتهى كل شيء بيني وبينك ، ولا تظني أبدا أن موقفي منك ناتج عن حرصي على ما يتعلق به الناس من قيم ومبادئ ... كلا ، بل أنا عازف عنك لأنك خييت أملا بسيطا ، وكنت أنت ذلك الامل الذي أعاد الثقة الى نفسي وجعلني أعتقد أنني سأصبح رجلا عاقلا كثير من الناس . كنت ذلك الامل الذي جعلني أطمع في السعادة والحب الطاهر ، وإن كنت في الواقع لا أستحقه ، ذلك الحب الذي كدت أحصل عليه ، بل أخذت أستعد لأنتزعه من يد الدهر .. أما الآن فأنت في نظري كالشخص الغريب الذي لا أعرفه ..

ها أنا ذا أسمع وقع خطوات في باحة الدار ، ولعله مقرران ... انه يقترب من القفل . الحمد لله الذي ساق أقدامك الى هذا المكان في هذه الساعة من الليل .. الريح تصرخ من خلال شقوق الأبواب مصحوبة بالبرق والرعد ... رأسي يضج بالصخب مثل السماء . وأنا أتصور يا مقرران أن غضبك شديد .. لا يقل شدة عن غضبي ، ودوي الرعد الذي سيغطي أصواتنا ، ويطغى عليها .. غضبك شديد ، والحق قد أعمالك يا مقرران . أما أنا فلم أعد أسيطر على نفسي من الغضب .

دعني من هذه القارورة فلن أمسها ، وربما سأشرب منها فيما بعد .. أما الآن هيا بنا ، أنا وأنت يا مقرران .

اخبار محلية

(من مراسلنا الخاص)

حادث انتحار آخر في اينغيل نزمان .

ان قرية اينغيل نزمان الهادئة رزئت مرة أخرى بحادثة انتحار مؤسفة . فقد عثرت احدى النساء على المدعو عامر نايت العربي جثة هامة ، وكان ممدودا بالقرب من الباب الخارجي المفتوح على مصراعيه . وقد اخترقت صدغه رصاصة مسدس . وفي الحين توجهت المرأة السابقة الذكر ، وهي من أقارب القتل ، الى مكتب المركز البلدي لاطلاع شيخ البلدية وكاتبها الموقع أسفل هذا التقرير ، وما ان بلغهما الخبر حتى توجهتا الى منزل القتل ، فوجدا بالقرب منه السلاح الآنف الذكر . وأمر شيخ البلدية أن يظل كل شيء على ما هو عليه في انتظار وصول السلطات ، وأجرى بدون تريث مكالمات هاتفية مع رجال الدرك والنيابة الذين وصلوا في الظهيرة لاجراء التحقيق .

وبما أنه عثر في المنزل على قارورة من العرق وأنبوب من أقراص
الجرذنال ، فقد ثبت نهائيا أن سبب الوفاة يعود الى الانتحار .
ونظرا الى رداءة الطقس ، وعصف الرياح في الليل ، وقصف
الرعود ، وسقوط المطر ، فلم يسمح أي واحد من الجيران الطلقة
النارية .

ومن الجدير بالذكر أن عامرا شاب يتمتع بتقدير جسيم
الأهالي ، ولم يكن له أي عدو في القرية أبدا . ولاشك أن عمله
المؤسف يعود الى توتره العصبي بعد وفاة أمه منذ عشرة أيام ،
وبعد انتحار امرأة عجوز مجنونة منذ بضعة أيام . ويعتقد الناس
إن هذه الحادثة الأخيرة ربما دفعته للاقتداء بما صنعته تلك المرأة .

آكلي نايت سليمان

نقلا عن جرائد 2 فبراير 1950

انجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية بن مكنون - الجزائر.

■ مولود فرعون من مواليد 8 مارس 1913 . مسقط رأسه قرية تيزي هيل ، تخرج من دار المعلمين الابتدائية (بوزريعة 1932 - 1935) تقلد عدة مناصب آخرها مفتشية المراكز الاجتماعية ، وفي 15 مارس 1962 ، بينما كان يشارك في إجتماع عقد بمكان يسمى « القصر الملكي » الواقع في حي الأبيار ، إذا بمقرزة من المنظمة المسلحة السرية تدهم قاعة الإجتماع وتمطر الحاضرين بوابل من الرصاص ، كان الفقيه يؤمن بأن المدرسة قادرة على تحرير الإنسان . وما أصدق عمروش حينما قال على إثر اغتياله : « هو من خيرة أبناء بلادي ، وترى على القانون الصارم ، قانون (النيف ، أو الأنفة) . » وكان من ذوي الموهبة الفذة . حتى إن بعض النقاد يعتبرونه أجدر من البير كاميو بنيل جائزة نوبل ، وأعماله مترجمة إلى العديد من اللغات .

■ قد يظن البعض أن (الدروب الوعرة) مجرد قصة حبّ وغرام ، وغيره وانتقام . ولكن الناقد سرعان ما يكتشف وراء هذه العواطف المحتدمة صراعا بين القديم والجديد ، بين الشباب والشيخوخ ، بين التبشير والإسلام . . قيل عن فرعون بأنه لم يكن من الكتاب الملتزمين ، ولكن ، يشفع له على هذا الموقف أنه كان من ذوي الأحساس المرهف : فكل رواية له إنما هي أنشودة حلوة يمجّد فيها أرض الأباء والأجداد .